رواية

مجهولة نهر السين

غيوم ميسو

مكتبة 1111

نوفل

داليا إليها كتابها
تقرأ رفقة صديقاتها
أنها من مكتبة وروادها
وقد تمنت فجاءها مرادها
ولتهنى .. بالقصة وأحداثها

مجهولة نهر السين

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2023 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2023
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة
t.me/soramnqraa

19 3 2023

صورة الغلاف: **Joanna Jankowska / Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **بثينة الحكيم**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-060-000-3
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-060-001-0

Original title:
L'inconnue de la Seine by Guillaume Musso
© Calmann-Lévy, 2021

رواية

مكتبة | 1111
t.me/soramnqraa

مجهولة نهر السين

غيوم ميسو

نقلته من الفرنسيّة سمر معتوق

نوفل

إلى إنغريد
إلى ناتان وفلورا

ربحتُ الكثير من المعارك في حياتي،
لكنّي استغرقت وقتًا طويلًا لأتعوّد على فكرة
أنّنا مهما ربحنا من معارك
لا يمكننا ربح الحرب.

رومان غاري،

وعد الفجر

I

مجهولة نهر السين

الاثنين 21 كانون الأوّل

1

برج الساعة

تأتي ساعة يجد فيها كلٌّ منّا نفسه أمام ضـرورة تـحـديـد مـصـيـره، واتّـخـاذ الخطوة الحاسمة التي لن يعود بإمكانه الرجوع عنها.

جورج سيمنون

مكتبة
t.me/soramnqraa

.1

باريس.

– هذه المرّة، عرّضتِنا جميعًا للخطر، روكسان: الفرقة، زملاؤك، أنا...

كانت السيّارة، التي لا تحمل أيّ علامةٍ على أنّها سيّارة شرطة، قد خرجت للتوّ من جـادّة «لا غـرانـد أرمـيـه» متوجّهةً نحو ساحة «ليتوال». أرخى القائد سوربييه فكّه للمرّة الأولى منذ مغادرتهما مدينة نانتير. كانت أصابع الشرطي متشبّثةً بمقود السيّارة، وهو يواصل توبيخه بنبرةٍ كئيبة.

– في الظروف الراهنة، إذا تسرّب ما فعلتِه إلى الصحافة، فحتى المفوّض شاربونيل قد يُصرف من الخدمة.

كانت روكسان مونكريستيين جالسةً بجواره معتصمةً بالصمت، تراقب قطرات المطر تسيل على الزجاج. بدت باريس متجهّمةً بسمائها القاتمة الرماديّة، وهي لا زالت تُكدّس الأيام المظلمة منذ بداية الشهر. غمرت الرطوبة المقصورة بأكملها. فانحنت الشرطية لتشغيل جهاز التكييف بأقصى درجة لإزالة الضباب الذي غطّى الزجاج، ثمّ زمّت جفنَيها وركّزت نظرها. ظهر طيف الكتلة الضخمة لقوس النصر وكأنّه ينازع لينقشع من خلف ستار المطر. جعلها المنظر الكئيب تستذكر ذلك السبت، عندما قامت أعنف انتفاضةٍ للسترات الصفراء بتخريب الصرح الباريسي. كان مشهد العصيان ذاك قد جاب العالم مجسِّدًا الجوَّ السلبيّ الذي سمّم البلد. ومنذ ذلك الحين، لم تتحسّن الأمور على الإطلاق.

أنهى سوربييه حديثه وهو يعدّل من سرعة السيارة ليسلك جادة مارسو:

– باختصار، لقد أوقعتِنا جميعًا في ورطةٍ كبيرة.

كانت روكسان غارقةً في مقعدها، تتلقّى عبارات التأنيب دون أن تفكّر للحظة في الدفاع عن نفسها. كانت تكنّ احترامًا كبيرًا لرئيسها القائد سوربييه، الذي يترأس فرقة البحث الوطنية عن الهاربين. كانت المشكلة منها. فقد دخلت، منذ عدّة أشهر، في نفق لا نهاية له. فركت جفنيها وخفضت زجاج السيارة. بينما كان الهواء النقيّ يلفح وجهها، أرادت أن تصدّق أنّها استرجعت طاقتها، وأنّها اهتدت فجأةً للفكرة الشافية: ابتداءً من الآن، مصيرها سوف يُكتب بعيدًا عن الشرطة الوطنية.

– سأقدّم استقالتي، سيّدي، قالت وهي تستقيم في مقعدها. هذا أفضل للجميع.

شعرت روكسان بشيء من التحرّر وهي تنطق هذه الكلمات. فقد وجدت نفسها اليوم، هي التي كرّست حياتها دومًا لوظيفتها، غير قادرة على ممارستها بشكل صحيح. وشأنها شأن العديد من زملائها، تحوّل عدم ارتياحها مع مرور الوقت إلى حالة قلق حقيقية. ففي فرنسا، وتحديدًا في منطقة باريس، كانت مشاعر الحقد والكراهية تجاه الشرطة واضحةً، في كلّ مكان.

«اقتلوا أنفسكم! اقتلوا أنفسكم!»، راحت تتذكّر الشعارات الدنيئة التي هتف بها المحتجّون تجاه الشرطة أثناء المظاهرات. هذا هو الوقت المناسب، فكّرت وهي تستنشق الهواء الملوّث. إنّه الوقت المناسب للانسحاب.

كانت دوّامةٌ مريعةٌ قد انطلقت، مؤجّجةً كراهية الناس لمن كان من المفترض أن يحمونهم. نُصِبَت الأشراك لرجال الشرطة في المدن، وطُوِّقَت المخافر، كما تعرّضوا للعنف خلال المظاهرات ورُموا بالألعاب النارية في وسط باريس. كان أطفالهم يذهبون إلى المدارس والخوف يستولي عليهم، وكانت عائلاتهم تتفكّك. سبتٌ بعد سبت، ومظاهرةٌ تلو المظاهرة، بدأت القنوات الإخبارية تصوّرهم على أنّهم نازيّون يستولي عليهم جشع قبيح.

«اقتلوا أنفسكم! اقتلوا أنفسكم!»، هذا هو الوقت المناسب للانسحاب. كانت محظوظةً لأنّها لم تكن مقيّدة بقرض تسدّده، أو طفل تعيله، أو مسكنٍ عليها تحمّل نفقاته. ما كانت لتترك الشرطة فحسب، بل كلّ هذا البلد السقيم. سوف تبحث عن صخرة منعزلة، لكنْ قريبة، تراقبه منها بألم، بينما تتآكله النيران.

– سيصلكَ طلب استقالتي الليلة، أكّدت له.

هزّ سوربييه رأسه.

– لا تحلمي، روكسان. لن تنجي بفعلتك!

كانت السيارة تسير الآن على امتداد نهر السين باتجاه ساحة الكونكورد. أظهرت الشرطية، لأوّل مرة، تعكّر مزاجها.

– هل يمكنني على الأقلّ أن أعرف إلى أين تأخذني؟

– سنخرج من المدينة.

كادت هذه العبارة أن ترسم ابتسامةً على ثغرها. استحضرت الريف الأخضر، والنسيم العليل، والحقول الممتدّة على مدّ البصر، وسنابل القمح الناضجة تحت أشعة الشمس، ورنين الأجراس المعلّقة في رقاب البقر. تخيّلت بقعةً نائيةً وبعيدةً عن الواقع الباريسي: مدينةٌ تغلغل فيها المرض، قذرةٌ لا روح فيها، تلفّها طبقة من التلوّث والحزن اللّامتناهي.

انتظر سوربييه أن يبلغا منتصف جسر الكونكورد قبل أن يشرح ما كان يدور في ذهنه.

– إليكِ الخطّة يا روكسان. لقد وجد شاربونيل دائـرةً هادئةً لإبعادك عن الأنظار لبضعة أشهر.

– يتمّ نقلي، إذًا...

– مؤقّتًا، نعم.

فرانسوا شاربونيل هو المفوّض العام المسؤول عن المكتب المركزي لمكافحة الجريمة المنظمة الذي تعمل تحت مظلّته فرقة البحث الوطنية عن الهاربين.

– ووحدة التحقيق الخاصّة بي؟

– سيتولّى الملازم بوتساريس المهمّة. هذه فرصة لتستعيدي استـقرارك. بعدها، إن كنت لا تزالين متمسّكةً بـرأيك، بإمكانك التخلّي عنّا.

رفعت روكسان يدها إلى صدرها، الذي أشعلَته فجأة حرقة ارتجاعٍ حمضي.

– عمليًا، ما هو هذا التنصيب الجديد؟

.2

– هل سمعتِ من قبل بمكتب الشؤون غير التقليدية؟

– لا.

– بصراحة، أنا أيضًا لم أسمع به... حتى هذا الصباح.

كان سوربييه صادقًا على الأقلّ. لم يسعَ إلى تجميل عرضه.

كانت المسّاحات تكافح لإزالة المطر الذي انهمر بغزارة على الزجاج الأمامي. كانت السيّارة على الضفّة اليسرى، جامدةً لا تتحرّك، وسط الاختناق المروري الذي شلّ جادة سان جيرمان.

أوضح الشرطي:

– أُنشِئ مكتب الشؤون غير التقليدية في عهد بومبيدو في العام 1971، وهو يخضع مباشرةً لمديرية الشرطة. في البداية، كان الهدف من الفرع التحقيق في الحالات غير المألوفة التي لم تتمكّن الشرطة القضائية من إيجاد الأجوبة المنطقية لها.

– ماذا تقصد بـ«غير مألوفة»؟

– كلّ ما يتعلق بما وراء الطبيعة.

– هل تمزح؟

– لا، ولكن علينا أن نضع أنفسنا في سياق ذاك العصر، أجاب سوربييه مبرّرًا. كان المجتمع قد بدأ يكتشف ما سُمّي بـ«الواقعية

السحرية»[1]، وكان الجميع يسعى إلى البحث في مجالات لم تكن تنكبّ عليها الأبحاث العلميّة الرسمية. كانت الأجسام الطائرة المجهولة تستهوي الناس، وكتاب «صباح السّحَرة»[2] من أكثر الكتب مبيعًا في المكتبات. وكانت مجموعة GEIPAN[3] على وشك أن تفتح أبوابها في تولوز...

– لمَ لا يعلم أحد بهذا الأمر؟

هزّ الضابط بكتفيه.

– كان هناك عدد قليل من المقالات بهذا الشأن في الصحافة في ذلك الوقت. وكان يعمل ضمن هذا المكتب حوالي عشرة أشخاص في نهاية السبعينيّات والثمانينيّات. لكنّ هيمنة الاشتراكية وتطوّر المجتمع ساهما في تغيير طبيعة العمل في المكتب الذي تحوّل تدريجيًا لمكان يؤوي رجال الشرطة الذين هم على وشك الانهيار أو الذين وقعوا في ورطة بعد ارتكاب خطأ فادح.

كانت روكسان قد سمعت من قبل عن مركز لو كوربا الصحّي الذي أنشأته شركات الأمن الجمهوري في تورين، والذي يستقبل رجال الشرطة الرازحين تحت وطأة الاكتئاب أو المدمنين على الكحول أو منهَكي القوى، ولكن لم يحدث لها أبدًا أن سمعت عن هذا المكان.

– مع مرور الوقت، غيّر مكتب الشؤون غير التقليدية مكانه وذابت عضويته النشطة كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس. اليوم، ليس سوى بندٍ في الميزانية وسوف يختفي أيضًا في حزيران المقبل. لذلك من المحتمل أن تكوني الشرطي الأخير الذي يشغل هذا المنصب.

1 الواقعية السحرية هي نهج أدبي ينسج عالمًا يتشابك فيه الخيال والأسطورة بالحياة اليومية.

2 Le Matin des Magiciens.

3 Geipan هي مجموعة الدراسات والمعلومات حول الظواهر الفضائية المجهولة الهوية.

– ألم تستطع إيجاد منفًى آخر لي غير هذا المكان؟

لم يدع سوربييه التعليق يمرّ مرور الكرام.

– لا أعتقد أنّكِ في موقع قوّة هنا، يا روكسان. وبالنسبة لشخصٍ أراد الاستقالة قبل خمس دقائق، أجدك متذمّرةً بعض الشيء.

استدار القائد يمينًا لدخول شارع باك. خفضت روكسان زجاج نافذتها بشكل كامل. غرونيل، فيرنوي، فارين... لقد نشأت في شارع سان توماس، وكانت ترتاد مدرسةً على مقربة من هذا المكان، في سانت كلوتيلد. عمل والدها العسكريّ في فندق دو بريان، في وزارة القوّات المسلّحة، وعاشت العائلة في شارع كازيمير بيرييه. كان شارع سان توماس داكين بمثابة شارع سان جيرمان دي بري من دون السيّاح والمدّعين المتفاخرين. كم هي غير متوقّعة العودة إلى هنا اليوم. تدافعت في رأسها ذكريات غامضة، لكن دافئةٌ: أرضيّة خشبية على طراز فرساي مغمورةٌ بأشعّة الشمس، قوالب خشبيّة بيضاء مزخرفةٌ بأوراق عشبة الأقنثة، مفاتيح بيانو شتَينواي قديم، تمثالٌ برونزي لقطّ-نادل يبدو وكأنّه ينظر بازدراء من أعلى رف المدفأة.

علا صوت بوق سيّارة أجرة أطلقه السائق بغضب، فأعادها إلى الواقع.

– من هم العناصر الذين سوف ينضمّون إلى فريقي؟

– لا أحد. لقد سبق وقلت لكِ، منذ سنوات والمكتب غير صالح للخدمة. في الأشهر الأخيرة، وحده المفوّض مارك باتاييه تمّ تعيينه في هذا المنصب.

قطّبت روكسان جبينها. لم يكن الاسم غريبًا على مسمعها، غير أنّها لم تتمكّن من بلورة أفكارها.

أنعش سوربييه ذاكرتها.

– تخصّص باتاييه في علم الجريمة والعدالة الجنائية. عرف أمجاده في أوائل التسعينيّات عندما تعرّفت المجموعة التي كان يقودها على «البستاني»، أحد أخطر القتلة المتسلسلين في فرنسا، اعتقلته.

– البستاني؟

– كان الرجل يستخدم مقصّ تقليم الأشجار لقطع كلّ ما هو ناتئ في أجسام ضحاياه: أصابع اليدين، أصابع القدمين، الأذنان، العضو الذكري...

– يا للأفكار المبدعة!

– بعد هذا العمل البطولي، تمّ تحويل باتاييه إلى المركز رقم 36، غير أنّه خيّب الآمال المعلّقة عليه. يقع اللّوم، على ما أظنّ، على حياته الأسريّة المضطربة حيث كان قد فقد طفلًا ما أدّى إلى انهيار علاقته الزوجية. عاش لحظات فوضويّةً في نهاية حياته المهنية بسبب تدهور صحّته، فكانت النتيجة أن تمّ نقله إلى مكتب الشؤون غير التقليدية.

– هل أُحيل إلى التقاعد؟

– ليس بعد، لكنّه تعرّض لنوبة قلبية خطيرة في الليلة الماضية. وهذا ما دفع شاربونيل إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة لتعيينك في هذا المنصب.

شغّل سوربيه أضواء التحذير قبل أن يركن السيّارة في الجهة المقابلة لبوابّة ساحة جمعية البعثات الأجنبية.

توقّف المطر. سارعت روكسان إلى الخروج من السيّارة. نفذت الرطوبة إلى ملابسها وشعرها ودماغها. تبعها سوربييه وأسند ظهره إلى غطاء المحرّك قبل أن يشعل سيجارةً.

هبّ الهواء وبدأ ينفذ أخيرًا إلى الرئتين. انقشعت السماء عن أزرق فوق الحديقة، فخرج الأطفال مجدّدًا وهم يصرخون بفرح هاجمين على الأراجيح والزلّاقة.

أخذت ذكريات المكان تتزاحم في ذهن روكسان: أكواز الآيس–كريم بالفراولة والفانيلا من باك آ غلاس، جولاتها في بون مارشيه وكونران شوب مع والدتها، شقة رومان غاري[4]، في أسفل الشارع، التي كانت تمرّ من أمامها أيّام دراستها للبكالوريا الفرنسية وكان يعتريها فضولٌ كبير فتسترق النظر للتأكّد من أنّ بوّابة المبنى مفتوحة على أمل اللقاء بطيف رومان أو جين أو دييغو.

– هذا هو مكتبك، أخبرها سوربييه مشيرًا بإصبعه نحو السماء.

شخصت روكسان ببصرها إلى الأعلى. في البداية، لم تفهم ما كان يشير إليه رئيسها، ثمّ لاحظت ما يشبه برج جرس تظهر في أعلاه ساعة. برج منعزل عن الشارع، يتجاوز ارتفاعه أسقف الأبنية الأخرى، لم يسبق لها أن تنبّهت إلى وجوده قبل اليوم.

– يعود تاريخ البناء إلى العشرينيّات، شرع سوربييه في الكلام بنبرة أستاذ مدرسة. أُنشئ كملحق لبون مارشيه، شيّده المهندس المعماري لويس هيپوليت بوالو في تلك الفترة عندما تمّ توسيع المتجر مع إنشاء غراند إبيسري. ثمّ استحوذت عليه مديرية الشرطة في أوائل التسعينيّات، لكنّ الدولة عرضته للبيع أخيرًا.

تقدّمت روكسان نحو الباب العالي للمدخل الرئيسي الذي أعيد طلاؤه باللون الأزرق.

– سأتركك، أعلن سوربييه وهو يعطيها مجموعةً من المفاتيح. والأهمّ، ابتعدي عن الحماقات يا روكسان.

[4] رومان غاري هو دبلوماسي وروائي فرنسي (1914-1980)، كان متزوّجًا من الممثلة الأمريكية جين سيبيرغ ولهما ابن اسمه دييغو.

– هل تعرف رمز الدخول؟

– 301207: وهو تاريخ إنشاء Les Brigades du Tigre[5]. يليه حرف B، الحرف الأوّل في Brigades.

– أو مثل Bureau des affaires non conventionnelles[6]، أشارت روكسان.

– أتمنّى أن نكون قد توافقنا جيّدًا يا روكسان: تواري عن الأنظار. لن نكون هنا دومًا لإصلاح أخطائك.

3.

لم يكن البرج ملحوظًا فعليًّا من جهة الشارع، إلّا أنّه يفرض نوعًا من الهيبة بمجرّد عبور مدخل الباب العالي.

كان يتعالى بأناقة، في نهاية فناء صغير تصطفّ على جانبيه الأشجار، محشورًا بين مبنيين لا سحر فيهما.

في الجزء العلوي، ساهمت الموانئ المهيبة للساعة في إطالة هيئته فبدا وكأنّه مترسّخ بقوّة في سماء باريس. حصن منيع في قلب الدائرة السابعة.

عبرت روكسان الحجارة المرصوفة بالحصى إلى مدخل «المنارة» حيث رُكنت درّاجة ناريّة حمراء زاهية. استعانت بأحد المفاتيح التي أعطاها لها سوربييه لتفتح القفل في مصاريع الباب الضخم المصنوع من الخشب المبرنق. كان برج الجرس يؤدّي إلى كوّة. كما في الكنيسة، اخترق النّور الزجاج الملوّن فغمر الطوابق

[5] سلسلة تلفزيونية عن الجرائم تتبع أنشطة فرقة الشرطة في أوائل القرن العشرين، عُرضت في الأصل بين عامي 1974 و1983.

[6] مكتب الشؤون غير التقليدية.

الثلاثة ببريق دافئ. كشف الطابق الأرضي عن اللون السائد: طوب أحمر، أرضيّة من خشب البلوط، هيكل معدني، عوارض مثبتة على طراز غوستاف إيفل[7]. وكان سلّم لولبيّ مرتفع بشكل عموديّ، مصنوع من الحديد المطاوع، يربط بين الطوابق الأربعة. ارتقت روكسان السلالم وعيناها مصوّبتان إلى القمّة. كان الجوّ لطيفًا.

سمعتْ صوت همهمة سخّان ونغمات بيانو تصدح من أعلى البرج، مقطوعة لفرانز بيتر شوبرت[8]. كان لحنًا من الألحان التي نشأت عليها في طفولتها.

وصلت عند أول بسطة. كان الطابق مقسومًا إلى قسمين. من جهة، مجموعة وافرة من الخزائن المعدنية، ورفوف ترتفع حتى السقف، وصناديق من المحفوظات، وآلة فاكس، وحتى جهاز مينيتيل. ومن الجهة الأخرى، ركن مطبخ تعلوه منضدة من الخشب الخام وتتبعه دورة مياه.

بالقرب من الآلة الطابعة، جلس قطّ سيبيريّ ضخم متكاسلًا على سرير من ورق يحرس شجرة الميلاد المزيّنة على الطراز القديم. بعدما لمح روكسان، أخذ يموء فجأةً وفرّ هاربًا إلى الطابق العلوي.

– تعال إلى هنا.

أمسكت به الشرطية على الدّرج وانحنت لتربّت على بطنه. كان جسم القطّ ممتلئًا باللحم يكسوه فروٌ فضّي لامع، وملامح وجهه كرتونية.

– اسمه بوتين، قال صوت خلفها.

[7] غوستاف إيفل مهندس ومعماري فرنسي اشتهر بتصميم المنشآت المعدنية منها تمثال الحرية في نيويورك وبرج إيفل في فرنسا.

[8] مؤلّف موسيقي نمساوي (1797-1828).

استدارت روكسان مذهولةً ويدها متشبّثة بمسدس الجلوك في حزامها. رأت شابّة تقف إلى جانب النافذة في الطابق الثاني. كانت تبدو في الخامسة والعشرين من عمرها، شعرها مجعّد وبشرتها داكنة، وكانت تضع نظارات بلون صدَفة السلحفاة تظهر من خلالها عينان زمرّديتان، وترتسم على وجهها ابتسامة سعيدة.

– اللعنة! من أنتِ؟ صرخت روكسان بغضب.

أجابت الفتاة بصوت هادئ:

– فالنتين دياكيتيه، طالبة في جامعة السوربون.

– ماذا تفعلين هنا؟

– أحضّر أطروحتي عن مكتب الشؤون غير التقليدية.

تنهدّت روكسان.

– وهل يمنحك ذلك الحقّ في أن تتسكّعي هنا؟

– لديّ إذن من المفوّض باتاييه. أنا أعمل منذ ستة أشهر على فرز وترتيب كلّ الملفات. لو رأيتِ حالة الأرشيفات. كانت الفوضى عارمة!

تفرّجت روكسان على طالبة الدكتوراه وهي تتنقّل بين الصناديق مثل أميرة في قصرها. بجواربها الطويلة السوداء، وتنّورتها المخملية، وسترتها ذات الياقة المدوّرة وحذائها الجلديّ البنيّ، بدت لها وكأنّها نسخة عصرية من إيما بيل[9].

– وأنتِ، من تكونين؟

– شرطية: النقيب روكسان مونكريستيين.

– أنتِ من سيحلّ محلّ مارك باتاييه؟

– يمكنك قول ذلك.

[9] Emma Peel هي جاسوسة خيالية لعبت دورها ديانا ريج في مسلسل المغامرات البريطاني في الستينيات The Avengers.

– هل لديكِ أخبار عن حالته الصحيّة؟

– لا.

– المسكين. ما حدث فظيع. لم أتوقّف عن التفكير في هذه الحادثة منذ ذلك الصباح. كنت أنا من وجدته عندما وصلت.

– هل كان هنا عندما تعرّض للنّوبة؟

– لا أعتقد أنّها نوبة، أظنّ أنّه سقط عن الدّرج. إنّه خطر للغاية، قالت وهي تشير إلى الهيكل المعدني اللولبي.

تركت روكسان الطالبة وتوجّهت نحو الطابق العلوي. إلى مكتب باتاييه. كان المكان مذهلًا: ارتفاع السقف لا يقل عن ستة أمتار تخترقه عوارض مثبّتة، أريكة تشيسترفيلد كبيرة، مكتب مهيب من خشب البلوط بأسلوب جان بروفيه[10]. أضفى التصميم والطوب الأحمر جوًّا هجينًا بين الديكور الإنجليزي وتصميم شقق اللوفت النيويوركي. لكن لا شيء كان يعلو على الإطلالة البانورامية الباهرة على باريس. من الغرب برج إيفل وقبّة قصر ليزانفاليد، من الشمال تلّة مونمارتر وكنيسة الساكري كور، من الجنوب حديقة لوكسمبورغ وبرج مونبارناس الشنيع، من الشرق كاتدرائية نوتردام التي لم تلتئم جراحها بعد. إحساس مُسكر بأنّها تحلّق فوق العالم، تبتعد عنه، وتفرّ من غضبه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

.4

انضمّت روكسان إلى فالنتين دياكيتيه التي أقامت مكتبها الخاص في الطابق السفلي. خلف مظهرها الرصين كأمينة مكتبة جدّية، كانت طالبة الدكتوراه تشعّ بهالة من الخفّة والبهجة شوّشت روكسان.

[10] جان بروفيه (1984-1901) هو مهندس معماري ومصمم فرنسي علّم نفسه بنفسه.

– اشرحي لي كيف كان مارك باتاييه يشغل وقته؟

– كان المفوّض يعمل ببطء أحيانًا، أقرّت فالنتين. عند مجيئي قبل ستة أشهر، كان قد دخل في مرحلة التعافِي من سرطان الرئة. كان مارك منهكًا لكنّه لطيف ودائمًا ما يقدّم النصائح الجيّدة.

– كم من الوقت مرّ على توقيف نشاط المكتب ؟

فرحت الطالبة بفرصة المشاركة التي أتيحت لها، فشرعت في تقديم عرض قصير.

– أجرى مكتب الشؤون غير التقليدية في بداياته، في السبعينيات والثمانينيات، تحرّيات مرعبة في بعض الأحيان عن ظواهر مطاردة الأشباح، تحريك الأشياء عن بعد، السيطرة على العقل، أو حتى ما لم يكن يُطلق عليه بعد اسم تجارب الاقتراب من الموت. فكان القسم يتلقّى مئات الشهادات من جميع أنحاء فرنسا.

أشارت فالنتين إلى الصناديق التي تطوّقها.

– حكايات عن كلّ ما قد يخطر على البال: الأشباح، السيدة البيضاء، التخاطر... كان أيضًا العصر العظيم لعلم الأجسام الطائرة مجهولة الهوية. لو أثار الأمر فضولك وفتحت أرشيفات تلك الفترة، لاعتقدت أنّنا في «إكس فايلز»[11].

– واليوم؟

برطمت الطالبة اشمئزازًا:

– ما زلنا نتلقّى بعض الرسائل من وقت إلى آخر: مغفّلون يعتقدون أنّ العالم تديره الزواحف، بيل جيتس يخلق فيروسات لحلّ مسألة الزيادة السكانية، والحكومة الفرنسية ستنشرها عبر هوائيات 5G وعدّادات Linky.

[11] X-Files: مسلسل خيال علمي شهير.

دلّكت روكسان جفنيها. جلّ ما أرادته هو أن تبقى بمفردها، أن تنام، أن تقطع التيار الذي كان يكهرب عقلها.

– لن يكون وجودكِ هنا ممكنًا، فالنتين.

– لماذا؟ لقد حصلت على إذن من المفوّض و...

– نعم، لكن أنا الرئيس اليوم. وقسم الشرطة ليس مكتبة جامعية.

– يمكنني تقديم الخدمات.

– لا أرى ما يمكنك تقديمه. لديك بقية اليوم لحزم أمتعتك. ولا تنسي هرّك عند المغادرة.

هزّت فالنتين كتفيها.

– ليس هرّي. ولا هرّ مارك باتاييه أيضًا. كان هنا عندما وصلنا. لقد تعقّبته في الأرشيفات. ظهر بوتين في المكتب في العام 2002، ممّا يجعل بقاءه هنا مشروعًا...

أدارت روكسان ظهرها وصعدت إلى الطابق العلوي منزعجةً. خلف الجدران الزجاجية، أضفت الموانئ المصنوعة من الحديد الصلب للساعة القديمة طابعًا متميّزًا، خياليّ بعض الشيء. شعرت وكأنّها في ما يشبه حجرة العجائب[12]. فيما يتعلّق بالتجهيزات المكتبية، كان الأمر بمثابة عودة لثلاثين عامًا إلى الوراء. كانت البنية التحتية لتقنية المعلومات معدومة، أمّا الهاتف فقد ذكّرها بهاتف والديها عندما كانت في سن المراهقة.

ومض ضوء أحمر صغير بالقرب من السمّاعة. انتابها الفضول فضغطت على مكبّر الصوت للاستماع إلى الرسالة التي يرجع تاريخها وفق ما يظهر على الشاشة إلى الساعة الواحدة وعشر دقائق من بعد ظهر اليوم.

[12] حجرة العجائب كانت مجموعات موسوعية من الأشياء لم يتم تصنيفها وتحديدها بعد في عصر النهضة الأوروبي.

مارك، هذه أنا من جديد. كاترين أومونييه. أحتاج فعلًا للتواصل معك بشكل ضروري بخصوص رسالتي هذا الصباح. أرجو أن تعاود الاتصال بي.

لم يكن هناك من رسائل أخرى، فاستمعت روكسان إلى الرسالة السابقة التي بُعثت على الجهاز في الساعة السابعة وستٍّ وأربعين دقيقةً صباحًا.

مرحبًا مارك، أنا كاترين أومونييه، نائبة مدير مستوصف مديرية الشرطة. أتّصل بك لسماع رأيك بشأن حالة غريبة نوعًا ما. لقد تولّينا صباح أمس قضية شابّة، فاقدة للذاكرة تمامًا، سحبها فريق الإنقاذ النّهري عارية من نهر السين. وبما أنّني لا أملك عنوان بريدك الإلكتروني، سأرسل لك ملفّها بواسطة الفاكس. اتصل بي لتخبرني إن كنت تعرفها. أراك لاحقًا.

أثار الأمر اهتمام روكسان فعاودت سماع الرسالة على الفور. إذا كان باتاييه قد استمع إليها – وضوء الديود يدلّ على ذلك – فلا بدّ أنّه فعل ذلك قبل بضع دقائق فقط من سقوطه.

أحسّت الشرطية فجأة بوخز في أحشائها. لطالما أثار كلّ ما يتعلّق، بشكل مباشر أو غير مباشر، بمستوصف مديرية الشرطة – مقرّ الـI3P الشهير بعمليّاته الغامضة – اهتمامها. كانت كاترين أومونييه قد أكّدت أنّها بعثت رسالة فاكس إلى باتاييه. تفحّصت روكسان الأوراق، والكتب، والمجلات المكدّسة على المكتب، لكّنها لم تجد أيّ أثر للفاكس. تذكّرت أنّ الجهاز موجود بالقرب من الآلة الطابعة. نزلت إلى الطابق الأوّل. رأت فالنتين دياكيتيه متربّعةً في زاوية الغرفة، غارقةً في فرز الأوراق.

– هل تلقّيت رسالة فاكس اليوم؟ سألتها روكسان.

اكتفت الطالبة بإشارة من رأسها للنفي وظلّت صامتةً.

كان دُرج الفاكس خاليًا. أعادت روكسان في ذهنها تسلسل الأحداث المُحتملة. وصل مارك باكرًا. استمع إلى رسالة كاترين أومونييه. ذهب لاستلام الفاكس قبل صعود السلالم للعودة إلى مكتبه. ثمّ سقط من هنا. لكن أين هي رسالة الفاكس الآن؟ بحثت روكسان تحت الأدراج ثمّ تحت الأثاث والخزائن المعدنية. لا شيء. راودها حدس فجأة: رجعت إلى شجرة الميلاد حيث عاد الهرّ للتكاسل على فراشه الذي لم يكن سوى... فاكس كاترين أومونييه.

سوّت سطح الورقتين المدبّستين المجعّدتين. كان بوتين قد مزّق أجزاء منهما لكنّها لم تجد صعوبة في قراءة الوثيقة. كما أوضحت مسؤولة المستوصف، كانت شهادة عملية إنقاذ مريضة تعاني من مشاكل في الذاكرة. كان التقرير مقتضبًا، غير أنّ صورة الشابة بدت مثيرة للاهتمام: وجه واهن وملامح خائفة، شعرٌ طويل ينسدل على كتفيها.

تردّدت للحظة في الاتصال بكاترين أومونييه ثم قرّرت الذهاب شخصيًّا إلى مستوصف مديرية الشرطة. ولم تكد ترتدي سترتها حتى أدركت أنّ سيّارة الشركة لم تعد بحوزتها. بقيت سيّارة البيجو 5008 الخاصة بها في نانتير ولم يكن من الوارد أن تحصل عليها مجدّدًا.

لمحت على مكتب فالنتين خوذة درّاجة نارية باللونين البنيّ والأصفر يخترقها شريط بتصميم مربّعات الشطرنج.

– هل الدراجة المركونة بالقرب من المدخل لكِ؟ سألت روكسان وهي تعتمر الخوذة الصلبة. هل يمكن أن تمرّري لي المفاتيح؟

2

المستوصف

لماذا رميت نفسي في الماء؟ تساءلت الفتاة الجديدة. [...] لم تعد تسكن رأسي البائس سوى الطحالب والأصداف. ولي رغبة شديدة في أن أقول إنّ هذا محزن جدًّا، رغم أنّني لم أعد أعرف ما تعنيه هذه الكلمة بالضبط.

جول سوبرفيل

1.

– لقد فاتكِ القطار، نبّهتها كاترين أومونييه على الفور.

كانت نائبة مدير المستوصف، ببنيتها الضخمة ومظهرها الصارم، ترتدي قميصًا أبيض وتضع نظارات هلاليّة الشكل فوق أنفها، وتبدو مغتاظةً. من وراء مكتبها المعدني الصغير، نظرت إلى روكسان بازدراء.

– ماذا تعنين؟ سألت الشرطية وهي لا تزال منتصبةً أمامها.

– مجهولة نهر السين لم تعد هنا، أجابت أومونييه.

خلف تلك النبرة الانتقادية، رصدت روكسان ارتباكًا، كما لو أنّ الطبيبة قد ضُبطت بالجرم المشهود.

– رجاءً أعيدي الفيلم إلى أوّله، طلبت منها.

كانت المرّة الأولى في حياتها المهنية التي تطأ فيها قدمها مستوصف مديرية شرطة باريس. كان الهيكل الطبي الملقّب بـI3P فريدًا من نوعه في فرنسا وله سمعة مخزية. مكان أشبه بقسم الطوارئ النفسية يستقبل الأفراد المصابين بـ«اضطرابات عقلية واضحة» والذين تلتقطهم الشرطة في العاصمة. لقد أصبح المركز، منذ إنشائه قبل قرن ونصف، عرضةً لانتقادات متكرّرة بفعل العمليات الغامضة وغير الشفّافة التي كانت تشرف عليها المديرية.

– انتُشلت الفتاة الغريبة من نهر السين صباح يوم الأحد في حوالي الساعة الخامسة فجرًا من قِبل فريق الإنقاذ النهري، على مقربة من جسر نُف، استهلّت أومونييه حديثها فيما عيناها شاخصتان على مفكّرتها، وأكملت: كانت عاريةً تمامًا باستثناء ساعة على معصمها.

على الرغم من اهتمامها بالقضية، شعرت روكسان بالاختناق. كان المكتب صغيرًا جدًا، بالقرب من الزنزانة. جعلها الضوء المخضرّ والرائحة النتنة المتغلغلة في الأجواء تشعر بالغثيان. فضاءٌ ضيّق يسدّ الأنفاس.

– أُحضِرَت إلى هنا حوالي الساعة العاشرة صباحًا من اليوم نفسه بعد أن عاينَتها سريعًا وحدة الطب الشرعي في أوتيل-ديو.

سلّمت أومونييه شهادة الطبيب الشرعي لروكسان التي تفحّصتها بدقة. لمست بعض التهاون في عمل الرجل الذي اكتفى بوضع علامة في بعض المربّعات وبخربشة ما ينبغي أن يكون استخلاصًا للنتائج: «تعاني المريضة من اضطرابات عقلية قد تعرّض سلامتها وسلامة من حولها للخطر». رفضت الفتاة المجهولة أخذ

بصمات أصابعها، ولم يحاول رجال وحدة الطب الشرعي إرغامها نظرًا لعدم ارتكابها أيّ فعل جنائيّ باستثناء ربّما السباحة عاريةً في نهر السين.

– عندما تمّ إنقاذها، كانت الفتاة مشوّشةً ومبلبلة الفكر. لم تستطع الإجابة على أيّ سؤال. وبينما حافظت على شيء من هدوئها في أوتيل-ديو، فقد جنّ جنونها عند وصولها إلى هنا.

فتحت كاترين أومونييه ملفًّا على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها قبل تحويل الشاشة إلى روكسان.

– التقطت كاميرات المراقبة كلّ شيء. تمّ تخديرها فور وصولها، غير أنّ تأثير المخدّر كان محدودًا. كانت مضطربةً للغاية، وقد خدشت نفسها ونتفت خصلًا من شعرها.

حدّقت روكسان إلى الصور بنظرة متفحّصة. شابّة ترتدي روبًا، تائهة تمامًا. وجه طويل شبحيّ الملمح وكأنّها الجنّية «سيلفيد»[1]، أسيرة حزنها وجنونها.

– هل كان من الصعب إجراء أيّ حوار معها؟

– أعتقد أنّها لم تفهم معظم الأسئلة التي طُرحت عليها، ردّت أومونييه.

– هل شخّصتم حالتها؟

– خلال فترة قصيرة كتلك، صعب. أظهرت مزيجًا من الفورات الهذيانيّة وفقدان الذاكرة الفصامي.

– هل يمكن أن تكون قد تظاهرت بالأمر؟

[1] تشير كلمة «سيلفيد» أو «سيلف»، التي ظهرت لأوّل مرة في القرن السادس عشر في أعمال باراسيلسوس، طبيب وخيميائي وفيلسوف ألماني من عصر النهضة، إلى روح امرأةٍ تسكن الهواء.

– ممكن أيضًا، لكنّي لن أراهن على ذلك. بدت وكأنّها عاشت صدمةً قويّةً. باختصار، بعد ما يقارب أربعًا وعشرين ساعة، لم تتحسّن حالها، لكنّها في النهاية لفظت جملةً أثارت فضولي. طلبت أن ندعو مارك باتاييه.

– هذا ما قالته؟

– حتّى إنّها ردّدتها عدة مرّات، وكأنّها تتوسّل: Sie müssen Marc Batailley anrufen[2].

– بالألمانية؟

– نعم.

– أتعرفين عمّن كانت تتحدّث؟

– نعم، لقد قابلتُه بضع مرّات عندما كنت أعمل في كيه دو لا رابيه.

– في معهد الطب الشرعي؟

أومأت برأسها.

– تركتُ رسالتين لباتاييه، لكنّه لم يعاود الاتّصال بي.

حرصت روكسان عند مجيئها إلى المركز على عدم إخبارها بأنّها سمعت الرسالتين. اعتقدت أومونييه أنّ المديرية أوفدتها ولم تقم بتصحيح معلوماتها.

– وبعد ذلك؟

أدخلت نائبة المدير خنصرها في أذنها وراحت تحكّها بلا خجل. كان وجهها يشبه وجه الفلّاحات الهولنديات اللواتي رسمهنّ فان غوخ في لوحة «آكلو البطاطا»: وجه محمرّ، ملامح خشنة، جبهة منخفضة، أنف ناتئ.

[2] جملة باللغة الألمانية ومعناها: «عليك الاتصال بمارك باتاييه».

– أبقينا الفتاة هنا لبضع ساعات أخرى، لكنّنا كنّا تحت ضغط كبير لإخلاء بعض الغرف.

– حسنًا، هل يمكنني رؤية المكان الذي أقامت فيه؟

بعد جهد جهيد، نهضت نائبة المدير عن كرسيّها.

– في العادة، نستقبل ستة أو سبعة أشخاص يوميًا. لكن، يوم الاثنين، وصلَنا أحد عشر شخصًا.

تنهّدت وأغلقت زرّ قميصها المزيّن بشارة المديرية ثلاثية الألوان.

– لم نعد نعرف ما الذي يحدث في الخارج.... بين مدمنين، ومتنوّرين، ومصابين بجنون العظمة، ومشرّدين، ومهاجرين، لم نعد نعرف حقًّا. لقد طفح الكيل.

.2

انفتح الباب على ممرّ طويل ذي جدران مائلة للصّفرة تتوزّع فيه من كلّ جانب غرف بأبواب رمّانية اللون. على اليسار، مكاتب الموظفين، والمطبخ، وغرفة الاستراحة والصيدلية؛ على اليمين غرف النوم وغرفة الاستحمام. لم يكن هناك من نوافذ. وكأنّ نور العالم كلّه قد استُبدل بضوء كامد وقاتم، ليبدو المشهد وكأنّه معدّل بواسطة فيلتر إنستغرام رديء.

علا صوت طنين صاخب ومزعج فارتجّت الجدران. كان جرسًا ينذر بموعد الطعام. بدأت ممرضتان بتوزيع الصواني على المرضى. في القائمة: سمك مسلوق، وكرنب بروكسل، وجبنة بيضاء.

– من الناحية القانونية، يجب ألّا تتخطى إقامة المرضى هنا ثمانية وأربعين ساعة. بعد هذه المهلة، يُنقل قسم منهم تلقائيًا إلى

مكان آخر للاستشفاء فيما يُطلق سراح قسم آخر أو يُستردّ من قبل مركز الشرطة لاستكمال التحقيق في جريمة أو جنحة معيّنة، أوضحت كاترين أومونييه.

خلف فتحة زجاج شبكي، راح رجل لا أسنان له، يلبس بيجاما زرقاء، يزعق: «أشعر بالبرد! أشعر بالحرّ! أشعر بالبرد! أشعر بالحرّ! أريد أن ألعق المازوت! للذهاب إلى نوك-لو-زوت[3]!».

تابعت قائلة: «عند منتصف الظهيرة، لم يعد لدينا أيّ خيار، تعيّن علينا نقل الفتاة إلى مكان آخر. باحتساب الوافدين الجدد، كنّا نعتني بعشرين مريضًا بينما لم يتوفّر سوى ستة عشر سريرًا موزّعين على عشر غرف».

– هل وجدتم لها مأوى؟

– طبعًا! تحرّكنا بسرعة للعثور على مكان في مركز جول-كوتارد للطب النفسي. هو مبنى صغير، قريب بعض الشيء، بجوار مقبرة مونبارناس. ثمّ خلال عملية النقل حصلت الكثير من الأمور... فضاعت منّا.

– ضاعت؟ أتقولين إنّ المريضة هربت؟

تلمّست أومونييه بعض اللّوم في نبرة روكسان، فاستشاطت غضبًا.

– نعمل عادة مع أربعة مساعدين من الأمن. أحدهما كان في إجازة والآخر مريض والثالث لم يعد يأتي منذ أن طالب بنقله. ووفقًا للقواعد، يجب توفّر عنصرين في كلّ عملية نقل، لكن ظهر ذلك اليوم لم يحضر إلّا عنصر واحد.

[3] Knokke-Le-Zoute منتجع فخم على ساحل بلجيكا.

كان مركز الـI3P يعاني من المتلازمة الفرنسية: بالرغم من الإفراط في فرض الضرائب والتنظيم الإداري في البلاد، لم تكن الأمور تسير بشكل جيّد. واصل الرجل صراخه في غرفته: «أريد قطرةً من المازوت للذهاب إلى الريستوروت[4]! أفضّل أكل المامونث على هذه السمكة المقرفة بلا زيوت!»

– ما الذي حدث بالضّبط؟

– تمكّنت من الهروب من حارس الأمن في باحة عيادة كوتارد.

مسحت أومونييه أنفها بكمّها عند وصولهما أمام الغرفة رقم 6.

– هنا.

حضر حارس ضخم قويّ البنية ليفتح لهما الباب. كانت حجرةً صغيرةً مساحتها عشرة أمتار مربّعة لا يوجد فيها دوش أو نافذة حاجبة. فارغة تمامًا، لولا سرير معدني ثابت على الأرض ومرحاض كيميائي كالذي يُستخدم أحيانًا في مواقع البناء أو المخيّمات. على الجدران، كانت رسومات جرافيتي قديمة تروي أجزاء من قصص الذين شغلوا الغرفة سابقًا.

– أنتِ حثالة حمقاء ونكرة! صاح المريض الذي يشغل السرير في وجه نائبة المدير.

كان متربّعًا في مكانه، عاجزًا عن الحراك بسبب التشنّجات اللّاإرادية، وكان يقذف وابلًا من الشتائم في كلّ الجهات. رمقته روكسان بطرف عينها غير قادرة على إخفاء انزعاجها. بفكّه الأعوج، وعينه العوراء، ووشم المرساة على ذراعه، ذكّرها بالبحّار باباي[5].

– عرّفيني على والدتك لأصنعكِ من جديد! هتف مجدّدًا.

[4] Knokke-Le-Zoute منتجع فخم على ساحل بلجيكا.

[5] Popeye هو شخصية كرتونية لبحّارٍ مغامر ظهرت أولًا في قصص الأطفال المصورة، وهي من إبداع الأمريكي إليزي سيغار.

تجاهلت أومونييه المريض المتشرّد وتابعت، متوقّعةً السؤال الذي ستطرحه عليها روكسان.

– وبما أنّنا عقّمنا الغرفة مباشرةً بعد مغادرتها، لن يتمكّن اختصاصيو الأدلّة الجنائية من العثور على أيّ شيء يُذكر.

راحت روكسان تفكّر. لم تكن متأكدةً من أنّ الأدلّة الجنائية ستتحرك في هذه القضية. سوف تصدر مذكّرة بحث من قِبل شرطة الدائرة الرابعة عشرة. ثمّ يبعث الشبيبة في شارع دو مين بآليّة للقيام بدوريات حول عيادة كوتارد بانتظار ظهور الفتاة مرةً أخرى. كانت أومونييه تدرك أنّها أخطأت، لكن كانت في جعبتها ورقة رابحة لتلعبها.

– كان فاروق، أحد المراقبين لدينا، حاضر البديهة ليلتقط خصلًا من الشّعر الذي نتفته الفتاة من رأسها.**مكتبة .. سُر مَن قرأ**

سحبت من سترتها كيسًا بلاستيكيًا مختومًا يحتوي على حفنة من خصل الشّعر الأشقر. تفحّصت روكسان الكيس بنظرة ارتياب. كان أفضل من لا شيء، إلّا أنّها لم تكن متأكدةً من وجود جذور كافية لاستخراج الحمض النووي منها. ناهيك عن خطر تلوّث العيّنة. أجالت النظر مجدّدًا في الغرفة فوقعت عينها على مقعد المرحاض الكيميائي.

– هل تمّ تنظيفه؟

– بالتأكيد، يتمّ تغيير الحوض لكلّ مريض. الأمر أشبه بصناديق الرمل التي تستخدمها القطط.

– نعم، أعرف ذلك. حاولي العثور على خزان فضلات الفتاة لأخذ ما يمكن من العيّنات.

– عمليًّا، ما الذي نبحث عنه؟

هزّت الشرطية كتفيها.

– بولها، برازها، أيّ شيء تجدونه.

3.

السابعة مساءً. انطلقت روكسان مسرعةً على متن دراجة السكوتر الخاصة بفالنتين دياكيتيه. شعرت بالبرد يلسع وجهها، ويخترق أطرافها ويشلّ أصابعها، فيما لم تشكّل سترتها الجلدية وقميصها ذو الأكمام الطويلة سوى درع خفيفةٍ أمام برد الليل.

ساحة دانفير-روشيرو، استلمتْ جادة راسباي للعودة إلى مكتبها الجديد. كانت تلك ساعة الذّروة. حُوّلت حركة المرور الخانقة جزئيًا من جادة راسباي جرّاء الأشغال اللّامتناهية التي شوّهت العاصمة. لم تكن روكسان، وهي التي وُلدت في باريس، قد رأت مدينتها في مثل هذه الحالة من قبل. منذ أشهر والأشغال مستمرّة في التوسّع. لم يبقَ شارع، أو تقاطع، أو مربّع سكني إلّا وحُفِر رصيفه. أسوأ ما في الأمر أنّ معظم هذه المواقع سكنتها الأشباح بعد أن فتح العمّال الخنادق ثمّ نُقلوا، لسبب مجهول، إلى موقع آخر. لم تؤثّر هذه المشاهد في المسؤولين بأيّ شكل، فبقيت الحُفر مفتوحةً لأسابيع، تحميها حواجز رهيبة من الألواح المعدنية ذات اللون الرمادي المخضرّ، هي نفسها التي استخدمها المتظاهرون في عطلات نهاية الأسبوع للاعتداء على الشرطة.

كانت قضية «مجهولة نهر السين» تشغل فكرها. تلوّن هذا الحادث بصبغة شاعرية أعجبتها إذ ذكّرتها بفصل أدبيّ درسته خلال سنتها الأولى في المدرسة التحضيرية عن انتحار شابّة وانتشالها في نهاية القرن التاسع عشر بالقرب من جسر على نهر السين. كان العامل في المشرحة قد فُتن بجمالها حال رؤيتها فقام بصبّ قالب من الجصّ على وجهها سرًّا. سرعان ما نُسخ قناع الموت هذا مرارًا وتكرارًا إلى أن غدا على مرّ السنين أيقونةً فنيّةً تزيّن شقق مجتمع بداية القرن

العشرين الباريسي البوهيمي. تحدّث عنها لويس أراغون في روايته أوريليان مطلقًا عليها لقب «موناليزا الانتحار»، وخصّص لها جول سوبرفيال أقصوصةً رائعةً، فيما امتلك ألبير كامو نسخةً طبق الأصل عن القناع في مكتبه. كان صفاء وجهها مبهرًا وجمالها فريدًا: وجنتان مرتفعتان ممتلئتان، بشرةٌ ناعمة، عينان مغلقتان ورموشٌ ناعمة، شبه ابتسامة غامضة وهانئة كما لو أنّ انتقالها إلى الحياة الأخرى أغرقها في نعيمٍ مطلق.

شارع سيفر، انتزعتها دراجة كهربائية تسير في الاتجاه المعاكس من شرودها العميق. تملّصت منها بصعوبة وتمكّنت من التفلّت من حركة المرور للالتحاق بشارع باك. متجمّدةً من البرد، عبرت البوّابة بالدراجة وتسلّلت إلى الفناء لركنها. وما إن دفعت باب برج الساعة حتّى غمرتها أجواء المكتب مجدّدًا براحة حقيقية: المحيط الدافئ قبل كلّ شيء، نغمات البيانو المطمئنة، زينة الميلاد التي أرجعتها إلى ذكريات الطفولة، وطبعًا... بوتين، الهرّ السيبيري الذي بدأ يلحقها كيفما تحركت.

لا مكان مثل المنزل...

في الطابق الثاني، كانت فالنتين دياكيتيه لا تزال، من خلف مكتبها، متشبّثةً بموقعها، فأدركت روكسان أنّه لن يكون من السّهل تخلّيها عنه.

– إذًا؟ سألت الشابّة بوجهٍ بهيج، متعطّشةً لمعرفة المزيد.

تأثّرت روكسان بعفويتها ولغايةٍ في نفسها، قدّمت لها ملخّصًا سريعًا عن زيارتها إلى الـI3P.

– إن أردتِ فعلًا مساعدتي، فهذا هو الوقت المناسب! قالت بعد الانتهاء من سرد الأحداث.

أخرجت الكيسين البلاستيكيّين من الجيوب الداخلية لسترتها: أحدهما يحتوي على خصلات الشَّعر والثاني على عيّنة من بول الفتاة المجهولة.

– ينطلق القطار السّريع من محطة الشمال بعد نصف ساعة. ستصلين إلى لِيلْ عند التاسعة ليلًا.

– لِيلْ؟

– حيث المعهد الأوروبي للتحليل الجيني، أحد أكبر المختبرات الخاصة في شمال فرنسا.

شرعت فالنتين في تدوين الملاحظات على حاسوبها المحمول.

تابعت روكسان: الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين، أي مركز خدمتي، تعمل معهم في الكثير من الأحيان، كدعمٍ إضافي ذي مصداقية للنتائج التي تحصل عليها من المعهد الوطني لعلوم الأدلة الجنائية، تتمثل نقطة قوّتهم في الاستجابة السريعة، خصوصًا في الحالات التي نحتاج فيها إلى التحليلات قبل إطلاق سراح المشتبه به.

– لكنّ أحدًا لم يفوّضْك بهذه القضية!

– من سيعرف؟ ردّت روكسان. تذهبين إلى هناك وتسلّمين العيّنات الجينية لرجل يدعى يوهان مورس.

– في التاسعة مساءً؟

– لا مشكلة، الرجل غريب الأطوار، ينام هناك. ولتسهيل مهمّتك، سوف أرسل له رسالةً نصيةً لأعلمه بمجيئك.

كانت روكسان تتوقّع أن تتلاشى الروح التطوعيّة لفالنتين مع أوّل صعوبة، إلّا أنّ الأمر لم يكن كذلك.

– أنا ذاهبة، قالت وهي ترتدي خوذتها.

وضعت العيّنات في حقيبتها الـ«ليدي ديور» وناولت روكسان بطاقة عمل باللّون العاجي.

– أيمكنكِ إرسال التذاكر وعنوان المختبر إلى بريدي الإلكتروني؟

– اعتمدي عليّ. ستكونين في باريس قبل منتصف الليل.

.4

سعيدةٌ ببقائها وحيدةً، ارتمت روكسان على أريكة ضخمة من طراز تشيسترفيلد وبعثت برسالة إلى يوهان مورس قبل أن تشتري تذاكر القطار وترسلها لفالنتين أيضًا. ثمّ شردت، مستعيدةً في ذهنها مشاهد كاميرات المراقبة. كانت الفتاة المنتَشلة من نهر السين تتمتّع ببنية عادية لكن فاتنة في الوقت ذاته. ذكّرتها بـ«المازون»، عدوّات هارلوك[6] اللّدودات. كائناتٌ نباتيّة، مصنوعةٌ من النّسغ والألياف، جميلةٌ بقدر ما هي خطيرة.

عبر رسالة نصيّة أيضًا، ذكّرت روكسان كاترين أومونييه بوعدها بإرسال اسم وعنوان وتقرير مساعد الأمن الذي أفلتت منه الفتاة. ثمّ اتّصلت بمستشفى بومبيدو للاستعلام عن حالة باتاييه الصحيّة. كان عليها أن تتنقّل بلا نهاية من مكالمة إلى أخرى لتتمكّن أخيرًا من التكلّم مع طبيب. لم تكن الأخبار جيّدة: كان الشرطي يعاني من كسور عدّة في العظام وإصابة خطيرة في الرأس، وقد وُضع في غيبوبة اصطناعية تسهيلًا لإجراء الجراحة وتخفيف الكدمات. حالته مستقرّة، لكنّها ما زالت حرجةً.

[6] «قرصان الفضاء الكابتن هارلوك» هي سلسلة مانغا يابانية ابتكرها رسام المانغا ليجي ماتسوموتو في عام 1977، وتمثّل شخصيات المازون فيها سلالة من الكائنات النباتية الذكية في شكل أنثوي بشري.

أنهت جولتها بتبادل الرسائل النصية مع لويز فيرون، المنسّقة في إدارة النظام العام والمرور التي ترأس فريق الإنقاذ النهري. اتّفقت المرأتان اللتان جمعت بينهما معرفةٌ سطحيّة، على لقاء غير رسمي في اليوم التالي مع الغوّاص الذي انتشل الفتاة يوم السبت ليلًا.

ومضت في ذهن روكسان على نحو مفاجئ صورة شقّتها – رمادية، باردة، موحشة، قاسية، وفارغة – فلم تتحمّس البتّة للعودة إلى منزلها. ورغم أنّه لم تكن في حوزتها ملابس بديلة، قرّرت البقاء والاستمتاع بالملاذ الذي وفّره لها برج الساعة.

في المطبخ في الطابق الأول، عثرت على خزانة نبيذ صغيرة بجوار الثلاجة. أجرت تقييمًا سريعًا للوضع قبل أن تحسم أمرها وتختار زجاجة نبيذ أبيض: بيساك ليونيان، دومان دو شوفالييه 2011. سكبت لنفسها الكأس الأولى ورشفتها من دون لذّة. كانت ببساطة تحتاج إلى إحساس تدفّق الكحول في جسمها. الكأس الثانية كانت أكثر حسّيةً: نبيذ ممتاز، فيه نكهة فاكهة ورائحة خشب، ممزوجةٌ بنكهات الخوخ الأبيض والبندق. كان لباتاييه ذوق جيّد.

حملت الزجاجة معها إلى الطابق العلوي، عابثة بالسخّان الحديدي القديم لرفع درجة الحرارة. هي التي لم تخش يومًا البرد، لاحظت أنّ حساسيّتها تجاهه تتضاعف في الفترة الأخيرة. كان من الممكن لموجة بردٍ كاسحة أن تجتاحها وتخترق عظامها، دون سابق إنذار. تدثّرت بالبطانية الصوفيّة الكبيرة ذات التصميم الاسكتلندي التي كانت مطويّةً على الأريكة ثمّ راحت تفتّش في مجموعة الأسطوانات الموسيقية الخاصة بباتاييه. هنا أيضًا، أحسن الشرطي الاختيار. كان مولعًا بالموسيقى الكلاسيكية فكدّس عددًا من الأقراص المدمجة التي لا زال بعضها مغلّفًا. ثلاثية من المقطوعات المكرّسة لشوبرت وبيتهوفن وساتيه من تأدية أشهر عازفي البيانو: كريستيان

زيمرمان، ودانيال بارينبويم، ومارثا أرغريتش، وميلينا بيرغمان وألدو تشيكوليني.

زعزعت الريح الجدران الزجاجية، فتعزّز انطباعها بأنّها في قلب منارة. كان الليل صافيًا. من موقعها المهيمن، رأت روكسان المدينة من زاوية جديدة. ثمّ وجدت في ركن من الغرفة بضع درجات خشبيّة مطويّةً أتاحت لها، بمجرد أن بسطتها، الوصول إلى باب منزلق يفضي إلى شرفة صغيرة محشورة بجوار خزّان مياه على الطراز النيويوركي.

كان الهواء يهبّ بقوّة، لكنّه أنعشها. لقد أحبّت هذا البرج فور مجيئها وشعرت في الحال أنّها في منزلها. في هذه اللحظة، وفيما هي جالسة على ألواح التوتياء التي غطّت السطح، أحسّت نفسها خفيرة العاصمة، متمركزة في برج المراقبة لسفينة أبحرت في ليلة باريسية. كانت الحركة والأنوار منوِّمةً وكان هناك دائمًا تفصيل واحد على الأقلّ يلفت الأنظار. لفّت روكسان البطانية على كتفيها جيدًا قبل أن تتراءى لها صورة جديدة في ذهنها. صورة حصن منيع. هنا، شعرت بالأمان ولو بشكل مؤقّت. هنا، لن يأتي أحد للبحث عنها.

وإن حدث ذلك، فسوف يكون لديها متّسع من الوقت للدفاع عن نفسها.

الثلاثاء 22 كانون الأوّل

3

ميلينا بيرغمان

لا نعرف عنها شيئًا... مجهولة... ألقت بنفسها في نهر السين، شابّة أغمضت عينيها على سرّها... ما الدافع؟ الجوع، الحب... بإمكاننا أن نحلم بما نريد...

لويس أراغون

.1

أيقظها نور ساطع ففتحت عينيها ولم تدرك للوهلة الأولى أين كانت: فوق الأسطح، وسط السماء، غارقة في انعكاسات الزنك والنحاس والأردواز. كانت متدثّرة ببطانية صوفيّة وكان قطّ سيبيري ضخم متقوقعًا عند رجليها.

نهضت وفركت جفنيها لتستعيد نشاطها. شعرت بقميصها مبلّلًا وبالبطانية ملتصقةً بساقيها فهبّت لخفض حرارة السخّان الذي كان قد استغرق وقتًا طويلًا ليعمل ثمّ اشتغل على أقصاه طوال الليل.

بادرة أمل: كان البرد في إجازة. لأوّل مرة منذ أسابيع تُنعم الملكة الشمس على العاصمة بنورها.

كالأميرة وحبّة البازلّاء[1]، دلّكت روكسان رقبتها وكتفيها وصولًا إلى فقرات ظهرها. على الرغم من مظهر أريكة التشيسترفيلد الجميل، لم تكن تستخدم كسرير، فكيف لو نامت عليها امرأة على مشارف الأربعين؟

نزلت، وبوتين في أعقابها، إلى الطابق الأول حيث لمحت آلة لصنع القهوة. ملأت طبقًا بالطعام لكبح مواء القطّ، ثمّ سكبت له الماء في وعاء قبل أن تعثر على مقبس عند منضدة المطبخ لشحن هاتفها. شعرت ببعض الألم في رأسها نتيجة تأثير الكحول، لكن لا مشكلة، فقد اختبرت لحظات أسوأ في السابق. تحققت من رسائلها أثناء تحضير قهوتها. وصلها من أومونييه التقرير وعنوان مساعد الأمن الذي ترك الفتاة المجهولة تفلت من قبضته: شخص يُدعى أنطوني موريس يسكن في منطقة سان فيليب دو رول. أمّا الأهمّ، فقد فاتتها مكالمة من يوهان مورس، الخبير البيولوجي في ليل، الذي كانت فالنتين قد سلّمته عيّنة الشَّعر. عاودت الاتّصال به على الفور.

– لديّ نتائجك، روكسان.

– بهذه السرعة؟ خفت أن تكون العيّنات ملوّثةً أو بصيلات الشّعر غير كافية.

1 «الأميرة وحبة البازلاء» هي قصة خرافية للكاتب الدانماركي هانز كريستيان أندرسن تتحدّث عن ملكة أرادت أن تتأكد من أنّ الفتاة التي زارتها هي فعلًا أميرة تليق بابنها الأمير فوضعت في سريرها تحت آخر مرتبة من المراتب المريحة حبة بازلاء جافة. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت الفتاة مشتكية من عدم قدرتها على النوم وتقلّبها طوال الليل، فتأكّدت الملكة من أنّها الأميرة المنتظرة.

– لقد أحرزنا تقدّمًا كبيرًا مؤخّرًا في الأساليب التحليلية للشَّعر، ردّ الأخصائي. أجرى معاوني التحليل واستطاع التقاط بصلتين أو ثلاثًا لاستخراج ما يكفي من المادة الجينية. النتائج أمامي على الشاشة.

– ممتاز. سوف أطلب منك إرسالها إلى البريد الإلكتروني لمساعدي، الملازم بوتساريس.

– أعتقد أنّه لدي في قائمة العناوين. سوف أتحقق من ذلك... نعم، إنّه هنا. هل كنت تعلمين أنّ كلّ شخص يفقد ما بين خمسين ومائة شعرة كلّ يوم؟

– لا، ولكن بفضلك، سوف أبدأ يومي بخبر جيّد.

– بالحديث عن الأخبار الجيّدة، سأكون في باريس في الأسبوع الأوّل من شهر كانون الثاني. أنتناول الغداء معًا؟

– طبعًا.

– هذا ما تقولينه في كلّ مرة وينتهي بك المطاف إلى التراجع.

– أنت تعطي أهميّة كبيرة لكلامي يا يوهان.

– بصراحة، لست مهتمًّا بكلامك بقدر ما أنا...

– إلى اللقاء يوهان.

أنهت المكالمة، راضيةً ومسرورةً. في سباق الحواجز الصباحي هذا، كان التغلّب على العائق الأوّل في غاية السهولة. الخطوة التالية: الاتّصال بالملازم بوتساريس.

كانت على وشك طلب الرقم عندما سمعتْ صرير الباب الأمامي. ما هي إلّا ثوانٍ قليلة حتّى ظهرت فالنتين دياكيتيه في المطبخ، أنيقةً، متألّقةً، مشعّةً بالطاقة.

– مررتُ دون سابق إنذار قبل الذهاب إلى المستشفى. لم أكن أعلم أنّك ستنامين هنا!

– ولا أنا، تلعثمت روكسان، محرجة من مباغتتها وقد استيقظت للتوّ من النوم.

– جلبت الكرواسان، أتريدين؟

شكرتها روكسان على ذهابها إلى ليل الليلة الماضية ولخّصت لها المعلومات التي تلقّتها بدورها.

اختفت طالبة الدكتوراه بنفس السرعة التي ظهرت بها. بقيت روكسان جالسةً لعدة دقائق على منضدة المطبخ بلا حراك، مرتابةً ومحاصرة، تتساءل عن حقيقة المشهد الذي عاشته للتوّ. جاهدت لاقتلاع نفسها من عطر فالنتين العابق في الجوّ – أريج عذب ومعسول من الخشب الأشقر والزيزفون – واستعادت السّيطرة قبل أن تهمّ بالاتصال بمعاونها.

– مرحبًا بوتسا.

– روكسان؟ كيف حالك؟ فرحت باتصالك.

– ألديك دقيقتان؟

– أنا في طريقي إلى نانت مع جيبرنيه وضابط من المكتب المركزي لقمع العنف ضد الأشخاص. نحتاج للتحقّق من مسألة متعلّقة بقضية كلاريه-تورنييه.

أغمضت روكسان عينيها. في الخلفيّة، كان بإمكانها سماع أزيز حركة المرور وبضعة مقاطع من محادثة شيّقة. اللحن القاسي لميدان العمل. صوت حالات الطوارئ ودفعات الأدرينالين التي حُرِمَت منها.

– لقد أخبرني سوربييه، استأنف الملازم. أردت أن أترك لكِ رسالة، لكن...

قاطعته لتدخل في صلب الموضوع:

– لا تقلق عليّ. أيمكنك أن تقدّم لي معروفًا؟

– اشرحي أوّلًا. معكِ، لا بدّ من توخّي الحيطة.

– سيرسل يوهان مورس تحليلًا للحمض النووي إلى بريدك الإلكتروني. أودّ منك أن تحوّله إلى السجل الوطني الآلي للبصمات الجينية.

– روكسان! هذه مجازفة!

– تمرّره خفية ضمن قضيّة أخرى. لقد سبق وقمنا بذلك مرّات لا تحصى من قبل.

كان بوتساريس أكثر حذرًا من أن يعترف لها عبر الهاتف بأنّه قد التفّ على مراجعة السجلّ الوطني للبصمات الجينيّة.

– من فضلك لا تدخليني في...

– أريد التحقّق من أمر فقط لا غير.

– ليس اليوم.

– الموضوع مهمّ بالنسبة إلي.

– لن تتغيّري أبدًا. هذا محبط.

– شكرًا بوتسا.

.2

أنهت الاستحمام ثم ارتدت الملابس نفسها التي كانت ترتديها في اليوم السابق. كان الطقس جيّدًا فقررت التوجّه سيرًا إلى ميناء سان برنارد حيث كان من المقرّر أن تقابل أحد الغوّاصين الذين انتشلوا المرأة المجهولة ليلة السبت. كانت الرحلة ممتعةً تحت أشعة الشمس: سان جيرمان، أوديون، السوربون، الميناء. أفسحت الرطوبة المقيتة التي سيطرت على الأسابيع السابقة المجال أمام هواء باردٍ وجافّ. بدا كلّ شيء مختلفًا مع هذا الطقس الجميل.

في الطريق، استكملت تقصّي المعلومات متحدّيةً السّبات الإداري لمركز الشرطة في الدائرة 14. لم تتقدم القضيّة ولا بمقدار ذرة. كانت مذكّرة بحث قد عُمّمت في اليوم السابق وأقيمت دوريّات حول مركز جول-كوتارد للأمراض النفسية، دون ملاحظة أيّ شيء يُذكر. حصل الأمر نفسه مع فرقة مكافحة الجرائم: لم تبلّغ أيّ مجموعة عن وجود الفتاة المجهولة خلال العمليات الليلية. المكالمة الأخيرة كانت لمنسّقة مديرية إدارة النظام العام والمرور التي تنتظرها في الموقع.

في الجهة الخلفية لجاردين دي بلانت، كادت روكسان أن تُهرسَ أثناء عبورها الطريق السريع. تسكّعت بعدها لعدّة دقائق قبل أن تجد الممرّ المؤدّي إلى الميناء. كان المقرّ الرئيسي لفريق الإنقاذ النهري مكوّنًا من أربعة مبانٍ هندسيّة في غاية البشاعة، راسية على ميناء سان برنارد، تطوّقها القوارب المطّاطية ومراكب الزودياك وزورق الدوريّة. منتصبًا فوق جسر إسمنتيٍّ عائم، كان البنيان برمّته يحاكي موقع بناءٍ معياري، من نوع ألجيكو[2]. غير أنّ أشجار الدّلب والصفصاف الباكي والبرقوق التي تحدّ الموقع، والانعكاسات الفضيّة المنزلقة فوق نهر السين، جعلت المشهد البانورامي يسرق كلّ الأضواء.

أمام مدخل المبنى الرئيسي، وجدتْ لويز فيرون تدخّن سيجارةً بصحبة رجل طويل داكن الشّعر يرتشف القهوة مباشرة من عنق قارورة التّرمس. عرّفتهما المنسّقة على بعضهما.

– العريف برونو جان-باتيست، النقيب روكسان مونكريستيين. برونو هو مَن قاد العمليّة التي تتقصّين عنها.

[2] Algeco هي شركة عالمية رائدة في نظام البناء المعياري.

استُهلّ الحديث مشوبًا ببعض التوتّر. منذ فترة وفريق الإنقاذ النهري يعيش أزمة. فقبل عامين، أسفرت حادثة وفاة غطّاسة أثناء التدريب عن صدمة كبيرة لطّخت سمعته. لتجاوز هذه المحنة، ذهبت وحدة النّخبة إلى حدّ تغيير الإدارة المسؤولة، بيد أنّ الجرح لم يلتئم. حلّ رجال الإطفاء الباريسيون، «منافسُهم» الرئيسي، محلّهم في قلوب بعض وسائل الإعلام وأصبحوا «الملائكة الحارسة الجديدة لنهر السين».

حاولت روكسان ترطيب الأجواء بكشف أوراقها: كان هدفها يقتصر على تحديد هويّة الفتاة المجهولة التي سحبها الفريق من النهر قبل يومين.

– هل تتذكّر العملية؟

– بالطبع. يوم السّبت الماضي، أصدرت ميتيو-فرانس إنذارًا باللون الأصفر في باريس، أوضح العريف. كان المطر يسيل مدرارًا والرياح تعصف بقوّة منذ أكثر من أربع وعشرين ساعةً فأصدرت البلديّة قرارًا بإغلاق المنتزهات والحدائق اعتبارًا من الساعة الخامسة مساءً.

كان طول جان-باتيست يناهز المترَين. بشرةٌ نحاسيّة، شعرٌ أسود مصفّف إلى الخلف، كتلة بدنيّة ضخمة وصوتٌ رقيق للغاية يتناقض إلى حدّ كبير مع بنيته.

– وردتنا المكالمة في تمام الساعة الرابعة وثمانٍ وعشرين دقيقةً فجرًا، ادّعى رجل أنّه رأى من نافذته شخصًا يغرق على مستوى جسر نُف، تابع فيما كانت عيناه مركّزتان على مستند من صفحتين بدا وكأنّه تقرير الحادثة.

– من أين كانت المكالمة؟

– في العادة، تمرّ معظم المكالمات عبر الرقم 18 الخاصّ بفرقة الإطفاء، أو الرقم 17 لشرطة الطوارئ. لكن يومها لم يكن هذا ما حصل...

وأشار الغوّاص إلى المبنى بإيماءة من ذقنه.

– تواصل الرّجل معنا بشكل مباشر. ربّما عثر على الرقم عبر الإنترنت. من الممكن أن يحدث هذا الأمر لكنّه ليس شائعًا.

– هل ترك أيّ عنوان أو رقم هاتف؟

مدّ جان-باتيست يده وناول روكسان الورقة التي كان يحملها وفيها المعلومات: جان-لويس كانديلا، 12، كيه دو لوفر.

– انطلقنا فورًا على متن الكرونوس: محرّك ثنائي، هيكل شبه صلب، قوّة مضاعفة من 150 حصان.

– كم كان عددكم؟

– ثلاثة، كما جرت العادة: رئيس فرقة الاستجابة للطوارئ وقائد المركب وغطّاسة.

– هل كانت عمليّةً صعبةً؟

– يزداد الأمر تعقيدًا دومًا مع غزارة الأمطار، ناهيك عن الرياح التي بلغت سرعتها 90 كيلومترًا في الساعة. على الرغم من تلك الصعوبات، وصلنا إلى المكان خلال دقيقتين. في فصل الشتاء، ومع المنتحرين أو مدمني الكحول، علينا التحرّك بسرعة. فبين التيّارات والبرد، قد يغرقون في أقلّ من خمس دقائق.

– هل حدّدتم مكان الفتاة بسرعة؟

– نعم، في الواقع كانت تغرق. لكنّ ميريال، الغطّاسة، أخرجتها من الماء دون صعوبة.

– كيف كانت حرارة الماء في تلك الليلة؟

– خمس أو ستّ درجات.

– وحالة الفتاة؟

– حسنًا... حالها حال من قضى وقتًا طويلًا عاريًا في الماء بحرارة خمسٍ أو ستّ درجات. كانت متجمّدةً من البرد، تتنفّس بصعوبة، وفي حالة صدمة.

توقف الغوّاص قبل أن يأخذ رشفةً طويلةً من القهوة. مدّت روكسان يدها إلى جبينها لحماية عينيها من أشعة الشمس التي غمرت نهر السين. كانت إحدى المرّات النادرة التي تكون فيها السماء صافية. تكشّف القوسان المعدنيان لجسر سولي في الأفق وبان من بعيد الطرف الغربي لجزيرة سانت-لويس والهيكل المتماثل للشفاء لبرجَي نوتردام.

– هل أنت مَن نقلها إلى المستشفى؟

– أجرينا أوّلًا تقييمًا للوضع في ميناء كونتي، أوضح جان-باتيست. عندما وصلنا، كان رجال شرطة سانت جنفييف في الدائرة الخامسة قد بلغوا المكان بعد أن استدعيناهم عند رصدنا لتحليق طائرة بدون طيار فوق مجلس الشيوخ. باتت هذه الأجهزة آفة العصر ولم يعد يمرّ يوم واحد دون تلقّي إنذار بوجودها. لم يلقوا القبض على الشبّان لكنّهم عرضوا علينا المساعدة. كان مستشفى أوتيل ديو على مقربة من هنا. أنزلنا الفتاة في كيه دي فلور ثمّ نقلوها إلى خدمة الاستقبال والطوارئ.

– هل مرّت عبر خدمة الطوارئ؟ ظننت أنّها نُقلت مباشرة إلى وحدة الطب الشرعي.

تجهّم الغوّاص.

– وجدنا من الأفضل أن تمرّ على الطوارئ تجنّبًا لخطر الإصابة بالالتهابات.

– اعتقدتُ أنّ مياه النهر لم تعد متّسخة كالسابق. ألم تتكفّل هيدالغو[3] بأنّها صالحة للسباحة في الألعاب الأولمبية؟

– بالفعل، كانت المياه أوسخ في السابق، وافق العريف. لكنّ مستوى التلوّث الجرثومي فيها لا يزال مرتفعًا. يمكن التقاط ما لا يحصى من الأمراض، بما فيها الإشريكية القولونية التي تصيب بالإسهال والتهابات المسالك البوليّة، أو حتّى داء البريميات الخطير الذي ينتج عن بول الفئران أو جثثها العائمة على الماء.

– حتّى لو لم يتعدّ بقاء الشخص بضع دقائق في الماء؟

– المشكلة أنّ وشوم الفتاة بدت حديثةً، ما يزيد من خطر الإصابة بالتهاب الجلد بشكل كبير.

ظنّت روكسان أنّها لم تسمع جيّدًا بفعل الضوضاء التي كان يحدثها الميكانيكيّون المنهمكون في إصلاح قاطرة بحريّة وأدّت إلى كتم صوت الغوّاص.

– أكان ثمّة وشوم على جسد الفتاة؟

– حول كاحليها، نعم.

كانت تلك الوشوم تشكّل مضمارًا للبحث يستحقّ المتابعة. لكنّ كاترين أومونييه لم تذكره أبدًا. فعلًا، أنجز رجال الـI3P عملهم كالأوغاد.

– لم يكن من الصعب رؤية الوشوم، خاصة وأنّ الفتاة كانت عاريةً. لكنّ ما أدهشني هو أنّها بدت كأنّها رُسمت على عجل.

– أيّ نوع من الرسوم؟

زمّ جان-باتيست جفنيه محاولًا أن يتذكّر.

[3] آن هيدالغو هي عمدة باريس وأوّل امرأة تتولى هذا المنصب في تاريخ فرنسا.

– الأوّل يسهل تذكّره: أوراق من اللّبلاب تحيط بالكاحل. أمّا الثاني فلم يكن واضحًا تمامًا. بدا لي نقشة فرو حيوان مرقّط، ظبي أكثر منه نمر. يمكنني محاولة رسمها، إن أردتِ.

– سيكون ذلك جيّدًا!

أخرجت لويز فيرون، التي لم تنبس ببنت شفة طوال الحديث، دفترًا وقلمًا من حقيبتها. وبينما راح الغوّاص يرسم باجتهاد، واصلت روكسان طرح أسئلتها الأخيرة عليه.

– كانت الفتاة ترتدي ساعةً، أليس كذلك؟

– ساعةٌ وسوار.

هفوة أخرى لشباب الـI3P.

– كيف وصلت إلى هنا برأيك؟ هل دُفعت أم ألقت بنفسها؟

– كيف تتوقّعين أن أعرف! على أيّ حال، لم تظهر أيّ آثار عنف على جسدها.

أخذ من الوقت ما يكفي لإنهاء رسومه، ثمّ قال بتهكّم:

– لعلّها ظهرت بسحر ساحر. كما لو أنّ النهر قذفها من أحشائه بنفسه.

.3

بعد نصف ساعة، كانت روكسان تقرع باب شقّة صغيرة في شارع كومندان ريفيير في حيّ سان فيليب دو رول.

– الشرطة!

فتحت لها شابّة على وشك المغادرة: معطف مزرّر، وشاح مربوط، حقيبة على الكتف. بدت وكأنّها سلافية، بشرتها شاحبة ووجهها باهت على الرّغم من تبرّجها.

– النقيب روكسان مونكريستيين، أبحث عن أنطوني موريس.

– خرج للتو، ردّت الفتاة.

– من أنتِ؟

– صديقته، إذا صحّ القول.

– أيمكن أن أدخل؟

– لا، لأيّ سبب؟

استرقت روكسان النظر من فجوة الباب حيث فاحت رائحة النوم من الليلة الماضية. كانت الشقّة عبارة عن غرفتي خادمة متّصلتين وبدا واضحًا أنّ مساعد الأمن لم يكن هناك.

– أين موريس؟

– في المقهى المعتاد، أظنّ.

– ما اسمه؟

– لا كافالينا، عند ناصية الشارع.

– وأنت، ما اسمكِ؟

– لمَ لا تكلّمينني باحترام؟

– لا تثيري غضبي. اسمكِ؟

– ستيلا جاناسيك.

– حسنًا، اسمعيني جيّدًا يا ستيلا: إذا أعلمتِ صديقك بزيارتي في الدقائق العشر التالية، سوف تتخذ حياتك مسارًا معقّدًا للغاية. أتفهمين؟

كان للتهديد تأثيره. على الأقلّ، هذا ما أرادت روكسان تصديقه عندما أومأت الفتاة برأسها كأنّها تقول: «أتعتقدين أنّي سأخاطر بنفسي من أجل هذا الرجل؟»

قفزت روكسان على درجات السّلم ثلاثًا ثلاثًا. أرادت أن تباغت مساعد الأمن. شارع دو فوبور سان أونوريه. لم تجد صعوبةً في العثور

على المقهى. كان المكان أنيقًا بواجهته السوداء وستائره الذهبيّة والسخّانات النقّالة التي نشرت الدّفء في الشّرفة الصغيرة المطوّقة بالنباتات الاصطناعية. جالت بعينيها على المساحة الخارجيّة دون أن تلمح أثرًا لأنطوني مورايس الذي كانت قد عثرت على صورة له على وسائل التواصل الاجتماعي. ثمّ دفعت الباب فرأته وتعرّفت عليه فورًا. كان جالسًا عند طاولة تحت الواجهة الزجاجية، غارقًا في النظر إلى شاشة هاتفه.

– مرحبًا طوني، قالت وهي تجلس أمامه.

انتفض مساعد الأمن في مكانه مبغوتًا ثـمّ أخفى هاتفه السامسونج في جيب سترته. كان قصيرًا، ذا وجه دائـريّ وسحنةٍ شاحبة، وحاجباه الأسودان الكثيفان ملتصقان فوق عظمة أنفه.

– من أنتِ؟

– النقيب مونكريستيين من الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين.

– ما الذي فعلتُه مجددًا؟

– أريدك أن تطلعني على حادثة النهر التي وقعت البارحة.

هزّ مورايس كتفيه.

– لقد قلت ما عندي في جلسة الاستجواب.

– لا، لقد أجبت على بعض الأسئلة المتعلّقة بتقرير الحادث فحسب، ولا علاقة لهذا بالاستجواب.

– هـذا لا يغيّر شيئًا: لقد قلت الحقيقة. أرفض تحمّل المسؤولية وحدي هنا. الجميع يعرف أنّ الـI3P يعانون من نقص دائم في الموظفين. كان يجب على أومونييه ألّا تدعني أنقلها بمفردي.

– معك حقّ. لا أحد يضعك في قفص الاتّهام. احك لي فقط كيف حدث كلّ شيء.

تنهّد مساعد الأمن ثمّ أخذ الرّشفة الأخيرة من قهوة الإسبرسو قبل أن يبدأ بسرد الأحداث بنبرة سريعة.

– كوتارد مبنى صغير بلا فناء أو موقف سيارات. ركنت السيارة في طابور مزدوج عند شارع فروادوفو. وبمجرد أن فتحت باب سيارة الإسعاف فرّت الفتاة. هكذا.

– رغم أنّهم كانوا قد أعطوها أدويةً مهدّئةً.

– نعم، حقنتان من لوكساباك[4] كافيتان لطرح أيّ شخص أرضًا في العادة. إضافة إلى أنّها كانت غير متجاوبة طوال الطريق.

– كيف أفلتت منك؟

– وجّهت لي ضربةً عنيفة!

إثباتًا لكلامه، أشار بسبّابته إلى الجرح العميق عند جهة اليسار من حاجبيه المقرونين.

– كيف فعلت هذا بك؟

– ركلتني! اللعينة! صرخ بأعلى صوته ممتعضًا.

– ماذا كانت ترتدي؟

– عادةً ما تُعاد ثياب المريض إليه أثناء عملية النقل، ولكن نظرًا إلى أنّها لم تكن تلبس شيئًا، زُوِدّت في المستوصف بملابس نوم وسترةٍ سميكة وحذاء كروكس.

ظلّت روكسان صامتةً لبرهة قبل أن تقرّر خداع خصمها بالورقة الوحيدة التي كانت في جعبتها.

– نظريّتي تقول إنّك حاولت سرقة ساعتها...

– هاه؟

– ... وبأنّها وجّهت لك عدّة ضربات كي تردعك.

[4] دواء لعلاج الاضطراب النفسي وأعراض الأوهام والهلوسة.

– هذا هراء.

أراد طوني النهوض، لكنّ روكسان أمسكته من كتفه لإرغامه على البقاء جالسًا.

– رأيتك عند وصولي تتصفّح تطبيق كرونو 24 المخصّص لبيع الساعات المستعملة.

– وَإن يكن، هذا ليس ممنوعًا.

– كنت تحاول بيع الساعة التي سرقتها.

– بففف، تمتم طوني متأفّفًا للتنصّل من التّهم الموجّهة إليه.

– اسمع، سأبسّط لك الأمر، طوني: مكالمة واحدة منّي وتودِّع في ثانية منصبك كمساعد أمن. مع قصّة السرقة هذه سيكون لديك سجلّ إجراميٌّ وستضيع منك كلّ فرصة للعمل في الأمن. لقد وضعتَ نفسك في موقف محرج للغاية.

– اللّعنة!

– بالضبط.

عقد مساعد الأمن ذراعيه متلحّفًا بسترته وغرق في مقعده.

– لم تعد الساعة بحوزتي، قال بصوت ممتعض. أودعتها لدى بائع.

– أنت لا تضيّع الوقت أبدًا...

– تركتها الليلة الماضية في متجر للأشياء المستعملة في شارع ماربوف.

كانت روكسان تعرف بعضًا من هذه المحلّات.

– أيّ واحد؟ رومان ريا؟؟ أم أم سي؟

– لا، متجر آخر في الجوار اسمه لو تان روتروفيه[5].

Le Temps retrouvé.

– مثل رواية بروست؟

– هاه؟

– لا عليك. هل ثمّة شيء آخر تريد إخباري به؟

هزّ طوني رأسه عابسًا، فبدا كمراهق متجهّم.

– إذًا، اغرب عن وجهي. أريد أن أشرب قهوتي بسلام.

.4

احتفالًا بهذا الانتصار المتواضع، طلبت روكسان قهوة إسبرسو وبعض البسكوت، قبل أن تراجع أوقات العمل في لو تان روتروفيه على هاتفها بانتظار فطورها. كان متجر الساعات المستعملة يفتح أبوابه في الساعة الحادية عشرة. ما زالت لديها نصف ساعة لتضيعها. لم تستطع ردع نفسها عن كتابة اسم فالنتين دياكيتيه على غوغل لتكتشف أنّ طالبة الدكتوراه كانت على ما يبدو من الشباب القلائل في سنّها الذين لا حضور رقميّ لهم. في النهاية، اتّصلت بها. كانت فالنتين تجوب قاعة بومبيدو مرتقبة حضور الطبيب للتقصّي عن حالة مارك باتاييه.

– لديّ مهمّة لك.

– حاضرة دائمًا!

– أريدك أن تتصّلي بفنّاني الوشم في منطقة باريس لمعرفة ما إذا كان أيّ منهم قد قام مؤخرًا برسم وشمَين حول كاحلَي فتاة، واحد يصوّر إكليلًا من زهور اللّبلاب والآخر جلد أو فرو حيوان مرقّط.

– لست متأكّدة من أنّي فهمت جيّدًا.

– سأرسل لكِ الرسومات عبر رسالة قصيرة.

– حسنًا!

أجرت روكسان، أثناء احتساء قهوتها، سلسلةً من المكالمات لتحديد المسؤول عن العمارة 12، كيه دو لوفر. علمت إثر الاتصال أن ليس هناك من مالك أو مستأجر يُدعى جان-لويس كانديلا. قد يكون الرجل تواصل مع فريق الإنقاذ البحري في تلك الليلة بهويّة مزّيفة. لم يكشف هذا الأمر بذاته أي شيء يُذكر – كان من الشائع جدًّا أن يعطي الأشخاص أسماء مستعارةً أو أن يرفضوا التعريف عن أنفسهم عند الاتصال برجال الشرطة بشكل مفاجئ. لو كان إجراءً عاديًّا، لطلبت روكسان تعقّب الرقم وأطلقت عمليّة تفتيش في الحيّ ورصدًا لكافة كاميرات المراقبة في محيط جسر نُف. إلّا أنّها لا تملك لا الفريق اللازم ولا الصلاحية للتعامل مع هذه القضيّة. عمليّة التحقيق هذه لا مقوّمات لها، وهي بمثابة فرصةٍ وعائقٍ لها في الوقت ذاته.

ارتجّ هاتفها وهي تدفع الحساب فظهرت صورةٌ ملتوية لوجه بوتساريس على الشاشة.

– روكسان، لقد طلبتُ من كروشي تقديم تحليل الحمض النووي إلى السجل الوطني الآلي للبصمات الجينية.

– والنتيجة؟

– جاء مطابقًا لحمض امرأة اسمها ميلينا بيرغمان.

شعرت بفراشات تتراقص في معدتها: وأخيرًا نجحتْ في إعطاء اسم لمجهولة نهر السين.

– موسيقية ألمانية، أشار بوتساريس.

ميلينا بيرغمان...

لم يكن الاسم غريبًا على مسمعها. كانت قد تعرّفت على هذا الاسم في الليلة السابقة في برج الساعة أثناء البحث في مجموعة الأسطوانات الكلاسيكية، حيث كانت ميلينا بيرغمان من بين عازفي البيانو الذين امتلك مارك باتاييه تسجيلات لهم!

– ما هي مخالفتها؟

– قصّة قديمة. سرقة حقيبة بولغاري من متجر في جادة مونتين عام 2011. كانت مصابةً بهوس السرقة في تلك الفترة.

وصلت روكسان سمّاعة الأذن بهاتفها ثمّ أطلقت متصفّح ويكيبيديا فيما بقي الملازم على الخطّ. نشرت الموسوعة الإلكترونية مقدّمةً عن عازفة البيانو. حدّقت فورًا إلى صورة الفتاة دون قراءة المقال: كانت ذات شعر أشقر طويل وملفّ شخصيّ متطابق مع ملف وحدة الطبّ الشرعي.

– كيف تمكّنتِ من الحصول على البصمات الجينية لهذه المرأة؟ استفسر بوتساريس.

فهمت روكسان من نبرة صوته أنّه أدرك الورطة التي وقعت فيها. فاختارت إخباره بالحقيقة.

– سحبها فريق الإنقاذ النهري قبل يومين من نهر السين.

– ماذا؟

– منتحرة، على الأرجح. نُقلت إلى الـI3P ثمّ فرّت خلال عملية النقل.

– أشكّ فعلًا في أن تكون هي، أكّد الشرطي.

– لماذا؟

سكت بوتساريس لبضع دقائق، ثمّ قال:

– لأنّ ميلينا بيرغمان ماتت منذ عام.

fr.wikipedia.org

ابحث في ويكيبيديا

غير مسجل الدخول نقاش مساهمات إنشاء حساب

ميلينا بيرغمان

ميلينا بيرغمان، عازفة بيانو ألمانية-سويدية ولدت في 7 يوليو 1989 في لينشوبينغ وتوفيت في حادث طائرة في 8 نوفمبر 2019 قبالة أرخبيل ماديرا البرتغالي.

سيرة ذاتية

هي الابنة الوحيدة لمهندس طيران ألماني ومدرّسة موسيقية سويدية. عاشت في السويد حتى العام 1996 حتى انتقلت عائلتها إلى هامبورغ. بدأت تعلّم العزف على البيانو مع والدتها أوّلا ثم في معهد الكونسرفاتوار يوهانس برامس وفي المدرسة العليا للموسيقى والمسرح في ميونخ في صف مارغريتا أنكي.
إلى جانب دراستها، شاركت في العديد من فصول الماجستير في إيطاليا وفرنسا والولايات المتحدة، مع أساتذة مثل ألدو تشيكوليني وريجينا نواك.
حازت خلال دراساتها على العديد من الجوائز العالمية منها الجائزة الأولى في مسابقة آرثر روبنشتاين الدولية للبيانو في تل أبيب (2002)، والميدالية الذهبية لإمارة موناكو، والجائزة الثانية في مسابقة تشايكوفسكي العالمية في عام 2007.
أتاح لها هذا العدد من الجوائز الانطلاق في مهنة دولية كعازفة موسيقية والعزف إلى جانب أعظم قادة الفرق الموسيقية وتأدية العروض في القاعات الأكثر شهرة: القاعة الكبيرة في كونسرفتوار موسكو، ومسرح مارينسكي في سانت بطرسبرغ، وفيلهارموني برلين، ومؤسسة فويتون في باريس، ورويال فيستيفال هول في لندن، وقاعة كارنيجي في نيويورك وقاعة سونتوري في طوكيو.
أشاد العديد من النقاد بأدائها لسلسة Impromptus لفرانز شوبرت من إصدار دوتش غراموفون حيث جذبت الجمهور لتصبح بسرعة مرجعًا لتسجيل هذا العمل.
تشتهر ميلينا بيرغمان قبل كلّ شيء بكونها متخصصةً في موسيقى شوبرت ومؤديةً رائعةً لديبوسي ورافيل، وموضع تقدير لأسلوبها البارع ولمستها الراقية وعزفها الآسر والشاعري. عُرفت بأنها ناشدة الكمال، ونادرًا ما كانت تسجّل أسطوانات خاصة بها، لكنها أقامت العديد من الحفلات الموسيقية، خاصة في آسيا حيث تمتّعت بشهرة واسعة.
تميّزت ميلينا بيرغمان بشخصية متحفّظة وظهور إعلامي نادر، وهي غالبًا ما كانت تردّد أنّ شغفها بالبيانو لا يشكّل جوهر حياتها. كما أنّها منحت نفسها عدة مرات فترات إجازة من حياتها المهنية للدراسة والمطالعة والانغماس في رياضة الفروسية.
هي واحدة من الضحايا الـ178 لحادث طائرة بوينس آيرس-باريس التي تحطّمت بالقرب من ماديرا في 8 نوفمبر 2019.

فهرس التسجيلات

2007 – فرانز شوبرت: Impromptus - D 899 وD 935
2009 – فرانز شوبرت: Sonates - D 959 وD 960
2011 – يوهانس برامس: كونشيرتو البيانو رقم 2، أوركسترا NHK السمفونية (طوكيو)
2012 – كلود ديبوسي: Préludes – الكتاب الأوّل والثاني
2013 - كلود ديبوسي: صور 1 و2، ركن الأطفال
2015 – موريس رافيل: سوناتا والبيانو الثلاثي (مع رينو كابوسون ويوكيكو تاكاهاشي)
2016 – موزارت: كونشيرتو البيانو رقم 23 و26، أوركسترا سيول الفيلهارمونية بقيادة ميونغ وون تشونغ
2018 – فيليب غلاس، دراسات البيانو
2020 – التسجيل الأخير، أوركسترا بوينس آيرس الفيلهارمونية

***هذه المقالة مأخوذة جزئيًا أو كليًا من مقالة ويكيبيديا باللغة الإنجليزية بعنوان Milena Bergman.**

4

راكبة الرحلة AF 229

أمّـا الـوجـود البشري فما هـو سـوى خدعة حزينة من اختراع الآلهة.

سيرج فيليبيني

1.

– أنتِ من الشرطة، أليس كذلك؟

كـان متجر لـو تـان روتـروفـيـه مـحشـورًا عميقًا بين بوتيكات العلامات التجاريّة الفاخرة في شارع ماربوف، يستحضر بديكوره وأجوائه التصميم الداخلي لسيارة فخمة مريحة. ما كادت روكسان تطأ العتبة حتّى بانت أمامها مساحة مجهّزة كصالون صغير في وسطه طاولةٌ منخفضة من خشب الجوز تطوّقها مقاعد من الجلد الفاتح. بعثت الهمهمة العذبة للسخّان ورائحة الفرش الجديد على الارتياح داعيـةً إلـى تخصيص الوقت لإمتاع النظر بساعات الكرونوغراف المعروضة من أرقـى دور صناعة الساعات. في الجزء الخلفي من الغرفة، وخلف منضدة رخاميّة خضراء، بدا الساعاتي على القدر نفسه

من التناغم: سترةٌ ضيّقة، جيب منديل محبوك، نظّارةٌ صدَفية الهيكل، صدريّة بنقشة بيزلي تتدلّى منها ساعة جيب معلّقةٌ في سلسلة.

– كنت أتوقّع زيارتكِ، قال مُرحّبًا.

– حقًّا؟

– أنت شرطية وجئت تسألين عن «لا ريزونانس».

وضعت روكسان بطاقتها ثلاثية الألوان على المنضدة.

– أصبت، أنا من الشرطة. أود أن أطرح عليك بعض الأسئلة عن الساعة التي أودعها أنطوني موريس لديك الليلة الماضية.

– هذا ما كنت أتحدّث عنه: لا ريزونانس.

قطّبت روكسان جبينها. ذكّرها الساعاتي، بمعطفه الواسع وساعة الجيب وبلاغته الرديئة، بالأرنب الأبيض في قصّة أليس في بلاد العجائب. وشعرت برغبة في تبريحه ضربًا.

– ما كاد الشّاب يغادر متجري حتّى أخطرتُ زملاءك في الدائرة الثامنة بذلك على الفور، أكّد وهو يعرض أمامها صندوقًا صغيرًا من الخشب المطعّم.

في الداخل، ساعة من البلاتين ذات علبة أصليّة على شكل قوقعة سلحفاة مسطّحة.

– لمَ اتّصلتَ بالشرطة؟ أكنت على يقين من سرقتها؟

– بقوّة.

فتحت ذراعيها.

– ولماذا؟

– لأنّها ساعة فريدة من نوعها وقد بعتها بنفسي لمالكها.

أومأت روكسان برأسها. بدأت الأمور تأخذ منحى مثيرًا للاهتمام.

– قهوة، آنستي؟ عفوًا: قهوة، نقيب؟

– بكلّ سرور. سوداء من دون سكر.

بينما كان الأرنب منهمكًا في تحضير القهوة، أخذت روكسان تدقّق في الساعة. لم تكن قد رأت مثيلًا لها من قبل. كان في داخل مينائها اللؤلؤي ذي اللون الأزرق الفاتح عدّادان متماثلان تمامًا بدَوا كصورة تعكسها المرآة.

– هذا ما يعطي الساعة طابعًا فريدًا. لها عدّادان ينتهي بهما الأمر إلى التأرجح على نحو موحّد، شرح الساعاتي.

– لأيّ هدف؟

– لا لسبب معيّن، مجرّد تحدٍّ صناعي، والأهمّ أنّه رمز رائع، ابتسم قائلًا.

– رمز لمَ؟

– كان المالك الأوّل للساعة، الرسام جون لورنتز، يرى فيهما قلبين ينبضان باتّساق.

أحبّت التعبير الذي ذكّرها ببيت شعر لآراغون: «وضعت قلبي بين يديك / كي يسير مع قلبك تناغمًا».

عاد الساعاتي حاملًا صينية فضيّة وُضع عليها فنجانان من الخزف.

– بعد وفاة لورنتز، اشترت زوجة الكاتب رومان أوزورسكي الساعة هديّةً لزوجها ونقشت عليها الكتابة من الخلف.

قلبت روكسان الساعة وقرأت: أنتَ سكينة قلبي وارتباكه في آن[1].

– عبارة مأخوذة من رسالة من كافكا إلى فيليس باور. جميلة، أليس كذلك؟

[1] You are at once both the quiet and the confusion of my heart.

ثم حدث أمرٌ غريبٌ. حاليًّا، كانت روكسان تشعر هي أيضًا أنّ هذه التحفة مذهلةٌ وشاعريّة. هي أيضًا اشتهت أن ترتديها وتشعر بجهاز الساعة ينبض على معصمها ويلهب قلبها.

– بعد طلاقه، أراد أوزورسكي التخلّص من الساعة، تابع الساعاتي، وكنت أنا من اشتريتها لصالح أحد عملائي.

– من يكون؟

– هذا سرّ مهنيّ.

رفعت عينيها إلى السماء.

– على حدّ علمي، لستَ قاضيًا أو طبيبًا أو محاميًا.

رضخ الأرنب الأبيض بسرعة.

– زبوني معجب بأوزورسكي: الروائي رافاييل باتاييه.

وضعت روكسان الفنجان من يدها، مبلبلة الفكر.

– أيّ علاقة مع المفوّض باتاييه؟

– بالفعل، هو ابنه. ألم تقرئي كتبه قطّ؟

هزّت رأسها. ما الذي أقحم ابن باتاييه في هذه القصة؟

– إذًا، الساعة تخصّ رافاييل باتاييه؟

– نعم. أخرج الساعاتي هاتفه من جيب سترته. في الواقع، حاولتُ الاتصال به الليلة الماضية ولمّا لم يردّ، تركت له رسالة.

– ولم يعاود الاتصال؟

– لا.

لوّحت روكسان بسبابتها لتطلب من الساعاتي إعطاءها جهاز الآيفون الخاص به. استغلّت تعاونه لكي تطّلع على ملف رافاييل باتاييه الذي احتوى أيضًا على عنوانه: البيت الزجاجي، 77، شارع داساس، الدائرة السادسة.

– البيت الزجاجي؟

– تمامًا، كما يوحي اسمه، هو منزل زجاجيّ بناه مهندس معماري أميركي في الستينيات ثمّ اشتراه السيد باتاييه. يبدو أنّه يستحق الزيارة.

رجعت إلى الساعة ولفّتها حول معصمها.

– ما قيمة جوهرة كهذه؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

– ثروة صغيرة.

أخرجت صورة الفتاة المجهولة.

– عُثر على هذه الساعة حول معصم امرأة شابّة انتُشلت من نهر السين في ليلة السبت إلى الأحد. هل يبدو لك وجهها مألوفًا؟

– إنّها جميلة. تبدو مثل أوفيليا في لوحة آرثر هيوز.

– أرأيتها من قبل؟

أومأ الأرنب برأسه سلبًا وأشار إلى الساعة.

– لا تنسي أن تعيديها لي قبل أن تغادري.

– لا، سأحتفظ بها. اعتمد عليّ لإرجاعها إلى صاحبها.

.2

عند جسر ألما، استقلّت روكسان القطار الكهربائي الذي نقلها إلى محطة جسر غاريغليانو، في أسفل مستشفى بومبيدو. استغلّت الرحلة لمعاودة الاتصال بيوهان مورس.

– هناك مشكلة كبيرة في نتائج تحليل الحمض النووي الذي أجريتَه.

– ما هي؟

– جاءت مطابقةً لمواصفات امرأة ميتة بينما عيّنات الشَّعر تعود لفتاة انتُشلت قبل يومين، حيّةً ترزق، من نهر السين.

– إذا حصل خطأ، فهو ليس من جانبي، قال الخبير البيولوجي مدافعًا عن نفسه.

– على كلّ حال، قم بتحليل التسلسل الجيني مجدّدًا. أنت ليس مساعدك، أمرته قائلة.

– حسنًا، قال متنهّدًا.

– لنرَ ما الذي يمكنك أن تجده في تحليل البول. كنت قد طلبت منك هذا أيضًا.

شرعتْ بعدها في تصفّح الويب في هاتفها بحثًا عن معلومات حول رافاييل باتاييه. أربعون سنة، شابّ وسيم بالفعل، ذو مسيرة مهنيّة طويلة بالرغم من صغر سنّه. كان باتاييه مصابًا بهوس الكتابة إذ ألّف حتّى ذلك الحين حوالي عشرين كتابًا في أنواع مختلفة جدًّا بدءًا من الروايات البوليسية المثيرة مرورًا بقصص الرعب وصولًا إلى كتب الأطفال. على الرغم من طبعه المتحفّظ، حشد مجموعة من القرّاء المخلصين الذين كانوا يتابعون كلّ مشاريعه. منحه هذا الولاء، مقرونًا بشخصيّته المتغيّرة، مكانةً خاصّة في الساحة الأدبية بعيدًا عن النصوص السان-جيرمانية المتبجّحة الموجّهة نحو الذات وماكينات الطباعة الضخمة للكتب الأكثر مبيعًا. حملت الرواية الأخيرة التي نشرها عنوان[2] «خجل الأشجار». أعجب العنوان روكسان، فاشترت الكتاب الإلكتروني واعدة نفسها بإلقاء نظرة عليه لاحقًا.

بسط مستشفى بومبيدو هيكله المعماري على ضفاف نهر السين على مقربة من الطريق الدائري. منتصبًا على ميناء أندريه-سيتروين، كان عبارة عن بناء هندسيّ عملاق. كتلة عمرانية تفتقد للتناغم مؤلّفةٌ من عشرة مبانٍ زجاجية مترابطة حول فناء يعلوه سقف

[2] أي La Timidité des cimes وهي ظاهرة نمو أنواع من الأشجار بشكل كثيف من دون أن تتلامس.

من زجاج. مبنى حديث لا يتخطّى عمره العشرين عامًا لكنّه بدأ يعطي انطباعًا بأنّه قديم وقذر. انسجامًا مع ما أصبحت عليه المدينة.

جالت روكسان فترةً طويلة في الردهة قبل تحديد موقع وحدة العناية المركّزة. نقلها المصعد إلى الطابق الأوّل حيث سألت ممرّضةً مساعِدة عن رقم غرفة مارك باتاييه. بعد اجتيازها لمتاهة ممرّات مزدحمة بعربات معدنية، وصلت أخيرًا إلى الرقم 18. وبينما راحت تتحقّق من اللافتة المعلّقة التي تُظهر اسم المريض وتعدّد الأمراض التي يعاني منها وعلاجه ونتائج اختباراته، رأت فالنتين عبر الواجهة الزجاجية تحثّها، بإشارة من يدها، على الدخول. دفعت روكسان باب الغرفة متوترةً ودخلت.

كان باتاييه محظوظًا بتخصيص غرفة منفردة له – حتّى لو لم يدرّ عليه ذلك، في تلك اللحظة بالذات، أيّ فائدة – كان الشرطي موصولًا بالأنابيب ومستلقيًا على بطنه لتيسير عمليّة التنفّس. من خلال الأنابيب الشفّافة المتشابكة، بدا مظهره مطابقًا مع ما تخيّلته روكسان. بنية ضخمة، شعر أشعث رمادي وأسود، تجاعيد عميقة، ذقن لم تُحلق منذ أسبوع. توزّعت حول السرير الأجهزة الطبية من ماكينة تخطيطِ كهربائية القلب، إلى مضخّة تسريب وجهاز التنفّس الصناعي الذي يزوّد المريض بالأكسجين ويشبه آلة أكورديون تعزف نفس الإيقاع البطيء والرتيب.

رفعت فالنتين الجالسة بجانبه عينين مغرورقتين بالدموع نحو روكسان وقالت بصوت مرتعش:

– قابلت الطبيب، حالته لم تتحسّن. يعاني من ثقب في الرئة وعدّة كسور: في الجمجمة والأضلاع والفقرات.

سحبت روكسان كرسيًّا من الجانب الآخر للسرير وجلست بجانب الطالبة. بحثت عن كلمات لمواساتها، ولمّا لم تجد صيغةً مناسبة اختارت الانتقال إلى قضيّتها.

– أتعرفين ميلينا بيرغمان؟

– نعم، بالطبع، أجابت فالنتين وهي تجفّف دموعها. كانت صديقة رافاييل ابن مارك. ماتت في حادث تحطم الطائرة الشهير.

ابتلعت روكسان ريقها. حصرت رائحة المستشفى حلقها منذ اللحظة التي بلغت فيها الممرّات البيضاء: خليط فاتر من المطهرات والأدوية والأطعمة القذرة.

– لمَ تسألين عنها؟ استعلمت فالنتين.

– لأنّ الحمض النووي الذي سلّمتِه ليوهان مورس تطابق مع... ميلينا.

كادت فالنتين تقفز من كرسيها والدهشة باديةٌ على وجهها.

– هل أنتِ جادّة؟ كيف يكون هذا ممكنًا؟

– بالضبط: هذا ليس ممكنًا.

نظرت الشرطية إلى ساعتـ«ها» وتابعت:

– ميلينا، هل رأيتها شخصيًّا؟

– لا، توفّيت قبل أن أقابل مارك، لكنّه حدّثني عنها عدّة مرات بفخر. موتها دمّر رافاييل ولطالما عبّر مارك عن ارتياحه لإقامة ابنه معه لشدّة قلقه عليه من يأسه.

– والكاتب، أتعرفينه؟

– نعم، رجل رائع. لطيف، مرح، ذكي. ومثير أيضًا، ألا تعتقدين؟

قامت روكسان بحركة مبهمة.

– في الحقيقة ليس من النوع الذي يعجبني.

جعل مجرّد الحديث عن رافاييل باتاييه فالنتين تبتسم من جديد وتلألأت عيناها ببريق المعجبة المهووسة.

– إلى متى تعود تلك العلاقة الغرامية مع عازفة البيانو؟

فكّرت فالنتين لبعض الوقت.

– قبل عام من الحادثة على ما أظن. نُشرت مقالة عن علاقتهما في مجلّة ويك-أند الشهر الماضي، ما أزعج رافاييل كثيرًا إذ لم تكن هذه المعلومات قد نشرَت مطلقًا من قبل.

– من أفشى الخبر؟

– لا نعرف بالضّبط.

نهضت روكسان من مكانها. أحسّت بأنّها عاجزة عن التنفّس. لطالما أشعرتها المستشفيات بالاختناق. كانت تتخيّل الموت يجوب المكان بموكب من الأصوات المقلقة:صفير أجهزة المراقبة، رجّات العربات المعدنية، ضجيج المضخّات المطاطية على الأرضية المشمّعة القديمة، بالإضافة إلى الأشباح السخيفة التي تجوب المكان بستراتها الورقية باهتة الألوان. تابعت قائلة:

– هناك أمر لا أفهمه، أين هو ابن باتاييه؟ لمَ ليس موجودًا؟ حاولت الاتصال به في طريقي إلى هنا لكنّه لم يردّ.

– يجب ألّا يعرف ما حدث لوالده. غالبًا ما ينعزل عندما يكون في حالة كتابة، فيختفي لأسابيع عدّة دون أن يعرف أحد مكانه.

– سلوكيّات فنانين! تنهّدت الشرطية.

– هل قرأت كتاباته؟

هزّت روكسان رأسها.

– أقرأ فقط لكتّاب راحلين.

– قمّة التعجرف.

– نتعلّم الغربلة مع الوقت. هل قرأتها أنتِ؟

– معظمها. أحببتها كثيرًا. كلّها مهداة إلى أخته التي توفّيت في سنّ الرابعة.

استعادت روكسان ما قاله لها سوربييه.

– سمعت شيئًا عن هذه القصّة.

– أتعرفين أنّ مارك كان أسطورةً في عالم الشرطة ؟

– نعم، أعرف: التسعينيّات، فرقة مكافحة الجرائم في مارسيليا، السفّاح ومهرجان «البستاني».

رمقتها فالنتين بنظرة شرّيرة، كما لو كانت حارسة معبد أسطورة آل باتاييه.

– كان مارك متزوّجًا من راقصة باليه سابقة في فرقة «باليه مارسيليا الوطني». فقدا طفلتهما في ظروف غامضة.

– من أيّ نوع؟

– أمر مروّع حقًّا. (أشارت بإيماءة إلى الجسم المستلقي على السرير). لا أريد التحدّث أمامه. بعد الكارثة، انفصل الزوجان ونُقل باتاييه إلى باريس.

– عائلة مجانين.

– أنت بلا قلب.

– صحيح، لكنّي أرحّب حاليًا بتناول فنجانٍ من القهوة. وأرحّب بأن تحضرينه لي بنفسك، كما أرحّب جدًا بأن تكفّي عن مخاطبتي بشكل رسمي.

جاءت روكسان إلى هنا وفي رأسها مهمّة، وكانت تحتاج إلى أن تكون بمفردها لكي تقوم بها. نهضت فالنتين ذات الأخلاق الرفيعة، وبحثت في حقيبتها عن عملة لماكينة البيع الذاتي.

– كيف تشربين قهوتك؟

– سوداء دون سكر.

– كنت متأكّدة!

ما كادت الطالبة تنصرف حتّى اندفعت روكسان إلى الخزانة الوحيدة في الغرفة. وجدت في داخلها أغراض مارك باتاييه الشخصية: سروال جينز، حذاء، قميص، سترة برقبة مفتوحة، ساعة سيكو يوفو من موديل السبعينيّات باللونين الأسود والأحمر. رأت معطفًا جلديًّا متوسّط الطول معلقًا على شمّاعة، بداخله محفظة وهاتف آيفون لم يفرغ شحنه بعد، ومجموعة من المفاتيح دسّتها روكسان في جيب بنطالها الجينز.

– إذًا، هل نغيّر أكياس المرضى؟

انتفضت عند سماعها السؤال. كان ذلك طبيب الإنعاش، دخل إلى الغرفة على الأرجح للتحقّق من وصفة الدواء. كان ذا قامة نحيلة، وشعر أحمر متوهّج قصير، وعينين خضراوين صغيرتين ومستديرتين.

– أبحث عن المفاتيح لأجلب له بعض الملابس النظيفة، قالت مدافعةً عن نفسها.

– صحيح... بالنظر إلى الحالة التي هو فيها، أرى أنّه سيحتاج إلى بدلة كاملة في الأيام المقبلة.

– لن يبقى على هذه الحالة طيلة حياته، أليس كذلك؟

لم يراعِ الدكتور قواعد الأدب مطلقًا في ردّه.

– لقد تمزّق جسد رفيقك إربًا إربًا. حمله رجال الإنقاذ في حالة مزرية. ومع الإصابات والكسور، هناك احتمال كبير ألّا ينجو.

تحقّق من المؤشّرات الحيوية على جهاز المراقبة، ثمّ فحص تشبّع الأكسجين على مقياس التأكسج وعمد إلى حلّ القسطرات المتشابكة.

– سيحاول الجرّاحون إجراء عمليّة لإحدى الفقرات بعد ظهر اليوم، أبلغها الطبيب. لنرى كيف ستسير الأمور قبل أن نشرع في بناء قصور في الهواء.

فيما كان مغادرًا، التقى الرجل الأحمر، وعلى وجهه بسمةٌ ساديّة لناظرٍ مدرسيّ عجوز، بفالنتين العائدة من ماكينة القهوة. قالت الطالبة وهي تناول روكسان الفنجان:

– راودتني فكرة، ماذا لو كانت شقيقة ميلينا التوأم؟ قد يفسّر هذا احتمال تطابق الجينات، أليس كذلك؟

– لا، لا، انسي الأمر. فكرة التوأم هذه لا نراها سوى في القصص البوليسية. وليس في الجيّدة منها حتى.

– مع ذلك، يمكنك إجراء بعض الاتّصالات لاستبعاد الفرضيّة، ردّت الطالبة مستاءةً.

– الأفضل أن تُبقي تركيزك على فنّاني الوشم. صحيح أنّ هذا أكثر عناءً، لكنّه أكثر فائدةً.

– تواصلت مع بعضهم، لكن دون جدوى. تيجان اللبلاب ليست شائعة جدًّا. يميل الناس أكثر إلى أكاليل الغار التي ترمز إلى النصر. كما أنّ أحدًا لم يسمع عن فرو غزال أو ظبي، ولا حتّى عن رؤوس الأيّل التي تجسّد السيادة أو الولادة الجديدة.

– استمرّي في التنقيب، حثّتها روكسان وهي تفتح الباب. من جهتي، سأحاول العثور على رافاييل باتاييه.

.3

توغّلت سيارة الأجرة في الزحمة الخانقة لشارع فوجيرار. صبّ السائق غضبه على «مسارات درّاجات جماعة البوبو[3] التافهة»، و«المحافظين على البيئة الأوغاد»، لاعنًا عمدة باريس التي، على حدّ قوله، «حوّلت

[3] أي طبقة البورجوازيين البوهيميين في المجتمع الأوروبي.

مدينة النور إلى مدينة قمامة». كانت الانتخابات البلديّة قد انتهت لكنّ السائق ما زال في خضمّ حملته.

– أتعرفين متلازمة باريس؟ سأل روكسان وهو يلقي نظرةً عليها من المرآة الأمامية.

ودون انتظار الإجابة، أسهب في فلسفته:

– هي بمثابة صدمةٍ نفسيّة حادّة تصيب بعض السّياح الأجانب خلال زيارتهم للمدينة. بعناهم أميلي بولان[4]، وإميلي في باريس[5] وسحر مونمارتر، فاصطدموا بالمترو، وبورت دو لا شابيل، وتلة الكراك ومباول الهواء الطلق للأمّ هيدالغو.

لم تستطع روكسان كبح ابتسامتها. وضعت سمّاعتيها في أذنيها وشغّلت على هاتفها أحدث تسجيل أصدرته شركة تسجيلات ميلينا بيرغمان. تحت عنوان ذا لاست ريكوردينغ، عرض الألبوم تسجيل الحفل الموسيقي الذي أدّته بيرغمان في تياترو كولون في بوينس آيرس برفقة الأوركسترا الفيلهارمونية. بعد الحفل بيومين، لقيت عازفة البيانو حتفها في أحد أفظع حوادث الطيران المدني الفرنسي.

كانت روكسان قد حمّلت عددًا من المقالات من صحف مختلفة لتنشيط ذاكرتها وأهلكت عينيها على شاشة الآيفون الصغيرة في محاولةٍ لحفظ أكبر قدر ممكن من التفاصيل.

تحطّمت طائرة الخطوط الجويّة الفرنسية رقم 229 في البحر في 8 نوفمبر 2019، ممّا أسفر عن مقتل جميع الركاب المائة والثمانية والسبعين الذين كانوا على متنها، بمن فيهم عشرة من أفراد الطاقم.

4 فيلم فرنسي شهير يصوّر الحياة المعاصرة في باريس.

5 مسلسل أمريكي على نتفليكس يستعرض الحياة في باريس بصورة مبهجة.

لا تزال الإجراءات القانونية جارية لأنّه لم تمرّ فترة طويلة على الحادثة. في فرنسا، انطلق تحقيقان رئيسيان: أحدهما «قضائي» للقتل غير المتعمَّد، والآخر «تقني» بإشراف مكتب التحقيق والتحليل لسلامة الطيران المدني.

إلى جانب التقارير وتقييمات الخبراء، برز إجماع عامّ على عدة حقائق: رُصدت الطائرة لحظة اختفائها في بقعة فوق المحيط بين تينيريفي وماديرا، بعد أن كانت قد أقلعت من بوينس آيرس في وقت مبكر بعد الظهر، وكان هبوطها متوقعًا في باريس حوالي الساعة السابعة صباحًا. كانت الرحلة معقّدة: لم تنفكّ المطبّات الهوائية تزداد على طول مسار الرحلة نتيجة الطقس الرّديء والعواصف المتكررة. اختارت معظم الطائرات التي كان من المقرر تحليقها فوق المنطقة التي وقع فيها الحادث في ذلك اليوم تجنّب العاصفة والالتفاف حولها، فيما لم يتّخذ قبطان الرحلة 229 القرار نفسه.

بعد الفرضيات الأوليّة الجنونية – هجوم إرهابي من تنفيذ قراصنة الجوّ، ضربة صاعقة محتملة على الطائرة تسبّبت في انقطاع كامل للكهرباء، تحكّم بالطائرة عن بعد – قدّمت التقارير المؤقتة لمكتب التحقيق والتحليل توضيحات أكثر عقلانية لتحطّم الطائرة. ساهم مرور العاصفة على علوّ مرتفع في تكوين البلّورات الجليدية على الأنابيب، والتجلّد الشديد على أجهزة القياس ممّا أدّى إلى اضطراب مؤقّت في مؤشرات السرعة المعروضة في قمرة القيادة وفصل الطيار الآلي.

تحدّثت التقارير الخجولة عن «ردود فعل غير ملائمة للطيّارين» أدّت إلى فقدان السيطرة على الطائرة وخروجها عن مسارها. في الواقع، تبيّن أنّ الرجال قد أغفلوا الكارثة تمامًا. اقشعرّت الأبدان لتسجيلات الصندوق الأسود التي أظهرت ذعرًا جماعيًّا

وانعدامًا تامًّا للسيطرة. كان واضحًا أنّ الطيّارين لم يفهموا للحظة ما كان يحدث.

هجمت بعض الصحف – مخلصةً لتركيبتها، وملتفّةً بغطاء الفضيلة النقيّ – على محاكمة أعضاء طاقم الطائرة فأجرت تحقيقًا واسع النطاق، منقّبةً في كلّ ركن من أركان حياتهم الخاصة لكشف «أكوام أسرارهم الصغيرة البائسة». هكذا، وبحجّة التحقيق، مرّ كلّ شيء: خيانة، طلاق، علاج نفسي، تعاطي حبوب منوّمة، الهوس بالحفلات، ارتياد حانات الدعارة في منطقة ريكوليتا. وُجد لكلّ شخص ذنب. وبقدر ما كانت تلك الممارسات بغيضةً، كانت الحقيقة حاضرةً: لم يتمكّن أيّ من الطيّارين الثلاثة من التحكّم في انهيار الطائرة وتركوها تسقط حتّى اصطدامها.

أفادت الصفحات الأخيرة من التقرير، وفي ذلك بعض العزاء نوعًا ما، بأنّ غالبية الركاب لم يعلموا بالحالة الطارئة للطائرة. كان الظلام قد حلّ، والنوافذ مغلقة، ومعظم أحزمة الأمان غير مربوطة.

حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة. لم تكن قد مضت ثلاث دقائق على فقدان السيطرة حين اصطدمت الطائرة بسطح الماء بأقصى سرعة. قضى الركاب نحبهم على الفور. غرق حطام الطائرة، لكن في منطقة ضحلة إلى حدّ ما، الأمر الذي ساعد في العثور على الصناديق السوداء، التي كانت لا تزال تبثّ إشارة الموجات فوق الصوتية، ممّا سمح بتحديد مكانها. في غضون أشهر، رُفع جزء كبير من حطام الطائرة. ومن بين الضحايا الـ178، انتُشلت 121 جثّةً وتمّ التعرّف عليها وتسليمها إلى عائلاتها.

كانت ميلينا بيرغمان من بينها.

5

في البيت الزجاجي

إنّ استحسان الآخرين لنا دافع يُفَضّل الحذر منه أحيانًا.

بول سيزان

.1

شارع داساس، كان من السهل تجاوز مدخل منزل باتاييه دون الانتباه إليه. لبلوغه، كان يجب أوّلًا عبور بوابّة صغيرة حديدية تفضي إلى ممرّ ضيّق. كان المسار يمتدّ لحوالي عشرين مترًا بمحاذاة الحديقة النباتية لكليّة الصيدلة قبل أن يقود إلى فناء أخضر لمجمّع سكني. زُرع المكان بالأشجار والنباتات فبثّ إحساسًا ريفيًّا نادرًا ما نلمسه في باريس. استحضرت روكسان حديقة جدّتها فور رؤيتها لسياج نبات الدّفلى، وشجرتَي زيزفون كبيرتين فضيّتين، وشجرة قيقب، وشجرة جنكو بيلوبا من الغريب وجودها في المكان تعرّت من أوراقها الجميلة التوبازية. أخيرًا، خلف ستارة عالية من أشجار الدلب المجزوزة، تراءى أمامها البيت الزجاجي برمّته.

لقد صدق الساعاتي. كان البيتُ الزجاجي عبارةً عن مبنى كبير شبه شفّاف متوازي السطوح ومزروعٍ على عمارة صغيرة من ثلاث طوابق واجهاتها مكسوّةٌ بقرميدٍ أصفر قاتم. قرأت روكسان وهي في سيارة الأجرة أنّ المبنى شيّده في الأصل مهندس معماري أميركي مقيم في باريس، اسمه ويليام غلاس، وهو الاسم الذي يتردّد صداه بشكل خاص في إنجازاته. كان غلاس في الواقع مُنظِّرًا مهووسًا بالبناء الشفّاف، في رصيده بعض المشاريع الشهيرة: المسرح الزجاجي في كوبنهاغن، مدرسة الهندسة المعمارية في بلباو، المقرّ الرئيسي لشركة غرين كروس في نيويورك...

قامت روكسان بجولة حول المبنى. لا أثر للحياة هنا. كانت نقطة القوّة للمنزل تكمن في بساطته ونقاوة خطوطه. حلمٌ معماري لعشاق البساطة والمينيمالية. أُقيم هيكل بسيط من الفولاذ الرمادي غير اللامع دعامةً لصفّ من النوافذ التي حلّت محلّ الجدران. كانت رؤية المساحة الداخلية من الحديقة محدودةً فيما تلاعبت على الزجاج انعكاسات السماء، والشمس، ومسار السحب، وأشكال الأغصان وزينة الأشجار، في حركة متواصلة منوّمة.

دنت روكسان من لوح الزجاج المغشّى الذي استعمل كباب أمامي ثمّ سمعت طقطقةً وفوجئت برؤية اللوح يستدير. كان أحد المفاتيح التي جلبتها من المستشفى يعمل كمفتاح عبور إلكترونيّ تلقائيّ للمداخل عند الاقتراب منها.

عبرت العتبة لتجد نفسها داخل ما يشبه شقّةً مفتوحةً. لم تشهد مثل هذه الهندسة في حياتها. كانت الفواصل معدومة. رسمت المفروشات المنخفضة والطويلة المصنوعة من الخشب الخام حدود المكان. وفي أيّ نقطة تقف، تخترق نظراتك الغرفة من جانب إلى آخر. مفهوم شقة بـ360 درجة، استنتجت وهي تسير على أرض

من الطوب الأحمر المعتّق المصفوف في نمط متعرّج، تمامًا كأرضية خشبية حقيقية متعرّجة بلون التيراكوتا.

ما الذي أتى بها إلى هنا؟ هي نفسها لم تعرف. أرادت فقط أن تعاين المكان، فهو غالبًا ما يعكس شخصية من يعيشون فيه. حاليًا، أصبحت عائلة باتاييه تهمّها بقدر ما تهمّها ميلينا بيرغمان. أرادت التشبّث بهذه القضيّة لأطول فترة ممكنة. لقد كانت بمثابة قارب نجاة غير متوقّع. اعتقد سوربييه وبوتساريس والآخرون أنّهم استبعدوها، لكنّ القدر – ذاك القدر اللعين الذي ثبّط عزيمتها في كثير من الأحيان – قذفها للتوّ إلى مضمار قضية غير عادية، مشوّقة بقدر ما كانت غامضةً.

سارت على خطى عائلة باتاييه متنقّلةً في البيت كما لو كانت في دارها. ذكّرها المكان بدايةً بمتحف خاصّ صغير. كان للكاتب ذوق جيّد كوالده. أضفت الأعمال الفنية – المنحوتات واللوحات – على المكان جوًّا من الرقيّ والقلق في الوقت عينه. تعرّفت على تمثال ضخم نموذجيّ للنحات برنار فينيت: دوائرُ ملتوية من الفولاذ المعتّق بدت وكأنّها تلتفّ إلى ما لا نهاية. مينوتور[1] عملاق من الحديد الشّبكي المتآكل، إضافة إلى مطبوعة حجرية كبيرة لهانس هارتونغ تتأرجح بين التظليل والدوّامات ويغلب عليها اللون الأزرق الليلي.

لكنّ أكثر الأعمال الفنيّة روعة كانت بلا منازع الإطلالة على الخارج. انفتاحٌ على الطبيعة يبعث انطباعًا بأنّ الأشجار والنباتات جزء من المنزل، ما دفع روكسان إلى طرح سؤال على نفسها: لمَ لا يكتب الروائي في هذا المكان الساحر؟

[1] في الميثولوجيا الإغريقية، مخلوق نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.

في كلّ مكان، على الجدران وفي المكتبة، وُضعت صور تجمع عازفة البيانو والكاتب. ميلينا ورافاييل في نيويورك، ميلينا ورافاييل على منحدرات كورشوفيل، ميلينا ورافاييل في الريفييرا الفرنسية، إلخ. بشعرٍ متطاير في الهواء وابتسامة على شفتيهما، كانا يستعرضان حبّهما. سعادة قد تكون مبالغةً أو متكلّفةً بعض الشيء. سعادة نستعرضها أمام الآخرين أكثر ممّا نعيشها. لا، عليها أن تعترف، تقول ذلك لأنّها شعرت بالحسد. خجلت روكسان من الرداءة التي وقعت فيها، ممتعضة من أنّها لم تعش سوى قصص الحبّ الفاشلة. الحقيقة أنّ ميلينا بيرغمان كانت تتمتّع بجمال نادر. في أيّ لقطة، كانت شُقرتها تتوّجها بهالة من غبار النجوم فيما ينبثق من شخصها نوع من الكآبة الأثيرية والكياسة البالغة. الحقيقة أنّ روكسان شعرت بالغيرة بكل بساطة، وأقرّت بذلك في ذهنها قبل أن يغمرها على الأثر الأسى تجاه عازفة البيانو ومصيرها المشؤوم.

كانت الغرفة متجمّدة. من المحتمل أنّ نظام التدفئة قد وُضع تحت الأرض، لأهداف جماليّة على الأرجح، إذ لم تلمح في المكان أيّ سخّان. تدفّقت على امتداد جدار حجري منخفض مواقد مدفأة تعمل بالغاز. ما إن ضغطت روكسان على مفتاح التشغيل حتّى بدأت ألسنة اللهب البرتقالية الطويلة تتراقص على قاعدة من الحصى الأبيض.

لم تستطع مقاومة نار المدفأة فبقيت بجانبها. وجدت على إحدى الكنبتين اللتين كانتا تحيطان بالمدفأة – تحت سترة قديمة من الصوف المحبوك – نسخة مجلّة ويك-أند التي أخبرتها عنها فالنتين. هدفت المطبوعة التي تتنوّع مواضيعها بين أخبار المجتمع واللايف ستايل إلى أن تكون من النخبة، في مكانة بين فانيتي فير وإم لو ماغازين دو موند. كانت المجلة مفتوحةً على صفحة المقال

الذي كشف، بعد مرور عام على تحطّم طائرة بوينس آيرس – باريس، العلاقة بين ميلينا ورافاييل.

قرّرت روكسان لعب الدّور مستدعيةً حضور رافاييل باتاييه، فارتدت السترة الصوفيّة التي انبعث منها عطر خفيف، مزيج من اليود والبرتقال المرّ. ارتمت على الكنبة ثمّ بدأت بقراءة المقال مسترجعةً لحظات من المتعة لم تكن تسمح لنفسها بها عادة حتّى في صالونات تصفيف الشعر.

فهمت غضب رافاييل من المقال الذي فتح جرحه، وحوّل نكبةً خاصّةً وحميمة إلى كمّ من القيل والقال. فهمت كذلك سبب الإعجاب المتبادَل بين رافاييل باتاييه وميلينا بيرغمان: فنّانان مشهوران، لكن حذران، يكسبان عيشهما من ممارسة فنّهما على الهامش بعيدًا عن أنظار المجتمع الفنّي. لم تكن ميلينا محبوبةً بقدر النجوم الآخرين من جيلها، هيلين غريمو، أو كاتيا بوناتيشفيلي، أو يوجا وانغ، ولم تسعَ يومًا إلى أن تكون كذلك. كانت تكرّر بلا كلل أنّ شغفها بالبيانو لم يشكّل أبدًا جوهر حياتها.

أثارت قراءة المقالة سؤالين على الفور. ما الهدف من نشر المقال الآن بالذات؟ ومن الذي قدّم المعلومات للصحفي – شخص يُدعى كورنتين لولييفر – عبر تيسير وصوله إلى صور خاصة وعدد من الحكايات السريّة؟ خطرت لها فكرة فنقرت على هاتفها واستطاعت، من خلال الاتّصال بمكاتب المجلة، الوصول إلى لولييفر وبدء الحوار. لم يكن الصحفي لطيفًا البتّة والتزم كلّ الحذر. ظنّ نفسه بوب وودوارد[2]. حتّى إنّه أوقفها عند حدّها وحاضرها حول سريّة المصادر قبل أن يغلق الهاتف في وجهها.

[2] بوب وودوارد هو محقق صحفي أمريكي شهير.

أخذت روكسان نفسًا عميقًا محاولةً الحفاظ على هدوئها، واعدةً نفسها بأن تحقّق مرادها لاحقًا بطريقة أخرى. استفادت من الهاتف بين يديها للاتّصال بالروائي مرّة أخرى. مفاجأةٌ. سمعت رنينًا خفيًّا في الغرفة. بحثت الشرطية عن مصدر الصوت لتكتشف وجود جهاز الآيفون الخاص برافاييل في درج مكتب من خشب الجوز، بجوار جواز سفره ومفاتيح سيّارته ودفتر الشيكات والبطاقة الممغنطة لموقف السيارات في أندريه-هونورا. حاولت تحسّبًا تنشيط الهاتف إلّا أنّه انطفأ. كان شحن البطارية قد نفد.

من الغريب أن يكون باتاييه قد ذهب من دون هاتفه.

2.

عادت روكسان، وهي لا تزال متلحّفة بالسترة الصوفية، لتستلقي على الكنبة بالقرب من المدفأة. أغمضت عينيها وراحت تستعرض في رأسها صور تحطّم الطائرة. رعبٌ، صياح، إدراكٌ مفاجئ للموت الوشيك. عليها الرجوع إلى نقطة البداية: التعرّف إلى جثة ميلينا. هي الوسيلة الوحيدة للتأكّد. فكّرت لعدة دقائق في أفضل طريقة للمضيِّ قُدمًا. رأت نفسها ضائعةً في متاهات دوائر الشرطة. بلغ الأمر مستوى من التعقيد المعوّق وغير المثمر. كان أبسطُ بحث عن المعلومات يصطدم ببيروقراطيّة كافكيّة[3] وتنافس على الخدمات، فضلًا عن الجمود الإداري الفرنسي.

رفضت الاستسلام للشعور بالإحباط وأعدّت في ذهنها قائمةً بأسماء معارفها في معهد البحوث الجنائية التابع لقوّات الدرك

[3] نسبة إلى الكاتب التشيكي فرانز كافكا الذي اشتهر بكتابات ونصوص أدبية يغلب عليها الطابع السوداوي التشاؤمي.

الوطنية. اختارت أخيرًا الانطلاق من برتراند باسورون – المعروف بـ«نوغارو» لنشأته في تولوز – وهو أحد المحنّكين القدامى في وحدة التحقيقات الجنائية الوطنية. لم تكن واثقةً من قدرته على تزويدها شخصيًّا بالمعلومات، غير أنّه قد يكون الوسيط مع وحدة أخرى. الأهمّ أنّ باسورون كان يكنّ لها بعض التقدير منذ أن عملا معًا لفترة وجيزة على إحدى تداعيات قضية دوبون دو ليغونس، أحد أكبر إخفاقات الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين.

– أهلًا روكسان! رحّب بها بنبرة غنائية.

عمل باسورون دومًا في باريس وكان سيُحال على التقاعد بعد بضعة أشهر، لكنّه احتفظ بلهجة قويّة من الجنوب الغربي.

أوضحت له أنّها كانت تبحث عن معلومات تتعلّق بعمليّة التعرّف على جثث ضحايا طائرة بوينس آيرس – باريس.

– أوه، هذا من اختصاص الـU2L.

توقّعت روكسان هذه الإجابة. كانت «وحدة التحقيق وتحديد هويّة الأفراد» قد أُنشئت قبل ثلاثين عامًا تقريبًا، إبّان الحادث الذي وقع في مونت سانت أوديل. هم الرّجال نفسهم الذين يُرسَلون إلى كلّ كارثة – حادث طيران، حادث مروري كبير، هجوم في الخارج – تشمل ضحايا من الجنسية الفرنسية.

– هل تعرف من يمكن أن يزوّدني بمعلومات عن هويّة جثة محدّدة؟

– سأرى. ما الذي تبحثين عنه بالضبط؟

– التحقّق من نقطتين أو ثلاث.

– سأحاول أن أجد أحدًا، امنحيني بعض الوقت، وعدها نوغارو.

أنهت روكسان المكالمة وهي تفكّر بأنّ الحيلة لن تدوم طويلًا. تمكّنت في الساعات الأخيرة من نيل مساعدة كلّ من لجأت إليه ظنًّا

منهم أنّهم يتعاونون مع الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين. لكن عاجلًا أم آجلًا، سوف تنتشر أخبار إقصائها. حتّى ذلك الوقت، لديها بضعة أيّام من الحريّة لاستئناف التحقيق في قضيّتها دون أوراق وقيود. وكانت عازمةً على استغلال الفرصة.

اقتلعتها موجة من الرسائل النصيّة من تأمّلاتها. فالنتين. هاتفت الطالبة شركة التسجيلات الألمانية دوتش غراموفون ثم وكيل أعمال ميلينا. لم يكن لعازفة البيانو أخ أو أخت توأم، تمامًا كما افترضت روكسان. كان والدها قد مات منذ فترة طويلة ثمّ تزوّجت والدتها من مدرّس متقاعد وانتقلت للعيش معه في درسدن.

– اتّصلي بدار النشر التي يتعامل معها رافاييل باتاييه لنرى ما إذا كانوا يعرفون مكانه، طلبت روكسان من الطالبة.

ثمّ أغمضت عينيها واستغلّت دفء وصمت الغرفة لمتابعة تأمّلاتها. لقد كانت محقّة في الاندفاع في هذه القضية. مع ذلك، وجدت أنّها تفتقر إلى الموضوعية لفهم الظواهر والبواطن فيها. كان السياق غنيًا، لكن بغياب فريق لمساعدتها في القضيّة، لم تستطع تحمّل ترف التوسّع في نشاطاتها. كان عليها، من أجل المضيّ قدمًا، إعادة التركيز على هدفيها الأساسيّين: تحديد الفتاة والعثور عليها.

– ما الذي تفعلينه هنا؟

انتفضت من مكانها.

فتحت عينيها وعدّلت من جلستها. رأت امرأةً واقفةً أمامها تحمل دلوًا وممسحة تعمل على البخار. بدت في الأربعينيّات من عمرها، ممتلئة الجسم، ترتدي سروالًا بحمّالات مع قميص أصفر. شعرها ملوّن ببيروكسيد الهيدروجين وعيناها محجوبتان بنظّارتين بيضاويّتي الشكل وبعدسات سميكة.

– أنا من الشرطة، سيدتي. قالت وهي تُخرج بطاقتها.

– وهـذا يعطيك الحقّ في الاسترخاء على هـذا الكرسي؟ من سمح لكِ بالدخول؟

– التحقيق الذي أقوم به.

– أمعكِ إنابةٌ قضائية؟

لـم تكن الـمرأة متساهلةً أبـدًا. حـاولـت روكسـان أن تقلب موازين القوى.

– وأنتِ، من أنتِ؟

– جوزيفا ميغليتي، حارسة المنزل. آتي لتنظيف البيت كلّ يوم ثلاثاء. أجابت ثمّ فتحت باب الخزانة المصنوعة من خشب الجوز والتي كانت تحوي لوازم التنظيف.

– أبحث عن رافاييل باتاييه لكي أخبره أنّ والده تعرّض لحادث مؤسف صباح أمس.

– حقًّا؟ سألت جوزيفا.

بدت متأثّرةً بالفعل.

– أتعرفين أين يكون؟

– لم أره منذ خمسة عشر يومًا على الأقلّ.

أشارت روكسان إلى المقالة في المجلّة.

– وهي، أتعرفينها؟

– عازفة البيانو؟ ميلان أو ما شابه؟

– نعم، أرأيتِها في الجوار مؤخّرًا؟

– مـؤخّـرًا؟ مـرّ عـام عـلـى وفـاتـهـا! مـن الـواضـح أنّ لا علم لحضرتك بذلك!

– أو شبيهتها؟ اقترحت روكسان.

هزّت الحارسة رأسها.

– المرّة الوحيدة التي كلّمتها فيها كانت منذ أكثر من عام. كانت قد جاءت إلى هنا لبضعة أيّام.

– متى كان ذلك بالضبط؟

– لا أذكر. في الصيف ربّما. في الفترة التي اعتقدنا فيها أنّ السيد مارك سيموت بسرطان الرّئة.

– هل لاحظتِ أيّ أمر غريب في المجمّع السكني في اليومين الأخيرين؟ ألحّت روكسان.

– غيركِ؟

– طبعًا غيري!

مكتبة
t.me/soramnqraa

حكّت جوزيفا رأسها.

– حاول أحد الصحفيّين استجوابي مرّتين الأسبوع الماضي.

– جاء إلى هنا؟

أومأت الحارسة برأسها.

– قال إنّ اسمه كونستانتين لولييفر، أو شيئًا من هذا القبيل.

– ما الذي أراد معرفته؟

– في الحقيقة، ما أردتِ معرفته أيضًا. سألني عن عازفة البيانو.

أخرجت روكسان هاتفها الذي كان يهزّ في جيبها. رسالة جديدة من فالنتين: تدّعي محرّرة رافاييل باتاييه أنّه في لندن لكنّها لا تعرف مكان إقامته.

– هيّا، تحرّكي، لديّ عمل! أمرت جوزيفا روكسان متظاهرةً بدفعها بمقبض ممسحتها.

سمعت الشرطية الكلام فورًا. لم يكن باتييه في لندن. منذ انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي، وجب الحصول على جواز سفر للذهاب إلى إنكلترا، والجواز الخاصّ بالكاتب كان في مكتبه.

كان كلام تلك المحرّرة هراءً وسوف تقوم بزيارة سريعة لها. لقد حان الوقت لاقتحام جحر النمل ذاك بكاذبيه المهووسين وزعزعته.

3.

سحبت روكسان كمّي سترتها، محاولةً بلا جدوى حماية يديها من درجات الحرارة المنخفضة. وسّعت خطواتها قدر إمكانها ونفخت على أصابعها لتدفئتها فيما تدحرجت دموعٌ على خدّيها بفعل البرد.

لم يكن رافاييل باتاييه يحتاج، لحسن حظّه، عبور باريس بأكملها للوصول إلى محرّرته. إضافة إلى أنّ النزهة كانت لطيفةً نوعًا ما: حديقة الإكسبلوراتور، جادة الأوبسرفاتوار، بولفار مونبارناس. وأخيرًا، شارع كومبان-بروميير الضيّق. أحد شوارع العاصمة المفضّلة لدى روكسان. توغّلت فيه بنفس اندفاع الشمس والهواء. هنا أيضًا، لم يسلم الحيّ من الأشغال ولم يتجمّل الشارع البتّة منذ أن عبرته آخر مرّة. بات يرتفع الآن، وسط واجهاته العتيقة والملوّنة، مشروع عقاريّ باهت ورمادي تغلّفه شبكة حديدية.

القباحة هي الغالبة دائمًا...

هذا أحد قوانين العصر الثابتة مع الأسف. وهي تتقدم في الشارع الرئيسي، شعرت بالذكريات تخترق ذهنها. بات هذا يتكرّر جدًّا في الفترة الأخيرة. كانت باقةٌ من الذكريات، دون سابق إنذار، ومثل هبّة ساخنة مفاجئة، تعصف بها، على حين غِرّة، وتستولي عليها بإحكام شيطانيّ. رأت فجأة نفسها هنا، في نفس الشارع، ذات مساء من حزيران 1997، تحتفل بنهاية امتحانات البكالوريا مع صديقاتها، سعيدة بفرصة التحاقها بالسنة التحضيرية في مدرسة لويس الكبير مع بداية العام الدراسي المقبل.

كان يوم عيد الموسيقى والجوّ حارًّا. وكان يسار جوسبان قد فاز حديثًا في الانتخابات. راحت شلّة من الشباب تؤدّي أغنية سؤبر نوفا الشمبانيا أمام فندق إيستريا. بدت لها الحياة آنذاك غنيّةً للغاية، حافلةً بالآمال والفرص. أمّا اليوم فقد باتت حياتها عبارة عن جدار، ومجموعة مشاكل تحتاج إلى حلّ، وسلسلة ضربات عليها صدّها دون القدرة على ردّ أيٍّ منها. لقد ألغت كلّ احتمال لتحسين الذات أو تطويرها. كانت على يقين بألّا حول لها، وعلى دراية بأنّ العالم قد تغيّر فعلًا وبأنّها لن تجد مكانًا لها فيه بعد الآن.

وصلت إلى الرقم 13، مبنى من ثلاثة طوابق من الحجر الوردي، عنوان دار النشر فانتين دو فيلات. قرعت الجرس لتدخل قاعةً معتمةً وضيّقةً تفضي إلى فناء مرصوف. في الوسط، تمركزت نافورة غطّاها اللبلاب وطوّقتها مجموعة مشاغل للفنّانين حُوّلت إلى مساكن. كان أكبرها دار النشر: بناء يشبه الدفيئة بسقفه الزجاجيّ المطلّ على المكاتب.

– أودّ التحدّث إلى فانتين دو فيلات.

– بدون موعد، هذا ليس ممكنًا.

جاوبتها الشابّة عند المدخل بنبرة متعالية أزعجتها. سحبت روكسان بطاقتها وصفعتها بقوّة على المنضدة الزجاجية.

– إنّها الشرطة، عزيزتي. لذا انهضي عن هذا الكرسي واذهبي...

– أنا فانتين دو فيلات، أعلن صوت من خلفها.

ظهرت المحرّرة في شعاع الشمس. بدت المرأة الستينيّة في كامل أناقتها وهي متدثّرة بشالٍ ملوّن. كان شعرها الأشقر الرّمادي مشبوكًا في كعكة مجدولة راقية جعلتها أشبه ببطلةٍ من العصور الوسطى.

– النقيب مونكريستيين من الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين. أبحث عن رافاييل باتاييه في إطار تحقيق أقوم به.

– وكيف يمكنني مساعدتك؟

– بإخباري بمكانه، مثلًا.

أوثقت فانتين وشاحها المربّع الحريريّ حول كتفيها.

– رافا في لندن. في فندق ربّما أو منزل مستأجر، لكن ليس لديّ أدنى فكرة عن العنوان ولا أملك وسيلةً لمعرفة ذلك.

توقّعت روكسان هذه الإجابة. لوّحت بوثيقة الهوية التي عثرت عليها في المنزل.

– لقد ترك جواز سفره في المنزل، إذًا هو ليس في لندن، وأنت تعبثين معي، وستثيرين غضبي.

ردّت فانتين دو فيلات بابتسامة هادئة وبنظرةٍ بلّورية تعبيرًا عن عدم تأثّرها.

– تعرّض والده لحادث مؤسف، أعلنت روكسان.

– لا أستطيع أن أخبرك أيّ شيء، حقًّا. لقد قمنا باتفاقيّة ثقة. يرغب رافا في البقاء بمفرده عندما يكتب. تعرفين كيف يصف توماس مان الكاتب: «هو الشخص الذي تكون الكتابة بالنسبة إليه أكثر صعوبة ممّا تبدو عليه للآخرين».

بدّلت روكسان التكتيك.

– تعرفين عازفة البيانو ميلينا بيرغمان.

– أممم... بالاسم، وليس شخصيًّا. أجابت المحرّرة ببعض العبوس.

– لكنّها كانت حبيبة «رافا» خاصتك. ألم يعرّفك إليها قطّ؟

– كلا، لم يحدّثني عنها أبدًا.

– غريب، أليس كذلك؟

– كلا. يكلّمني رافاييل عن شخصيّاته. بالنسبة إلى الروائيين أمثاله، الكتب أهمّ من الحياة.

كانت فانتين دو فيلات نقيض نوغارو: لها لكنة شماليّة حادة تجعلها تحذف بعض الأحرف وتعدّل أسلوب لفظ بعض الأصوات.

– نعم، في النهاية، ليست سوى كلمات، علّقت روكسان.

– نعم، إنّها كلمات، سيّدتي، ولا تستخفّي بقوّتها.

تنهّدت روكسان. كم أنّ هؤلاء الناس متفاخرون.

تابعت فانتين:

– الكتابة وسيلة هروب للعديد من الفنانين، هي معجزة الخيال، تقتلعكِ بشكل مؤقّت من الواقع. لكن لا نيّة لي بمناقشة ذلك معك.

كانت فيلات قاسية وصلفة. والأسوأ أنّها كانت تؤمن فعلًا بهذا الهراء.

– أظّن أنّك لا تدركين أهميّة الوضع. مارك باتاييه في المستشفى يتأرجح بين الحياة والموت. ما الذي يبرّر حرمانك لابنه من هذه المعلومة؟

– أنتِ تضعينني في موقف محرج.

– لا، بل أقترح عليك الخروج منه. صدّقيني، إذا توفّي والد رافاييل دون أن يكون قد علم بوجوده في المستشفى، فلن ينشر أيّ كتاب آخر معك بعد الآن.

هذه المرّة، أتى الجدال ثماره. صمتت المحرّرة برهةً قبل أن تفشي ما لديها.

– رافاييل في عيادة للأمراض النفسية، قالت وهي تخفض صوتها.

منذ البداية، توقّعت روكسان أمرًا غريبًا ولم يخب ظنّها.

– وإلى أين تمّ إدخاله؟

– لم يُدخل. يمكث هناك طوعًا.

– أتظنّين أنّني حمقاء؟

– هي عيادة فيتسجيرالد في كاب أنتيب. هناك اعتاد رافا الكتابة على مدار السنوات القليلة الماضية.

– لماذا؟

– لأنّه يحبّ المكان، والبيئة، ومجاورته للمرض العقليّ، والدّوار الذي يولّده فيه فيغذّي كتاباته ويحفّزها.

– تعملين مع مجانين حقًّا.

– لا يمكنك أن تفهمي.

– لا، بالطبع. نحن في سلك الشرطة أغبياء جدًّا...

تركت روكسان فانتين دو فيلات وخرجت إلى الفناء. جلست على مقعد حجريّ أبيض بجوار النافورة وفتحت محرّك البحث في هاتفها ثمّ دخلت إلى موقع الخطوط الجويّة الفرنسية. في هذا الوقت من النهار، تنطلق الرحلات من أورلي إلى نيس كلّ ساعة. إن أسرعت، قد تتمكّن من اللّحاق برحلة الساعة الثانية والربع بعد الظهر. لقد وصلت بقضيّتها إلى مفترق طرق وأصبحت مقتنعةً الآن أنّ عثورها على ميلينا بيرغمان يرتبط برافاييل باتاييه. وكانت مصمّمةً فعلًا على الذهاب للبحث عنه.

6

كاتب في مصحّة المجانين

المجنون والكاتب شخصان يريان الهاوية ويسقطان فيها.

أونوريه دي بلزاك

.1

«سيّداتي، سادتي، نحن على وشك الاستعداد للهبوط. الرجاء العودة إلى مقاعدكم وربط حزام الأمان، والتأكّد من وضع حقيبة اليد أسفل المقعد أمامكم أو في مقصورات الأمتعة. يرجى إبقاء الأبواب والمخارج سالكة. الطقس في نيس صافٍ ودرجة الحرارة 16».

لم تتمكّن روكسان من الاستيقاظ وبقيت جبهتها ملتصقة بالنافذة. على الرغم من التشويق الذي بات يرافق القضيّة، أعياها التعب منذ لحظة الإقلاع ونامت طوال الرحلة. كان ظهرها يؤلمها وصداع نصفيّ يقرع في جمجمتها. بدأت ملابسها، التي لم تغيّرها منذ اليوم السابق، تضايقها. كانت رائحة العرق تفوح منها وشعرت بأنّها عبارة عن ملاءات قديمة رطبة ومجعّدة.

لم تستطع الصبر حتّى الهبوط ففتحت هاتفها لتكتشف رسالةً من المقدّم نجيب مسعودي من وحدة الدرك لتحديد هوية ضحايا الكوارث يدعوها فيها إلى الاتّصال به. لقد وفى نوغارو بوعده وأدّى دور الوسيط. كانت هذه المعلومات كافيةً لترسم بسمةً على وجهها. كادت من شدّة حماسها أن تتّصل بالدركي فورًا لكنّها قاومت رغبتها إذ لم يكن التدافع الناجم عن الهبوط مواتيًا لإجراء محادثة هادئة.

تـردّدت حال وصولها إلى المحطة في استئجار سيارة لكنّها عـادت ولجأت إلى سيّارة أجـرة. كان الهواء في نيس دافئًا ودرجة الحرارة ربيعيةً فيما تلوّنت السماء بلون أزرق داكن. انتظرت روكسان بلوغ السيارة الطريقَ البحريّ وعودتها إلى الإيقاع الطبيعي لتطلب من السائق إطفاء الراديو وتتّصل بنجيب مسعودي. عازمةً على عدم الضغط على العسكري، باشرت حديثها بشيء من الحذر.

– أشكرك على وقتك، كولونيل. لن أزعجك طويلًا. لقد أثار اهتمامي، في إطار قضيّة أبحث فيها، حادث الرحلة 229 وأودّ التحقّق من بعض النقاط مع حضرتك.

– أسمعكِ.

– قرأت عن انتشال ثلثَي الجثث تقريبًا.

– بالضبط، 121 من أصل 178.

– من الذي قام بسحبها على وجه التحديد؟

– نحن، الدرك، بالتعاون مع الجيش البرتغالي ووزارة الداخلية الأرجنتينية. امتدّت العمليّة على ستة أشهر وانتُشلت معظم الجثث على مرحلتين. الأولـى في الأيـام التي أعقبت الـحادث والثانية، بمساعدة غوّاصة، ما إن عُثر على هيكل الطائرة.

– كيف كانت حالها؟

– كانت محفوظة جيّدًا في الواقع. ساهمت الحرارة المنخفضة للماء وقوّة الضغط في إبطاء تحلّلها. في الواقع، كانت المشاكل تبدأ بعد أن نخرجها.

– بفعل الأكسدة؟

– نعم. طالما أنّ الأجسام في الماء، تحدث ظاهرة التصبّن التي تمنع التعفّن. لكنّ الجسم يتحلل بسرعة كبيرة عند ملامسته للهواء.

خفضت روكسان نافذتها. عبرت سيارة الأجرة ميدان الخيل كاني سور مير. كان الطقس لطيفًا. بدا الطريق الرئيسيّ الذي يكتظّ في فصل الصيف في غاية السلاسة. تزاوج البحر والسماء بنغمات اللون الأزرق اللازوردي، لخلق جوٍّ هادئ يستحضر شاطئ الريفييرا كما كان في الأيام الخوالي ويتناقض تمامًا مع كلام الدركي القاسي.

– بعدها، أكملت روكسان، كيف يجري تحديد هويّات الضحايا؟

– لدينا فريقان مختلفان يعملان على ذلك. أحدهما يُعنى بقسم ما بعد الوفاة لسحب العيّنات من الجثث المنتشلة، والآخر يعمل في قسم ما قبل الوفاة بحيث يتّصل بالعائلات لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الضحايا، بما في ذلك المعلومات الجينية.

– وفقًا مكتب التحقيق والتحليل، مات جميع الركاب على الفور.

– نعم، وافق مسعودي، فقد تحطّمت المركبة بسرعة فائقة. وهو ما رأيناه في بعض عمليات التشريح التي أجرينها: لم يمت الناس من الغرق، ولكن من تعدّد الصّدمات.

– هل كان هناك أيّ احتمال نجاة لأحد؟

– لا، لا أعتقد أنّ هذا ممكن.

بعد هذه المقدّمة، دخلت روكسان في لبّ الموضوع.

– لن ألفّ وأدور، كولونيل. أبحث عن معلومات عن ضحيّة معيّنة: عازفة البيانو ميلينا بيرغمان.

– سيتعيّن عليك المرور عبر القنوات الرسمية بهذا الشأن. لا أعتقد أنّه يمكنني تزويدك بهذه المعلومات عبر الهاتف.

– ما الذي سيختلف بمروري عبر القنوات الرسمية عدا عن إضاعة وقتي؟

– هي القاعدة، هذا كلّ ما في الأمر. هل تحتاجين شيئًا آخر؟

– من فضلك، لا يمكنني تحمّل المزيد من المعاملات الورقيّة التي تعقّد حياتنا، أحقًّا لا يمكنك إخباري بأيّ شيء؟

تنهّد نجيب مسعودي ثمّ سألها: «ما الذي تريدين معرفته، نقيب؟»

– تاريخ انتشال جثّتها أوّلًا.

سمعت صوت نقرة بالماوس على الطرف الآخر من الخط، ثم طقطقة أزرار على لوحة مفاتيح الكمبيوتر.

– 21 نيسان 2020، بعد أيّام قليلة من تحديد موقع الجزء الأكبر من هيكل الطائرة. كانت من بين الضحايا الذين ظلّوا مربوطين بالمقعد.

– هل كان من السهل التعرّف إليها؟

– نعم، كان لدينا أكثر من خيار. بصراحة، استطعنا التأكّد مرّتين. أوّلًا، من خلال مقارنة عيّنتين من الحمض النووي، الأولى من جسم الضحية والثانية عبر فريق قسم ما قبل الوفاة، ثمّ بفضل صورة الأشعة البانورامية للأسنان التي زوّدتنا بها العائلة. لم نكن نحتاج إلى أكثر من ذلك.

– هل لديك صورٌ للجثة؟

– نعم، لكن لا تعتمدي عليّ لإرسالها إليكِ.

– هل أعيدَ الجثمان إلى عائلتها؟

– كما كلّ الجثامين التي انتشلناها.

– هل تعرف ما حلّ به؟

صوت نقرة ماوس جديدة.

– حُرقت جثة ميلينا بيرغمان في درسدن في ألمانيا في 18 أيّار الفائت.

.2

سارت السيارة في طريق كاب أنتيب باتجاه شبه الجزيرة الموجودة في الجزيرة الصغيرة. كانت الأجواء الساحرة، ورائحة أشجار الصنوبر تنشر عبق العطلات. لم ينقص المشهد سوى غناء الزيزان. كانت روكسان تتخبّط مع ما قاله لها مسعودي: ميلينا بيرغمان ماتت. لا مجال للشك. لقد تعرّف إليها أفضل خبراء الدرك وحُرقت جثتها. ولكن، لماذا تطابق شعر المرأة المجهولة مع قاعدة بيانات الحمض النووي الخاصة بوزارة الداخلية؟ أعادت في ذهنها ما قاله لها بوتساريس: كان اسم ميلينا بيرغمان مذكورًا في السجل الوطني الآلي للبصمات الجينية بعد إدانتها قبل تسع سنوات بجريمة سرقة متجر فاخر. هل حصل أيّ إخفاق في أخذ العيّنات الجينية في ذلك الوقت؟ هل ذكرت الصحافة هذا الاعتقال؟ هل التُقطت صور للحادث؟ يلزمها التحقّق من ذلك.

توقّف التاكسي عند بوّابة عالية لا خاصيّة لها مراقبة بكاميرتين.

– هل أنت واثق من العنوان؟

– هذا ما يظهره الجي بي أس، أجاب السائق مستشهدًا بشاشته: عيادة فيتسجيرالد.

– انتظرني هنا.

– العدّاد يعمل وأنتِ تدفعين.

قرعت روكسان الجرس وعرّفت بنفسها ثم انتظرت بعض الوقت ليُفتح مصراعا البوّابة على حديقة مشجّرة. سارت نزولًا عبر أشجار الصنوبر في ممرّ مرصوف بالحصى لمسافة مائة وخمسين مترًا. ارتفع وسط أشجار الصنوبر والأوكالبتوس منزل كبير مشيّد على الطراز النيوكلاسيكي لحقبة «السنوات المجنونة».

كان يومًا من الأيّام الأقصر في السنة. أصبح الهواء منعشًا في غضون دقائق. بدأت الشمس تتوارى عند الأصيل وظهرت خطوط ورديّة في السماء. في الحديقة، تجمّع بعض النزلاء لإنهاء جولة من لعبة الكريكيت فيما كان البعض الآخر يلعب البولينغ وآخرون يجلسون على مقعد يدخّنون سيجارةً محملقين في الفراغ. بدا الوقت كأنّه يمرّ بطيئًا ولم يعد المكان مرتبطًا بزمن... أهو دار رعاية للمسنّين أم روضة أطفال أم مركز إعادة تأهيل؟ لم يكن شيء يدلّ على العصر الراهن. لعلّنا عدنا إلى قرن من الزمان. خطرت على بال روكسان تلك الصور للفنادق الفاخرة التي صودرت لتحويلها إلى مستشفيات عسكرية خلال الحرب العظمى.

اتّبعت حدسها، وبدلًا من دخول المبنى، أكملت مسارها حتّى وصلت إلى هضبة صخريّة تنحدر باتجاه البحر. في تلك اللحظة، رأته من بعيد، منزويًا تحت كوخ من القش يشبه كشك الموسيقى. أخذت الوقت الكافي لمراقبته قبل أن ينتبه إليها. كان رافاييل باتاييه جالسًا على طاولة في الحديقة، أمام حاسوبه وزجاجة نبيذ أبيض، يحدّق في الأفق بنظرة تائهة.

لم يبدُ أنّه لاحظ وجودها بالرغم من اقترابها منه. كان يرتدي فوق قميص أبيض سترةً سميكة باللون الأزرق الداكن بنفس تصميم تلك التي رأتها هذا الصباح في البيت الزجاجي. عن قرب، وجدته أوّلًا ذا هيئة أرستقراطية إنكليزية بوضعيّة رأس منتصبة، كأنّه خرج

مباشرة من رواية للكاتب إي. إم. فورستر. ثم ذكّرها بجانبه الجامح بممثلي السينما: توازن تامّ بين شخصية الداندي لروبرت إيفريت وعذابات مونتغومري كليفت.

– هل بدأت بالمشروب من الآن أم أنّ زجاجة الغداء لم تفرغ بعد؟ سألته.

كان هذا كلّ ما تبادر إلى ذهنها لاستهلال الحديث.

استدار الكاتب نحوها فجأةً بشعره الأسود الكثيف وعينيه الفاتحتين، غير مسرور بمقاطعته، كما لو أنّ روكسان صعقته بصدمة كهربائية. تابعت الشرطية انخراطها في قصّة النبيذ.

– هل لي بكأس؟

أراد التحدّي وناولها الزجاجة التي سبق وشرب قسمًا كبيرًا منها – نبيذ مورسو-بيريير فقد برودته – فتظاهرت بالشجاعة وأخذت رشفة مباشرة من القنّينة.

– اسمي روكسان مونكريستيين، قالت وهي تجلس على الكرسي الشاغر أمامه.

– اسم جميل لبطلة رواية، أعلن بعد لحظة تفكير.

– شكرًا على الإطراء.

– أنتِ جديدة هنا؟

– أنا لست مريضةً.

– آه، هل أنتِ الممرّضة الجديدة التي يتحدّث عنها الجميع؟ تخيّلتكِ أصغر سنًّا.

– ولا هذه أيضًا.

دون أن يزيل أمارات البرودة عن محيّاه، عقد حاجبيه وحكّ لحيته الخفيفة. كانت عيناه تشعّان كأنّه مخدَّر أو مخمور. أو الاثنين معًا.

– لستِ صحفيّة على الأقلّ؟ تساءل قلقًا وهو يحملق فيها. لا، لا تبدين صحفية.

– هل أبدو شرطيّة؟

بالإذن من فالنتين، لم يكن الكاتب «جذّابًا» إلى هذه الدرجة. أناقةٌ مهملة، عينان متعبتان، سحرٌ خائب. اشتدّ عبوس باتاييه عندما تنبّه إلى أنّ روكسان ترتدي سترته.

– ماذا تفعل سترتي على كتفيك؟ هل ذهبتِ إلى منزلي دون إذني؟

عضّت شفتها مدركةً الخطأ الفادح الذي ارتكبته.

– سوف أشرح لك.

– آمل أن يكون لديك مبرّرٌ مقنعٌ وأن تتحمّل الشرطة تكاليف المحامي.

حاولت روكسان تهدئة الأمور.

– جئت أبلغك عن أمر.

خلعت روكسان الساعة التي كانت ترتديها حول معصمها ووضعتها على الطاولة. ألقى رافاييل باتاييه نظرة لامباليةً عليها قبل أن يقلبها ويكتشف العبارة المنقوشة.

– أين وجدتِ هذه؟

– إنّها لك، أليس كذلك؟

– كانت لي، نعم. لكنّي أهديتها لأحدهم.

– لمَن؟

مرّر باتاييه يده بين خصلات شعره.

– ثمة ما ينبئني بأنّك تعرفين ذلك.

– للمرأة التي أحببتها، ميلينا بيرغمان. هل تعلم ما إذا كانت ترتديها عندما ماتت؟

– من الواضح أنّه ليس كذلك. وإلّا لما كانت بقيت بهذه الحالة بعد ستة أشهر تحت الماء. أين وجدتِها؟

– حاول أحدهم بيعها إلى ساعاتي في شارع ماربوف.

– من هذا؟

– مساعد أمن من مستوصف الطبّ النفسي في باريس.

– ممّن سلبها؟

– من معصم مريضة في الـI3P.

– من أين حصلَت عليها؟

– هذا بالضبط ما أحاول اكتشافه.

كان لدى روكسان انطباعًا بأنّ رافاييل قد بدأ يفقد اهتمامه بالموضوع بحيث لم يفقه علاقته بقصّة الساعة المسروقة تلك.

– حسنًا، قال وهو يضع الساعة حول معصمه. أشكركِ لإحضارها. هل يجب أن أوقّع على شيء؟ أو أن أقدّم إفادتي؟

.3

– مهلًا، لم تنتهِ القصّة! اسمح لي بأن أطلعك على الأحداث بالترتيب.

– في الحالة التي أنا فيها، يكون من الأفضل لو تفعلي ذلك بسرعة.

– في نهاية الأسبوع الماضي، انتشل فريق الإنقاذ النهري فتاةً شابّة كانت تغرق عند جسر نُف. كانت عاريةً، مشوّشةً تمامًا وفاقدةً للذاكرة. لم تكن ترتدي سوى هذه الساعة.

فرك رافاييل جفنيه بشكل عنيف كما لو أنّ هذه الحركة تعيد له اتّزانه. تابعت روكسان:

– من خلال تحليل الحمض النووي لشَعر الفتاة، وجدنا تطابقًا في السجل الوطني الآلي للبصمات الجينية.

– مع مَن؟

– مع ميلينا بيرغمان.

هزّ الكاتب رأسه.

– لا أفهم سبب وجود الحمض النووي لميلينا في السجل الوطني الآلي للبصمات الجينية.

– بسبب سرقة في العام 2011.

رفع رافاييل كتفيه مشكّكًا.

– لا بد من وجود خطأ في مكان ما.

أطلعته روكسان على نسخة تقرير وحدة الطب الشرعي.

ألقى باتاييه نظرة عليها حيث بدت أنّها أثارت اهتمامه دون أن تؤثّر فيه.

– لقطة غير واضحة بالأبيض والأسود لا تعني شيئًا.

أعطته روكسان هاتفها ليتنقّل بين الصور التي التقطتها كاميرات المراقبة في الـI3P.

هذه المرّة، اجتذبت مقاطع الفيديو رافاييل. تبدّلت ملامح وجهه: اتّسعت عيناه، ارتعش فمه وانقبض فكّه.

– أهي مزحة أم ماذا؟

– لا أعرف كيف أشرح ذلك، أقرّت روكسان. أتعتقد أنّها هي؟

– لا. مستحيل أن تكون هي. كانت ميلينا على متن الطائرة التي تحطّمت. لقد تمّ التعرّف على جثّتها. لم تكن ثمّة شكوك حول ذلك.

– أودّ أن تساعدني في العثور على هذه المرأة.

– ماذا تعنين بـ«العثور» عليها؟

– لقد هربت من المستوصف أثناء نقلها ولم يرها أحد منذ ذلك الحين.

دفع رافاييل الطاولة الحديدية وقد تملّكه الغضب، ثمّ نهض وخطا بعصبيّة بضع خطوات على الحجارة. راح ظلّه المرتعد يهتزّ عكس الضوء. كان الأفق متوهّجًا وأشجار الصنوبر البحريّ ترتعش تحت السماء الحمراء.

– هناك سيارة أجرة تنتظر عند المدخل. عُد معي إلى باريس، قالت وهي تنضمّ إليه بالقرب من الأجراف الصخريّة التي تنحدر في اتجاه المتوسّط.

رفع صوته موجّهًا نحوها إصبعًا مُهدِّدة.

– لا، لن أشاركك هذا الهذيان. ميلينا ماتت. كان الأمر صعبًا بما فيه الكفاية لأتحمّله. كانت تحمل طفلنا. لقد جعلني هذا...

اختنق صوته.

– لم أكن أعلم، قالت بصوت رقيق.

– اغربي عن وجهي.

– أنا آسفة لمجيئي وإثارة هذه الذكريات المؤلمة، لكن...

– انصرفي! زعق بها.

جذب صراخ الكاتب انتباه مقدّمي الرعاية. نظرت روكسان خلفها فرأت رجلين يرتديان الأبيض كما لو كانا خارجين من فيلم «أحدهم طار فوق عش الوقواق»[1]، يهرعان نحوهما بعد أن تنبّها لوجودها فجأة. شعرت بقدراتها تتقلّص. لاسيما أنّ باتاييه بدأ يخيفها قليلًا، وأنّ قربهما من المنحدرات لم يساعد البتّة.

– عليّ إخبارك بأمر آخر، رافاييل، وهو سيّء للأسف.

[1] One Flew Over the Cuckoo's Nest.

اقترب الروائي ورفع ذراعه. اعتقدت روكسان للحظة أنّه سيمسكها من كتفيها ويلقي بها في البحر من أعلى الصخور، لكنّه اكتفى بحركة من يده ليحثّها على الكلام.

– تعرّض والدك لحادث خطير صباح أمس. هو الآن في المستشفى.

– ماذا؟

– سقط من الدّرج في مكتبه ودخل في غيبوبة.

– ألم يكن بإمكانك إخباري قبل الآن!

– عُد معي إلى باريس، طالبت مجدّدًا.

وضع رافاييل باتاييه يديه على وركيه متجهّمًا والتقط أنفاسه كلاعب كرة قدم بعد تدخّل عنيف.

– أعطِني خمس دقائق لأجهّز حقيبتي، قال وهو يومئ بيده مطَمئنًا الممرّضيْن اللذين كانا يندفعان نحوهما.

بينما سار عائدًا نحو مبنى العيادة، أخذت روكسان تبرّر نفسها للرجلين اللذين طوّقاها ورافقاها بالقوّة إلى البوّابة. ركبت في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة طالبةً من السائق الانتظار بضع لحظات أخرى. كان لدى الكاتب جانبٌ مجنونٌ ولم يبدُ من السهل التحكم به. لكنّها احتاجت إلى وجوده في باريس للمضيّ قدمًا في قضّيتها.

دقّقت في رسائلها أثناء انتظار رافاييل. حاول يوهان مورس الوصول إليها فاتّصلت به على الفور.

– اسمعي روكسان، أعدت التحليلات بنفسي عن طريق استخراج أجزاء أخرى من الحمض النووي من الشَّعر. هي نفس البصمات الجينية لهذا الصباح. لم يكن هناك من أخطاء.

– والبول؟

ردّ الخبير العلميّ على نحو قاطع.

– من المستحيل استخراج شيء منه.

– لماذا؟

– أوّلًا لأنّ كميّات الحمض النووي تكون ضئيلة في البول كما أنّها تتحلّل بسرعة كبيرة، ولكن قبل كلّ شيء لأنّ عيّنتك كانت ملوّثة بالمطهّرات الموجودة في المرحاض.

– اللعنة!

– نعم، هذا بالضّبط ما يجب أن يُقال، ردّ ممازحًا. في المقابل، لديّ معلومة قد تهمّك.

– قلها.

– أجريتُ تحليلات أخرى تحسّبًا. وثمة نتيجة أثارت اهتمامي.

– حسنًا، أخبرني، يوهان!

– وجدت في البول آثار هرمون Beta-HCG.

– ماذا يعني هذا؟

– أنّ الفتاة حامل، استأنف مورس. إنّ مجهولة نهر السين خاصّتك تنتظر طفلًا.

ما كادت روكسان تنهي المكالمة حتّى خطرت في ذهنها فكرة: لم يكن مكتب الشؤون غير التقليدية قد افتُتح من جديد فحسب، بل إنّه على وشك أن يستعيد مجده السابق أيضًا.

II

قرين

7

رافاييل باتاييه

الواقع هو ما يأبى أن يختفي حتّى عندما نتوقف عن الإيمان به.

فيليب ك. ديك

.1

باريس ليلًا.

– يمكنك التوقّف هنا، سأتابع سيرًا.

أنزلتني سيارة الأجرة عند تقاطع شارعَي داساس وفافين. على الرغم من البرد، كنتُ بحاجة إلى تحريك ساقيَّ واستنشاق بعض الهواء النقيّ قبل العودة إلى المنزل. كانت رؤية والدي في العناية المركّزة في بومبيدو بمثابة اختبار. لقد خضع في نهاية فترة ما بعد الظهر إلى عمليّة جراحيّة في إحدى فقرات العمود الفقري، وقد نجحت العمليّة وفقًا للطبيب، لكن من غير الممكن إيقاظه في الوقت الرّاهن.

ساورني شعور، وأنا أقف بجانب سريره، بعودة اللحظات المظلمة للعام الماضي من جديد، حين اعتقدتُ أنّي فقدته إلى الأبد

بعد تشخيص إصابته بسرطان الرئة. كأنّ المرض هديّةٌ قُدّمَت لجسده على ولائه والتزامه بتدخين علبتَي سجائر يوميًّا منذ كان في الخامسة عشرة من عمره. أهلكه العلاج الكيميائي آنذاك، وحين بدأ معظم مقدّمي الرعاية يحضّرون دفنه، أعاده العلاج المناعي بأعجوبة إلى الحياة. اليوم، في هذه الليلة، تشبّثتُ بهذه النهاية السعيدة لأقول بيني وبين نفسي إنّ الأسد العجوز سينجو مرّةً جديدة. Fluctuat NEC mergitur[1].

نظرتُ إلى ساعتي – ساعة «لا ريزونانس» الشهيرة – التي أعادتها إليّ روكسان مونكريستيين. كانت التاسعة مساء. اشتدّت البرودة في الجوّ. أدّى اقتراب عيد الميلاد وتسوّق اللحظات الأخيرة إلى حركة مرورٍ كثيفةٍ بشكل خاصّ على الرغم من تأخّر الوقت. مشيت في الشارع لمسافة مئتي متر إلى متحف زادكين الصغير ثمّ عبرت إلى الرصيف المقابل وسرت على طول الحديقة النباتية لكليّة الصيدلة.

بدا المكان، بفعل القمر المكتمل، كلوحة ليليّة لهنري روسو. خلف السياج المشبّك، طغى الغطاء النباتيّ الغريب والغزير على تباينات اللون الأزرق اللّيلي. تبعثرت الأغصان السوداء للأشجار العارية في السماء راسمةً شبكات عنكبوتيّة أسرت في خيوطها شرائط سحابيّة مقطوعة بيضاء شاحبة.

دفعتُ البوّابة عند الرقم 77 ومضيت عبر الطريق الإسفلتي وصولًا إلى البيت الزجاجي. أسقط الليل، الذي كان صافيًا ونقيًّا بشكل استثنائي، انعكاسات خضراء وبيضاء جعلته أشبه بأكواريوم ضخم. كنت قد اشتريت هذا المنزل قبل ثلاث سنوات، في لحظة نزوة،

[1] شعار لاتيني لمدينة باريس معناه «تقذفه الأمواج، لكنّه لا يغرق».

من رجل أعمال كندي عاش وضعًا سيّئًا إثر مجازفات استثماريّة باءت بالفشل. سُحرت منذ زيارتي الأولى بالإنجاز المعماري وأناقة التجهزيات والأثاث في هذا المنزل الذي سلّمني المالك القديم مفاتيحه جاهزًا للسكن. مع الوقت، وعلى الرغم من الرفاهية والجمال، أصبح المنزل يخيفني، خاصة عندما أكون فيه وحدي. أتذكّر في إحدى المرّات من السنة الأولى مرور طائرٍ عبر إحدى النوافذ جعل شظايا الزجاج تتطاير. ارتعبت لدرجة أن استبدلت الزجاج بأكمله بزجاج رقائقيّ متين غير قابل للكسر. لكن حتّى اليوم، ما زال القلق يساورني وما زلت أشعر بإحساسٍ غامر بأنّي مكشوف وضعيف كحشرة محاصرة في حوض اختبار. كنت أعرف ألّا وجود لهذا الخطر سوى في ذهني وأنّ الواجهات لا تُظهر للناس من الخارج ما يحدث في الداخل. لكنّ ذلك لم يغيّر أيّ شيء. رغم أنّني تعلّمت منذ سنّ مبكرة جدًّا أنّ المسألة الأهمّ في حياتي، في الأوقات الحلوة والمرّة، هي في الواقع القدرة على التحكّم في ما كان يدور في ذهني.

.2

فتحت قفل الباب ثمّ ضغطت على زر القاطع الكهربائي المركزي وشغّلت التدفئة. على الرغم من توجّسي، ملأتني سعادة غامرة لاستعادة الدفء المنزلي. أنزلت أمتعتي واسترجعت هاتفي الخلويّ على وجه السرعة من درج مكتبي. كان مطفأً، من فترة طويلة ربّما.

وضعت الهاتف على الشاحن واستعنت بالخط الأرضي للاتّصال بحارسة المنزل، السيدة ميغلييتي. بعد استفسارها عن صحّة والدي وإبلاغي عن لقائها مع روكسان مونكريستيين، أخبرتني أمرًا أقلقني: كان الصحفي في مجلة ويك-أند، كاتب المقال عن ميلينا وعنّي،

يحوم حول المنزل. وجّه إليها عددًا من الأسئلة التي – أقسمتْ لي – أنّها لم تجب عليها. لقد أثار هذا المقال غضبي فعلًا. أيقظ فصلًا من حياتي كنت قد دفنته في أعماقي ولم أعد أرغب في السّماع عنه. كانت وسائل الإعلام التي عُرفت في السابق بهيبتها قد سلكت، متخفيّةً تحت غطاء «الصحافة الأدبية» أو «التحقيق الكبير»، درب الصحف الصفراء فتمرّغت معها في الوحل بفرح وابتهاج متصوّرةً نفسها خاليةً من أيّ ذنب. تساءلتُ، عند نشر المقال، عن الجهة التي زوّدت الصحفي بكلّ هذه الصور والمعلومات الخاصة. وبعد استعادة الأحداث في رأسي، لم أجد سوى احتمال واحد: أحد العاملين في مستشفى سالبتريير. لا بدّ أنّ والدي أشاع أخبار حياته (وحياتي) أمام الممرّضات مع دخوله المستشفى العام الماضي لعلاج السرطان. لا زلت أراه وهو يعرض الصور على هاتفه ويحكي القصص دون أن يجد أيّ ضرر في ذلك. لكنّ موظفي المستشفيات كالمذياع. والكلام ينتشر بسرعة بين الأقسام. على الأغلب استغلّ أحدهم ثقته وصحّته الضعيفة لبيع خصوصيّاتي مقابل 400 أو 500 دولار لدجّال.

لكن لمَ الآن؟ ولماذا يواصل الرجل تجوّله حول منزلي مثل الكلب؟ ألقيت نظرةً خاطفةً على هاتفي الخلويّ الذي اشتغل من جديد. على وقع نبضات قلبي، قمت بتصفّح الرسائل والمكالمات الفائتة إنّما لم يكن، على نحو مباشر أو غير مباشر، أيّ شيء يتعلّق بميلينا بيرغمان.

أمرٌ طبيعيّ بما أنّ ميلينا ماتت، همس صوت في رأسي.

كنت فريسةً لإحساس مزعج بأنّي مراقَب، فنهضت لأتفقّد الخارج. أنا، في الأساس، مصاب طوعًا بجنون الارتياب. شغّلت الأضواء الخارجيّة بأكملها. كانت النباتات والشجيرات التي تحيط

بالمنزل غارقةً في الإضاءة الباهرة، كما لاح منظرٌ مقلقٌ أكثر، مغمورٌ في الظلّ ومرتعشٌ كستارة ثانية.

عدت إلى مكتبي وأخرجت من جيب معطفي نسخات الملفّ التي أعطته لي روكسان مونكريستيين.

سبرت أغوار مشاعري أثناء تفحّصي للوثائق. كان الخوف يسيطر عليّ، مشوبًا بصعوبةٍ في الفهم. لمَ كلّ هذه المساعي لإيهام الناس بأنّ ميلينا بيرغمان على قيد الحياة؟ حاولت جاهدًا استيعاب الغرض من اللعبة. أهو ابتزاز؟ أم استحواذٌ على إرث؟ أم حيلة لجذب انتباه وسائل الإعلام؟ لم يبدُ لي شيء منطقيًا. غير أنّ تلك الشرطيّة التي جاءت للبحث عنّي في أنتيب بدت واثقةً من ذلك. كان الملفّ الذي بحوزتها مقلقًا حقًّا – البصمات الوراثية للشَّعر، اختبار الحمل – لكنّه ليس بهذا القدر من الأهميّة أمام الواقع المؤكّد. فالحقائق لم تترك مجالًا للشكّ. كانت ميلينا بيرغمان في بوينس آيرس قبل يوم من الحادث، والدليل تسجيل حفلها بواسطة التلفزيون العام الأرجنتيني، على قناته السابعة التي بثّت الفيديو على حسابها على اليوتيوب. كانت هي التي استقلّت الطائرة كما بيّنت عمليّة تحديد الهويّة المزدوجة التي أجراها رجال الدرك بواسطة عيّنات الحمض النووي وصورة الأشعة البانورامية للأسنان. أمّا الباقي، فلا أرغب في سماعه. تلك الفترة من حياتي سحقتني ولست مستعدًّا أبدًا لخوض كلّ هذا مجدّدًا. وليس الآن بالأخصّ.

كنت أمرّ بوقت عصيب. منذ كنت في مقتبل المراهَقة، دخلَت حياتي في دورة متكرّرة. تحليقٌ بالغ وهبوط أكثر تعقيدًا بعدُ.. كان الجميع يعلم عن موت أختي الصغيرة، فيرا، في ظروف مؤلمة عندما كنت في العاشرة من عمري. لكنّ أحدًا لم يعرف أنّي عشت

مع شبحها. كانت فيرا تظهر أمامي في سنين مختلفة من حياتها: طفلة، فتاة صغيرة، شابّة، وأحيانًا أكبر بكثير.

كانت تأتي لتحدّثني، وتسأل عنّي، وتقدّم لي نصيحَتين أو ثلاثًا، لكنّها كانت تحضر خاصة لتطلب منّي أن أكتب لها كتبًا. أن أخبرها القصص كما كنت أفعل عندما كنّا صغيرَين. لهذا السبب أهديها كلّ رواياتي. هي الدافع لمهنتي، وكلّ ما كتبته في حياتي، كتبته لها.

مع مرور الوقت، اعتدت على وجودها. حتّى إنّي كنت في حاجة إليه. كنت أنتظرها وأترقّب حضورها. كان كلّ ظهور لها يلقي بثقله عليّ وعلى عواطفي. حتّى لو غابت أشهرًا، كانت فيرا تعود دائمًا. وكان يحصل ذلك عادة في لحظة لا أتوقّعها، أو عندما أكون قد بدأت استعادة توازني لأنّي قابلت فتاةً جديدة. لقد قاومتُ كلّ العلاجات النفسيّة وكلّ الأدوية. كنت على دراية دائمة بأنّ هذا كلّه لم يكن موجودًا سوى في ذهني، لكن حتّى معرفة ذلك لم تسعفني.

كانت «تتابعني» لسنوات طبيبة نفسيّة سويسرية اسمها كريستا لانزينغر، وكانت الوحيدة التي علمت بعذاباتي. لكن، حتّى عليها، كذبتُ لفترة طويلة. حتّى الشهر الماضي حين لم أعد أحتمل التّعايش مع الأكاذيب أكثر، فتخلّصت من سرّي وأخبرتها بسبب شعوري بالذنب تجاه وفاة أختي.

3.

أوباغن، صيف 1990.

بيتٌ عائليّ بروفنسالي على مرتفعات المدينة. نهاية العطلة الصيفية. عمري عشر سنوات. على جدران غرفتي، ملصقات لكريس

وادل وإريك كانتونا وملصق لفيلم مشكلة كبيرة في الصين الصغيرة[2]. على الرفوف، استقرّ مجسّمٌ مضيء لكرة أرضيّة، وتمثالٌ صغير لصائدي الأشباح، مع نموذج مصغّر لسيارة ماكلارين لألان بروست. مجموعة من «كتب أنا بطلها»، وموسوعة الكون الكاملة، وأعداد مجلّة بيف غادجت، بالإضافة إلى علبة كرتونيّة تحوي الأغراض المفضّلة من تلك الأسابيع الأخيرة: أقلام الحبر غير المرئي، نظّارات «بيف غادجت»، مشط جيب قابل للطيّ، سكاكر مخيفة، بودرة كرادوس[3]، لعبة الكيد المرتدّ، سكّين راهان وقلادته من «بيف غادجت».

ارتديت قميص نادي «أولمبيك مارسيليا» وحذائي الرياضي من نايكي الذي أخذتُه من ابن عمّي بعد أن صغُر عليه. هرعت إلى المرآب وركبت درّاجتي ثمّ نزلت المنحدر المؤدّي إلى الطريق الإسفلتي. تحت شمس بعد الظهر الحارقة، وعلى وقع موسيقى الزيزان، أسرعت لملاقاة صديقي فنسان ميرلين الذي وعدنا والده برحلة في السيّارة لحضور تمرينات فريق «أولمبيك مرسيليا» في ملعب لوميني، جنوب المدينة. وصلت إلى منزل فينس بعد ربع ساعة فوجدته طريح الفراش في غرفته وبجانبه طبيبٌ ووالداه: التهاب حادٌّ في الزائدة الدوديّة. كان لا بدّ من نقله إلى مستشفى تيمون. بقيت لمواساته إلى أن غادر ثم عدت إلى المنزل، محبطًا بعض الشيء.

فوجئت من بعيد، فيما كنت أصعد الطريق الترابيّ، برؤية سيّارة غريبة من نوع رينو 9 بنيّة مركونة بجوار سيارتنا الـAudi 80. أنبأني حدسي في الحال بخطر مُحتمل. نزلت من الدرّاجة وأخفيتها

[2] Les Aventures de Jack Burton dans les griffes du Mandarin.

[3] كرادوس هي سلسلة من البطاقات القابلة للتجميع لشخصيات كرتونية كانت شائعة في الثمانينيّات، وبودرة كرادوس هي مادة إذا مُزجت مع سائل ما تصبح هلاميّة.

خلف الشجيرات. كانت الحرارة خانقةً. طفت حول المنزل لأبلغ الجهة الخلفيّة.

سمعت أصواتًا تعلو من الشرفة. صوت والدتي وصوت رجل لم أتمكّن من تحديد هويّته. كانت والدتي، إليز باتاييه، تقبّل بحرارة رجلًا ليس والدي. شعرت بغصّة في حلقي وبدأت كلّ أطرافي ترتجف. جلست القرفصاء كي لا يراني أحد ثمّ، وبعد أن بقيت بضع ثوان مصعوقًا، تسلّلت إلى الطابق السفلي. كنت ما زلت أرتعش، وجثمت تحت مدخنة الموقد التي، بفضل ظاهرة انتشار الموجات الصوتية، أتاحت لي الاستماع إلى المحادثة كما لو كنت على بعد أمتار قليلة منهما لأتعرّف أخيرًا إلى الرجل الذي لم يكن سوى جويل إسبوزيتو، طبيب أسنان العائلة.

كنت تحت تأثير الصدمة، محطّمًا، لكن غير متفاجئ. لطالما عرفت والدتي على هذه الحال: لا تشعر بوجودها ولا تتنفّس إلّا من خلال نظرة الرّجال إليها. استغرق الأمر وقتًا طويلًا لأفهمه وأستوعبه. كان كلّ حديث لها مع رجل ينطوي على احتمال مغازلة تعرّضنا جميعًا للخطر وتهدّد بهدم البيت العائلي. لطالما تخيّلَت والدتي نفسها فنّانة. رقصت بضع مرّات في فرقة «باليه مارسيليا الوطني» فأصبحت تحكي، أينما ذهبت، كيف حرمها زواجها من المهنة التي استحقّتها. بات عدم الرضا سمةً من سمات شخصيّتها أوصلتها إلى أنانيّة لا توصف.

أمضيت ساعات طويلةً مختبئًا في الطابق السفلي في انتظار مغادرة طبيب الأسنان. في الأيام التي تلت، راحت تلك الصور تطاردني وتلتهمني، ولم أعد أعرف كيف أتصرّف. من عليّ أن أخبر؟ لا يمكنني أن أخبر أمّي. ولا يمكنني أن أخبر أبي أيضًا، فهو يحبّها حبًّا جمًّا على الرغم من نزقها. لا يمكن أن يتحمّل الانفصال عنها. كان

والداي يتشاجران في أغلب الأحيان، حتّى في حضوري، وقد حفظت عن ظهر قلب التهديدات التي كانت توجّهها والدتي عند أدنى ملاحظة يقولها والدي: «سأغادر مع الأطفال»، «سأفسد سمعتك»، «سأتسبّب بطردك من الشرطة».

«فتى ذكيّ مثلك»: هذا ما كان يردّده والدي دومًا على مسمعي ليمدّني بالثقة. فتى ذكيّ مثلي ينبغي أن يكون قادرًا على إيجاد طريقة لنزع فتيل الأزمة وإنقاذ عائلته. لكن ما الذي يمكنني فعله؟ وقعت على عشرات الفرضيّات. بدت واحدةٌ فقط مأمونةً: محاولة تخويف طبيب الأسنان لإجباره على إنهاء علاقة الزنا تلك.

جمعت مجلّات بيف غادجت وتيلي ست جور قديمةً ملقاة على حامل المجلّات في الصالون. قصصت الحروف وجمعتها معًا لتكوين رسالةٍ مجهولةٍ آملًا ألّا تَفضح عمري:

أعرف عن علاقتك مع إليز باتاييه.

إن لم تنهِها، سيعرف زوجها، وزوجتك أيضًا، بذلك.

مستعينًا بالمسطرة، رسمت على الظرف خطوطًا شكّلت الأحرف التي تدلّ على العنوان وأرسلت الرسالة إلى عيادة طبيب الأسنان.

لكنّ الأمور خرجت فعلًا عن السيطرة في اليوم الذي تلا ذلك: 5 أيلول/سبتمبر، أوّل أربعاء بعد بداية العام الدراسي. عدت إلى المنزل من المدرسة ظهرًا وكنت سأذهب في الساعة الثانية بعد الظهر إلى تمرين كرة اليد في إطار الاتّحاد الرياضي للتعليم الابتدائي. كانت أختي فيرا، البالغة من العمر أربعة أعوام، تتناول الغداء معي في المطبخ. رنّ الهاتف في منتصف الوجبة. تلقّت والدتي المكالمة ثمّ ابتعدت بالسّماعة. عرفت أنّه «هو»، الحبيب. استرقتُ السّمع

وفهمتُ أنّه يحدّثها عن الرسالة التي وصلته. قالت له: «سأضع فيرا في الحضانة وآتي لرؤيتك».

دبّ فيّ الذعر وأنا أركب درّاجتي للذهاب إلى التمرين الرياضيّ. شعرت بأنّ قوّةً خارجةً عن سيطرتي قد انطلقت للتوِّ. وفي أسوأ كوابيسي، لم أتخيّل أنّها ستكون مدمّرةً إلى هذا الحدّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

4.

فتاة في الرابعة من العمر تلقى حتفها
داخل سيّارة مركونة في الشمس الحارقة
لا بروفنس، 7 أيلول/سبتمبر 1990

وُجدت فيرا باتاييه، ابنة المفوّض الشهير في فرقة مكافحة الجريمة في مارسيليا، حبيسة سيّارة والدتها حيث لم تتمكّن من الخروج إلى أن اختنقت حتّى الموت داخل السيّارة الحارّة.
وقع هذا الحادث المأساويّ – وهو الثاني من نوعه هذا الصيف في منطقتنا – أوّل أمس على مرتفعات أوباغن.

فرنٌ مريع

كانت إليز باتاييه، راقصةً سابقةً في فرقة «باليه مارسيليا الوطني»، تقلّ ابنتها كما كلّ يوم أربعاء إلى الحضانة في أو-كارو. لسبب ما، غفلت عن توصيلها واصطحبتها معها إلى موعدها.
في غضون ذلك، غلب النّوم الفتاة البالغة من العمر أربع سنوات فغفت في الجهة الخلفيّة. كانت الساعة الثانية بعد الظهر.
من المحتمل أنّ السيّدة باتييه نسيت وجود ابنتها وتركتها في

سيّارتها الـAudi 80 المركونة تحت أشعّة الشمس الحارقة في مرأب سيّارات العقار السكني في فال-كلاريه.
حوصرت الفتاة في ما يشبه فرنًا حقيقيًّا، ممّا سبّب فقدانها للوعي أثناء نومها. لم تدرك الأمّ خطأها حتّى الساعة الخامسة والنصف مساءً. مذعورةً، هرعت إليز باتاييه إلى مركز الإطفاء في لا بوياديس، لكنّ رجال الإطفاء لم يتمكّنوا من فعل أيّ شيء. كانت الطفلة قد ماتت منذ فترة طويلة.

متلازمة الطفل المنسيّ

كثيرون هم الأطفال الذين يلقَون حتفهم في فرنسا كلّ عام، خاصّة في الأيّام الحارّة، بعد نسيان آبائهم لهم في السيّارات الساخنة. وغالبًا ما تصيب هذه المأساة المعروفة باسم «متلازمة الطفل المنسيّ»، الآباء اليقظين والمحبّين الذين لا يجدون تفسيرًا لهذا «النسيان» سوى الإجهاد أو التعب.
«تتحوّل السيّارة إلى فرن حقيقيّ عندما تبلغ درجة الحرارة الخارجيّة 40 درجةً مئويّةً وقد تصل أحيانًا إلى 70 درجةً مئويّةً»، تُذكّر آنابيس تراكاندي، رئيسة قسم طبّ الأطفال في مستشفى تيمون. «هي ظاهرة تتفاقم عند الأطفال الصغار الذين ترتفع حرارة جسمهم بوتيرة أسرع من البالغين حيث إنّ مخزون المياه لديهم محدود للغاية»، تشرح طبيبة الأطفال.

اعتقال الأمّ على ذمة التحقيق

فتح المدّعي العام في مرسيليا تحقيقًا في جريمة القتل غير المتعمّد. وقال مصدرٌ قريبٌ من التحقيق: «في الوقت الحالي، تبدو فرضيّة الحادث هي الأكثر ترجيحًا». لم يكن أحدٌ من السكّان قد لاحظ أو سمع شيئًا. وأوضح المدّعي العام قائلًا:

«يُظهر تشريح جثّة الفتاة أنّ الجفاف كان سبب الوفاة. ولا تبدو أيّ آثار للضرب أو العنف أو أيّ علامة مشبوهة على جسدها».

بعد إدخالها إلى المستشفى مساء الأربعاء في حالة نفسيّة مقلقة، احتُجزت السيّدة باتاييه في مقرّ الشرطة ظهر يوم الخميس، لكن سرعان ما أُطلق سراحها. لم يكن لديها أيّ تفسير للمأساة باستثناء لحظة شرود ذهن رهيبة.

إليز باتاييه، البالغة من العمر 38 عامًا، كانت راقصةً عابرةً في فرقة «باليه مارسيليا الوطني». وقد وُضِع زوجها، مارك باتاييه، المفوّض في فرقة مكافحة الجريمة في مارسيليا، تحت الأضواء في وقتٍ سابق من هذا العام بعد أن توصّل فريقه إلى اعتقال القاتل راينالد فيفيركورن الملقّب بـ«البستاني» الذي أدمت جرائمه منطقة مارسيليا لعدّة أشهر.

JE SAIS QUE VOUS
AVEZ UNE RELATION
AVEC ELISE BAILLEY
SI VOUS N'Y METTEZ
PAS FIN SON MARI
ET VOTRE FEMME
L'APPRENDRONT
ÉGALEMENT.

8

العالم عكس ما هو عليه

ديونيسوس هو سيّد الأوهام، وهو قادر على [...] جعل أتباعه يرون العالم عكس ما هو عليه.

دونا تارت

.1

باريس، الساعة التاسعة مساءً.

ما كادت روكسان تدفع باب برج الساعة حتّى استعادت ذلك الإحساس اللطيف «بالعودة إلى المنزل»، عزّزه البرد القارس في الخارج. كانت المنارة عبارةً عن فقاعة حراريّة مشرنقة. وضعت عند المدخل، وبوتين يحوم حولها، الملابس الاحتياطية التي اشترتها من بون مارشيه في طريق عودتها من المطار، مباشرة قبل موعد إغلاق المتجر: ملابس داخلية، سروال جينز، تي شيرت بأكمام طويلة، سترة، بيجاما قديمة الطراز من الساتان القطني ودانتيل كاليه. كانت رحلة تسوّق كلّفتها نصف راتبها. وما زاد الطين بِلّة شراؤها وسادةً

كبيرةً من ريش الإوزّ للتعويض عن تخشّب الأريكة. صعدت بعدها مباشرة إلى مكتب مارك باتاييه السابق، الذي باتت تعتبره الآن ملكًا لها. هناك، وجدت مفاجأةً في انتظارها: لم تكن فالنتين هنا فحسب، بل كانت أيضًا قد طلبت وجبتين من مطعم لوكا الإيطالي في الجهة المقابلة للشارع. متأثرةً بهذا الاهتمام، التهمت روكسان بشراهة علبة الماكاروني بالكمأة مع ما تبقّى من النبيذ الأبيض من اليوم السابق.

كانت أجواء الوجبة شأنها شأن الطعام: سخيّةً ومريحةً.

بدأت روكسان في إخبار الطالبة أوّلًا عن لقائها المتوتّر مع رافاييل.

– إذًا، كيف وجدتِه؟

– مصابٌ بكلّ أنواع الجنون. هل كنتِ على علم بأنّ ميلينا بيرغمان كانت حاملًا وقت الحادث؟

– نعم، أخبرني مارك بذلك. بالنسبة إليه، كان ألم الحادث مضاعَفًا: خسر في آن واحد زوجة ابنه المستقبلية وحفيده المستقبليّ.

– أو حفيدته المستقبلية.

– وما يزيد الأمر غرابة، أبلغني مورس أنّ الفتاة التي انتُشلت من النهر هي أيضًا حامل.

– كما لو أنّ الزمن توقّف لعامٍ كامل وظهرت ميلينا مجدّدًا في نفس الحالة التي كانت فيها قبل تحطّم الطائرة مباشرة.

– أتصدّقين ذلك فعلًا؟

– إلى أن يُثبت العكس.

فيما كانتا تتناولان التّحلية، سألت روكسان شريكتها عن فنّاني الوشم.

– صحيح، لـديّ بعض الأخبـار! أمضيت فترة ما بعد الظهر في البحث، مسترشدةً بالحدس: لا ينبغي النظر إلى اللبلاب وفرو الحيوان بشكل منفصل، ولكن كمجموعة رمزيّة.

– أوافقكِ الرأي.

– كان تداعي الأفكار هـذا بمثابة الوحي، فخطرت في بالي فكرة. تذكّرت أنّنا غالبًا ما نجد هذين العنصرين في الميثولوجيا الإغريقية، خاصة أنّهما يُنسبان إلى ديونيسوس وحاشيته.

– نشّطي ذاكرتي، طلبت منها روكسان التي ربض الهرّ على ركبتيها وراح يخدش فخذيها من خلال بنطال الجينز.

– ديونيسوس هو أحد الآلهة الأولمبيّة الاثني عشر. يُعرف عـادةً بأنّه حـامي الكرمة والنبيذ. والأمـر صحيح إلّا أنّـه مبسّط بعض الشيء. فهو قبل كلّ شيء إله السُّكر والدمار والمعصية. إله الإسراف والجنون.

تذكّرت روكسان صفوفها التحضيريّة الأدبيّة. تداخلت الصور في رأسها: التألّق الإلهي لدى زيوس، الحيل المخادعة للآلهة، الشرّيرة والخسيسة، استنزاف عشرات الساعات على نصوص وموضوعات يونانية، حرب طروادة التي لم تنتهِ أبـدًا، وحيل أوديسيوس الذي استغرق كلّ وقته قبل العودة إلى بينيلوب...

– ديونيسوس هو الإله الوحيد المولود من أمّ بشريّة، تابعت فالنتين. كان زيوس قد أغوى الحسناء سيميل فأصبحت عشيقته. وفيما كانت تحمل طفلهما، طلبت من حبيبها أن يظهر لها بهيئته الإلهيّة. لكن رؤية زيوس بنيران البرق أحرقتها حيّة. بصعوبة كان لـدى زيـوس الوقت لاستخراج الجنين من رحـم سيميل وخياطته في فخذه إلى حين اكتمال نموّه. وهكذا ولد ديونيسوس من اتّحاد الأرض والبرق.

من هنا، كانت عبارة «وكأنّه مولود من فخذ جوبيتير»[1]، تذكّرت الشرطية.

– بعيدًا عن الإله بذاته، كُتب الكثير عن عبادة ديونيسوس، إذ دائمًا ما كان لديه جانب من الزّندقة والانحطاط، أكملتْ فالنتين.

تكشّفت الذكريات لدى روكسان بشكل أوضح. صور العربدة في الأحراج، احتفالات الباخاناليا، حوريّات يقدّمن أنفسهنّ إلى ساتيرٍ شبق. أو، لنقلها بصراحة أكثر، حفلات الجنس الجماعيّ الضخمة وسطَ الغابة.

– سحَر ديونيسوس النساء اللواتي صادفهنّ واستولى عليهنّ بسحرٍ وهميّ ليصبح معبودهنّ. وكان ما إن يسيطر عليهنّ حتّى يجرهنّ إلى الغابة للانغماس في طقوس العربدة. سُمّيت تلك النساء بالمينادات. مكرَسّات بالكامل لعبادة ديونيسوس، شكّلن مع ذكور الساتير ما يشبه الحاشية التي رافقت إله السُّكر أينما ذهب.

على الرغم من تلهّفها إلى حديث الطالبة، أعادت روكسان تركيز المحادثة على الهدف الرئيسي.

– ما العلاقة بوشم مجهولة نهر السين؟

– سوف أصل إلى ذلك. في القصص والصّور، غالبًا ما ترتدي المينادات ورجال الساتير إكليلًا من زهور اللبلاب وجلد حيوان على شكل توجة أو معطف ويكون عادةً من جلد فصيلة الأيائل: غزال، ظبي، شادن...

– وإلامَ يرمز جلد الحيوان؟ القوّة الحيوانيّة؟

– تمامًا. قوّته واندفاعه. في الأساطير، يتكوّن هذا الجلد من بقايا حيوان طاردته واصطادته المينادات ومزّقته إربًا في حالة نشوة.

[1] être né de la cuisse de Jupiter، عبارة بالفرنسية تقال عن الشخص المتفاخر الذي يرى نفسه متفوّقًا على الآخرين.

– هذا مثيرٌ للاهتمام، لكنّه بعيد قليلًا عن قضيّتنا، أليس كذلك؟

ارتسمت على وجه فالنتين ابتسامةٌ غامضة.

– عدا عن أنّي اكتشفت شيئًا آخر.

نهضت الطالبة عن الأريكة – كانت المرأتان قد تناولتا العشاء جالستين على أريكة التشيسترفيلد، أمام الطاولة المنخفضة الصغيرة – وخطت بضع خطوات باتّجاه المكتب الكبير الغارق تحت الكتب والملفّات.

– اشترى مارك باتييه مؤخّرًا كتبًا عن ديونيسوس.

– هل أنتِ جادّة؟

أشارت فالنتين إلى كيس من القماش طُبع عليه شعار بومة عند أسفل طاولة العمل.

– لا يزال الإيصال في أسفل حقيبة التسوّق. أربعة كتب تم شراؤها من مكتبة غيوم بودي يوم السبت 21 كانون الأوّل.

انضمّت روكسان إلى طالبة الدكتوراه بالقرب من المكتب. على طاولة العمل، وُضعت كتبٌ تخبر عناوينها عن محتواها: ظلّ ديونيسوس، ديونيسوس وإلهة الأرض، ديونيسوس وفتيات الميناد، ديونيسوس: الإله المجنون.

فتحت الكتب وقلّبت صفحاتها: طُويت بعضها وكُتبت التعليقات على بعضها الآخر فيما وُضع خطّ تحت كلمات محدّدة كما لو كان الشرطي يُعدّ بحثًا أكاديميًا. مستحيلٌ أن تكون مصادفة.

– أظّن أنّكِ كشفت أمرًا هامًّا، اعترفت لها روكسان. نحتاج إلى معرفة الدافع وراء إجراء مارك باتاييه هذه الأبحاث. ألم يخبرك عن هذا الأمر أبدًا؟

– فكّرتُ في الأمر، لكن لا. الشيء الوحيد الذي لاحظته هو أنّه في الأسبوعين الماضيين كان دؤوبًا أكثر على العمل.

– منشغلًا بقضيّة ما؟

– ربّما.

– سأذهب إلى المكتبة غدًا لمعرفة ما إذا كان باتاييه قد ثرثر قليلًا هنا وهناك.

– ماذا عنّي؟ أيمكنني فعل شيء آخر؟

فكّرت روكسان لبضع ثوانٍ.

– أودّ أن تقومي بزيارة ميدانيّة إذا استطعتِ.

سحبت هاتفها وفتحت تطبيق إنستغرام، تحديدًا على حساب كانت قد رصدته أثناء توقّفها في نيس.

– أقدّم لكِ كورنتين لولييفر، صحفي حرّ في ويك أند. هو الذي كتب المقال عن رافاييل وميلينا.

انحنت فالنتين نحو الشاشة. كان رأس الصحفي مستديرًا كالكرة، وعيناه صغيرتين، لديه لحيةٌ خفيفةٌ وبداية صلع ظاهر جدًّا حاول إخفاءه تحت قبّعة بيسبول في نصف صوَره. كان يميل أيضًا إلى ارتداء قمصان تحمل رسائل مثل:

أفضّل المشروبات على الأوبرا؛ لا يمكنك إرضاء الجميع، لست نوعًا من الحلوى؛ نحتاج أرضًا سعيدة[2].

– واو! كم هو مزعج، ابتسمت فالنتين أثناء تصفّحها للمنشورات.

سردت معظم الصور تنقّلات الصحفي في الحياة البورجوازية. أعطى الرجل انطباعًا بوجوده الدائم في المقاهي حيث يصوِّر، إلى درجة الغثيان، ألواح الشاركوتيري وأطباق البوراتا وزجاجات البيرة العضويّة. سمح الموقع الجغرافي لمنشوراته بتحديد نطاق معظم

[2] Je préfère l’apéro à l’opéra ; Tu ne peux pas rendre tout le monde heureux, tu n’es pas une gaufre ; Besoin d’une Terre Happy.

ولائمه ضمن حانتين: ليزانفان تيريبل في كيه دو جيمابيس ولو بوتليغر في ضاحية سان دينيس.

– ماذا تريدين أن أفعل؟

– أن تحاولي التواصل معه.

– متخفّية؟

تبسّمت روكسان.

– العبارة قويّة بعض الشيء، لكن هذه هي الفكرة، نعم.

– عمّ نبحث بالضبط؟

– أمران: من أين اختلس معلوماته لكتابة المقال ولمَ لا يزال يحوم حول رافاييل؟

– حسنًا، يمكنني فعل ذلك.

– الأهمّ ألّا تخاطري وتؤدّي دور البطلة. لا أطلب منك أن تمارسي الجنس معه.

انفجرت فالنتين ضحكًا.

– سيكون هذا صعبًا.

– من الجيّد أن تذهبي وتتفقّدي مكانه الليلة. لم ينشر أيّ صورة حتّى الآن على صفحاته، لكنّ هذا لا يعني أنّه ليس في إحدى حانتيه المفضّلتين.

– سأُعلمكِ بكلّ جديد! قالت وهي ترتدي خوذتها وسترتها.

انتظرتها روكسان لتغادر، محاولةً عدم تتبّعها بعينيها. كانت هذه الفتاة تؤثّر فيها إلى حدّ يفوق المنطق، وكانت عفويّتها وابتسامتها معديتان. في كلّ مرّة تكون فيها مع فالنتين كأنّها حُقنت بجرعة من الإندورفين في قلبها. لسوء الحظ، لم يدم هذا التأثير في غيابها. فما إن تتوارى الشابّة حتّى تلمس روكسان النقص الذي خلّفته.

2.

في الحمّام الصغير، استحمّت وغسلت شعرها ثمّ نظّفت أسنانها قبل أن تلبس البيجاما الجديدة. هذه الليلة أيضًا، قرّرت عدم العودة إلى المنزل، حفاظًا على مجرى وإيقاع التحقيق.

سخّنت الماء لتحضير الشاي بالأعشاب وأطعمت صديقها الجديد الهرّ، ثمّ عانت مع أجهزة التدفئة لنيل درجة الحرارة المناسبة. وقبل أن يتأخّر الوقت، هاتفت طوارئ الطبّ الشرعي في أوتيل ديو للتحدّث مع جاك بارتوليتي، الطبيب الأوّل الذي عاين ميلينا. لم يكن مقدّم الرعاية في الخدمة هذا المساء، لكنّها تمكّنت، بعد الإلحاح، من الحصول على رقمه الشخصي. أقلّ ما يقال إنّ طبيب الطوارئ لم يبدُ سعيدًا البتّة بإزعاجه في منزله.

– ألا يمكن أن أشاهد مباراة كرة قدم بسلام بعد ستّ وثلاثين ساعة من المناوبة؟

حاولت روكسان التأثير عليه.

– اليوم الثلاثاء، لا كرة قدم على التلفاز.

– صحّحي معلوماتك: ماريسيليا-لانس، مباراة الملحق لليوم التاسع.

– لديك ما يكفي من الشجاعة لدعم مارسيليا هذه السنة.

– أدعم «الدّم والذّهب». لمَ تزعجينني في الساعة العاشرة ليلًا؟

– لديّ بضعة أسئلة عن المرأة التي عاينتَها صباح الأحد.

– الشقراء التي حوّلتها إلى الـI3P؟

– أجل.

– ولا يسعك الانتظار حتّى صباح الغد؟

– لا. هل لاحظت وشومها؟

أخذ مؤيّد فريق لانس بعض الوقت للتفكير.

– نعم. إن لم تخنّي الذاكرة، أثار هذا الأمر قلق غوّاصي فريق الإنقاذ النهري، ولم يكونوا مخطئين.

– لماذا؟

– لأنّ الوشوم بدت حديثةً جدًّا وكأنّها نُفذّت على عجل بعض الشيء. كان الرسم مهتزًّا وغير متناسق. من الواضح أنّ من رسمها لم يكن شخصًا محترفًا، فضلًا عن العواقب المحتملة لذلك على المستوى الصحي.

– هل تعتقد أنّها رُسمت بالإكراه؟

– ممكن. ولكي أكون صادقًا، كان هذا أوّل ما تبادر إلى ذهني.

– هل حمل جسدها آثار عنف أخرى؟

– كلّا. بحثت عن علامات إبر محتملةٍ لكنّي لم أجد أبدًا. في حال كانت الفتاة تتعاطى المخدّرات فهي لم تفعل ذلك عن طريق الحقن.

كان لدى روكسان سؤال أخير.

– هل لاحظت ما إذا...؟

– اللعنة، لقد فاتني الهدف بسبب تفاهاتك! كم أنتِ مزعجة! قاطعها طبيب الطوارئ صارخًا بغضب.

أنهى المكالمة مستشيطًا غضبًا، فارتأت روكسان أنّه من غير المستحسن معاودة الاتصال به.

عوضًا عن ذلك، كدّست كتب ديونيسوس ووضعتها على الطاولة المنخفضة بجانب الأريكة. تناولت قلمًا ودفترًا ثمّ جلست متربّعةً على أريكة التشيسترفيلد فيما بوتين مستريح خلف ظهرها، وانغمست في الكتب والملاحظات التي خلّفها باتاييه.

وجدت فالنتين شيئًا، كان ذلك مؤكّدًا. طرف خيط مبهم لكن مثير. في البداية، اكتفت روكسان بالنظر إلى الرسومات. كان ديونيسوس، إله الفوضى والشذوذ والغضب، يُصوَّر في أغلب الأحيان على عربة تجرّها الفهود، مرتديًا معطفًا تقليديًّا من جلد الماعز أو الوشق. كان يحمل صولجانًا شبيهًا بعصا ثيرسوس ملفوفًا بأوراق اللبلاب ويعلوه مخروط من الصنوبر. أمّا خلفه، فيظهر موكبه الرهيب: ذكور الساتير الشهيرين أوّلًا، أنصاف رجال، أنصاف ماعز، رسل الحياة الوحشيّة والشهوانيّة، والذين ترتسم على وجوههم أبشع أنواع التعابير. ثمّ نساء الميناد الفاتنات، المصابات بلوثة ديونيسوس، منتشياتٌ، ممسوسات.مكتبة .. سُر مَن قرأ

انتقلت روكسان بعدها إلى النصوص وتصفّحت المقاطع المتعدّدة التي سطّرها باتاييه. عن طريق جمع المعلومات، ارتسمت صورةٌ مذهلة لشخصيّة أسطورية عرفتها بمشقّة. في البانثيون، كان ديونيسوس إلهًا غير عادي. الإله الوحيد الذي كان لا يعيش في جبل أوليمبوس. كان صعب المنال، مشرّدًا، يتنقّل مقنّعًا، يتجلّى في تجلّيات إلهيّة، يظهر ويختفي دون سابق إنذار، متفشّيًا مثل وباء يصعب احتواؤه.

أينما ذهب، زرع ديونيسوس الرعب والموت بين أولئك الذين رفضوا الخضوع لعبادته. قد تكون دراما الباكوسيات للروائي المسرحي اليوناني يوريبيديس أفضل ما يصوّر الشخصيّة وتعطّشها للانتقام. مع عودته إلى مدينة طيبة التي وُلد فيها، أراد ديونيسوس معاقبة خالته أغوئي التي أساءت إلى والدته، وكذلك ابن خالته بنثيوس، ابن الملك، الذي لم يعترف به كإله. فتمكّن، برفقة المينادات، من أن يوقعها في حالة سُكر. مأخوذة بنوع من النشوة

المجنونة وغارقة في الهلوسات، انتهى بها الأمر إلى قطع رأس ابنها وجرّه حول المدينة معلّقًا على رمح.

قلبت روكسان الصفحات بحماس جنونيّ. أثارت قصة الميناداات اهتمامها بشكل خاصّ إذ رأت فيها مدخلًا محتملًا إلى قضيّتها. كانت «ميلينا» في حالة صدمة، موشومةً – بلا شكّ ضد إرادتها – بإكليل من اللبلاب وفرو حيوان، السِّمتان الرئيسيّتان لمتعبّدات ديونيسوس. كان للإله القدرة على الاستيلاء عليهنّ، و«امتطائهنّ»، كما يذكر أحد المقاطع التي سطّرها باتاييه، بهدف تملّك أرواحهنّ وأجسادهنّ. فما أن يصبحن تحت سيطرته حتّى يعشن في عالم المظاهر والأوهام، فريسات للهذيان والهلوسة. ممسوسات بجنونٍ مسعور قادر على جعل المرء يرتكب أبشع الفظائع بدمٍ بارد إرضاءً لعبادة الإله. تحدّثت النصوص عن حيوانات بريّة بُقرت أحشاؤها، وعن أطفال مذبوحين ومقطّعين، وعن تضحيات بشريّةٍ دمويةٍ تمجيدًا لمن كان يُلقّب بـ«آكل اللحم النّيء».

.3

اقتلعها اهتزاز الهاتف من بين كتبها. نشر الصحفي المصاب بالصّلع المبكر، كورنتين لوليفر، صورةً جديدةً على إنستغرام. كانت لقطةً جماعيّةً من مطعم لو بوتاجيه دو ماريه. كان لوليفر يرتدي قميصًا أسود منمّقًا بتلاعب ألفاظٍ مدروس: «درّاجٌ آجل خير من درّاجٍ عاجل»[3]. جالسًا مع أصدقائه حول طبق من البابيلا النباتية، كان ينظر إلى عدسة الكاميرا بابتسامة عريضة. على الطاولة، لمحت روكسان

[3] Vieux motard que jamais بالإشارة إلى عبارة Mieux vaut tard que jamais والتي تعني «أن تأتي متأخرًا خير من ألّا تأتي أبدًا».

فالنتين. أحسنتِ عملًا، قالت في نفسها. لم تضيّع طالبة الدكتوراه الوقت. من المرجح أنّها رصدت لوليبفر في إحدى الحانات في الدائرة العاشرة وانخرطت بدهاء في مجموعة البورجوازيّين البوهيميّين.

مسرورةً، عادت وانغمست في الكتب التي كانت تفيض بالضوضاء والهيجان. هيجان الإله والمينادات، الواقعين تحت تأثير نشوة تنحو إلى الجنون، والماضين فيها مدمّرين كلّ ما في طريقهم. أنوثةٌ ساحرةٌ ومخيفةٌ، النقيض التامّ للنموذج الذي تبجّله المدينة، أي الأم، اللطيفة والصامتة، المتفانية تمامًا لعائلتها.

كان لعنف هذه الأساطير تداعياتٍ خلال العصور القديمة، إذ مارست الحاشية، التي تجمع أتباع وخدم ديونيسوس، على مرّ التاريخ، العبادة الغامضة في احتفالات سريّةٍ ومنحطّةٍ تنطوي على استهلاك الكحول والمخدّرات والتجاوزات الجنسيّة.

طارت من الفصل ورقة مطويّة إلى نصفين وحطّت على الأرضيّة الخشبيّة. هرع الهرّ للاستيلاء عليها لكنّ روكسان كانت أسرع منه في التقاطها. كانت نسخةً – صوّرها باتاييه بلا شك – لمقتطف من تقرير صادر عن البعثة الوزاريّة لليقظة ومكافحة الانحرافات الطائفيّة. بدا أنّ الشرطيّ قد وسم فقرةً تشير إلى إعادة إحياء معاصرة للعبادة الديونيسوسية. افتقرت البعثة إلى المعلومات لكنّها أفادت بوجودٍ – متواضع حتّى الآن – لبضع مجموعات منظمّةٍ في حاشيات، اتّخذت هذه الذريعة الأسطورية تبريرًا لانتشائهم وسكرهم وعربدتهم.

قلبت روكسان الورقة. في الجزء الخلفي من الصفحة، خربش باتاييه بنفسه بضع جمل، كنوع من المذكّرات:

إدراك أنّ عبادة ديونيسوس تقوم على انحلال القيم وتخريب النظام. ديونيسوس هو عدوّ ضبط النفس والاعتدال. إنّ تمجيد

ديونيسوس هو بمثابة تذوّق النشوة التي وحدها تسمح بتعطيل عمل العقل والهروب عن العالم، بعيدًا عن الواقع الخسيس. فالعالم الحقيقي يُخضعنا. هو مصنوع فقط من مشقّة وقمع. السُّكْر – بمعناه الواسع: الكحول، المخدّرات، الفنّ الشامل – هو الباب لبلوغ بعدٍ جديد. يتيح السُّكر التأرجح في الحياة الواقعية. إنّ تمجيد ديونيسوس يعني إذًا قبول سلطة السُّكر والنشوة. الاستسلام للدّوار، لفقدان السيطرة، لكلّ الإساءات، إزالة كلّ الموانع. التخلّي عن الامتثال للمعايير، الانفتاح على الآخر، على الاختلاف. إنّ السُّكر هو الذي يجيز للإنسان، لبضع ساعات، أن يرتقي ويصاحب الآلهة.

على الرغم من اهتمامها الشديد، شعرت روكسان بالنعاس يغلبها بلا رحمة. شوّشها تدفّق المعلومات الجديدة فاحتاجت إلى النوم لتخزينها في دماغها. رغم أنّها لم تحرز أيّ تقدّم ملموس، كانت متيقّنة من التوصّل إلى أمرٍ مذهل. لقد تغيّرت طبيعة القضيّة شيئًا فشيئًا. لم يعد يقتصر التحقيق على الاختفاء فحسب. كانت تلعب جولة شطرنج مع خصم قاسٍ وشرس. ديونيسوس، ربّ الأوهام، ابن زيوس. الإله المجنون.

الأربعاء 23 كانون الأوّل

9

ظلّ ديونيسوس

لو أنّك هنا. تطرقين الباب. وتقولين لي: «هذه أنا. خمّن ما أحضرت لك». وتحضرين لي نفسك.

بوريس فيان

.1

ثقب جرس الإنـذار طبلة أذنـي. شعرت بحربة تنغرز في صدري وتسحبني من نومي العميق. انتصبت في السرير مرتبكًا ولاهثًا. استغرق الأمر عدّة ثوانٍ لكي أسلّم بأنّ شخصًا ما اقتحم للتوّ المنزل. نهضت على مهل ثمّ تقدّمت مترنّحًا وأنا أتحسّس مكان الزرّ الكهربائي، فتعثّرتُ بحقيبة السفر وانتهى بي المطاف منبطحًا على الأرض.

اللعنة. وقفت متهاديًا، كنت عالقًا في مـأزق، فيما صوت الصفّارة لا يزال يخترق طبلة أذني. كانت ليلةً فظيعةً. كوابيس، صداع نصفي وأرق حتّى الخامسة والنصف صباحًا. لم تفارقني صورة ميلينا

بيرغمان لحظة واحدة. بمشقّة تمكّنت من العودة إلى النوم ساعتين ليأتي هذا التسلّل ويقتلعني من السرير.

ما كدت أستجمع أفكاري حتّى فرضتْ صورتها نفسها مرّةً أخرى. تسارعت نبضات قلبي. الزرّ الكهربائي، أخيرًا. الضوء. الألواح الخشبية تحت أقدامي. الدّرج العائم إلى الطابق الأرضي.

واصل جرس الإنـذار طنينه، لكنّ الصالون كان خاليًا والباب الزجاجيّ، نقطة الدخول الوحيدة إلى المنزل، مقفل بإحكام. أهو إنـذار خاطئ؟ هـذه ليست المرّة الأولـى التي يحصل فيها خلل في نظام المراقبة. أدخلتُ الرّمز لإطفاء صفّارة الإنذار. كان الفجر قد بدأ ينبلج. أزرق، شاحب، أشبه بالحلم. ظهر تموّج ضباب جليديّ خفيف فوق الحديقة المتجمّدة بفعل برودة الصباح الباكر. وبدت الأغصان الغامقة العارية للأشجار كالخطوط السوداء في سماءٍ بدأت تنطفئ فيها النجوم. فركت عينيّ لأتخلّص من النعاس الذي ما زال يغلبني ثمّ قمت بجولة تفقديّة أخيرة في الطابق الأرضي.

على الرغم من الهدوء السائد، لم أشعر أبدًا بالارتياح. أحسست مجدّدًا بأنني أسير الأغصان والنباتات التي طوّقت المنزل. كانت انعكاساتٌ متحرّكة باستمرار تخترق الألواح الزجاجيّة وتتداخل مع بعضها البعض بانسجام تامٍّ فتخلق صورًا مزعجة.

علا صـوتٌ يصمّ الآذان جعل الجـدار الزجاجيّ ورائـي يرتجّ. استدرتُ، جاءت الضربة من الجزء الخلفيّ للمنزل المطلّ على أشجار الغار الكثيفة وعلى الصّوبات الزراعية في الحديقة النباتية لكليّة الصيدلة. في هذا الوقت من النهار، بدا المكان كمسكن للأشباح. تَغطّى سياج الشجيرات المتجمّد بمسحوق أبيض فأعطى انطباعًا بالوجود في موقع تصوير لأفلام هامر، تسكنه مخلوقات طيفيّة.

فجأةً، تجسّد ظلّ وهبطت يد على اللوح الزجاجي. تراجعت مذهولًا وأطلقتُ صرخة. استغرق الأمر منّي بعض الوقت لأعترف أنّها كانت هي. «ميلينا». كانت خائفةً، مذعورةً، شعثاء، عاريةً إلّا من قميص نوم، تتوسلّ إليّ للسماح لها بالدخول.

– رافاييل، افتح لي!

على الرغم من كتمان صوتها بفعل الزجاج السميك إلّا أنّه كان مرتعدًا من الذعر. قرّبت المفتاح الإلكتروني الذي كنت قد وضعته في صينيّة للأغراض بالقرب من المدخل نحو جهاز الاستشعار غير أنّه لم يصدر أيّ نقرة وبقي الباب مغلقًا.

– أسرع!

أعدتُ الكرّة لكنّ القفل الرقميّ لم يفتح. لماذا؟

– أسرع، أتوسّل إليك!

كانت المرّة الأولى التي أُحتجز فيها بالداخل. من المحتمل أن يكون اشتغال جرس الإنذار قد عطّل النظام الإلكتروني اللعين الذي يتحكّم في فتح المنزل.

حدّقتُ في عينيها وبذلت قصارى جهدي لأحافظ على هدوئي محاولًا عدم إخافتها أكثر.

– سنجد حلًّا...

مكتبة
t.me/soramnqraa

– إنّه قادم، رافاييل! إنّه قادم!

عمّن كانت تتحدّث؟ أمعنت النظر بشدّة حول الحديقة، لم ألمح أحدًا. لكنّي استطعت أن أرى الرعب في عينيها. هرعت مجدّدًا إلى صينيّة الأغراض لأخذ هاتفي وبطاقة العمل التي حصلتُ عليها في اليوم السابق. كنت بحاجة للمساعدة ولم أفكّر سوى برقم واحد للاتّصال به.

2.

كانت ليلة روكسان سيّئةً للغاية. فتحت عينيها عند الرابعة والنصف فجرًا وهي تتصبّب عرقًا بعد سلسلة كوابيس مضطربةٍ مليئةٍ بشخصيّات الساتير الميتولوجية الشبقة وبالضراوة وبفنانّي الوشم المجانين. أصابها هوس من قراءاتها في الليلة السابقة فراحت تتقلّب مرارًا وتكرارًا على الأريكة دون أن تتمكّن من العودة إلى النوم. ثمّة فكرة تعذّبها: عليها التمعّن في تحرّكات مارك باتاييه في الأيام التي سبقت الحادث الذي تعرّض له. من الواضح أنّ الشرطي كان يجري تحقيقًا مرتبطًا بالأساطير. لكن ما كان الغرض من أبحاثه وما علاقتها بميلينا بيرغمان؟ في الوقت الحالي، لم تجد سوى طريقةٍ واحدةٍ لمعرفة ذلك.

خرجتْ في البرد القارس الذي صاحب نهاية هذه الليلة متّخذةً رياضة الركض ذريعةً. نزلت بخطوات كبيرة شارع دو سيفر وشارع لوكورب باتّجاه مقبرة فوجيرارد لتصبح مباني بومبيدو في الخلف تمامًا. كان الصباح قد بدأ ينبلج عندما دخلت الأتريوم. على عكس اليوم السابق، ما زال المستشفى الأوروبي في حالة سبات. سمح السقف الزجاجيّ بتسلّل ضوءٍ ساطعٍ أبيض زاد من كآبة المكان. توجّهت مباشرةً إلى قسم العناية المركّزة. المصعد. الأروقة شديدة الحرارة. رائحة الطعام والموت. مفاوضات مع الممرّضة المساعِدة لدخول الغرفة رقم 18، ورفض لطلب «خمس دقائق، لأغراض التحقيق». تجاهلت روكسان الأمر مدركةً أنّ الفتاة ستعود حتمًا برفقة زملائها أو أفراد الأمن. عليها الاستعجال. نظرةٌ سريعةٌ إلى الشرطي. كان مستلقيًا على ظهره في الوقت الراهن، بشعرٍ مبعثر ولحية كثّة، وكان مدفونًا تحت أنابيب القسطرة وجهاز المراقبة وجهاز التنفّس الصناعي. فتحت الخزانة وبحثت في جيب المعطف الجلديّ لتعثر

على ما أتت من أجله: هاتف الآيفون الخاص بباتاييه. كانت علامة البطارية حمراء، على وشك أن تفرغ. لحسن الحظ أنّها توقّعت ذلك فأخرجت شاحنها من جيبها ووصلت الجهاز بالقابس الكهربائي قرب السرير. كان نموذجًا حديثًا بميزة التعرّف على الوجه. وجّهت الشاشة باتجاه وجه الشرطي الجامد وفتحت الهاتف. أكسبها هذا الانتصار بعض الشجاعة فبدأت في الاستكشاف السريع لمحتوياته. البريد الإلكتروني، الرسائل القصيرة، سجلّ التصفّح، الصور... سرعان ما أصيبت روكسان بخيبة أمل. من الواضح أنّ مارك باتاييه لم يقضِ وقته على الإنترنت وكان استخدامه لهاتفه الذكي لأغراض أساسيّة فقط. بعث سجّل المكالمات الهاتفية الأخيرة تفاؤلًا أكبر. أخذت لقطات للشاشة وأرسلتها إلى رقمها الخاص. ثم قامت بالمثل مع تطبيق الخرائط حيث تظهر الأماكن الأخيرة التي سعى باتاييه إلى الحصول على عناوينها. اعتبرت أنّه بات لديها مادة للانطلاق منها، فأعادت الجهاز إلى مكانه وانصرفت.

بخلاف ما خشيته، لم تواجه روكسان أيّ تهديدات في الممرّات. بدأ المرضى يصحون وتمركز مقدّمو الرعاية في أماكن عملهم. لا أثر للرّجل الأحمر البغيض أو الممرّضة المساعِدة. خرجت عبر الدّرج ولجأت إلى مقهى روليه أش الذي رصدته في الأتريوم وكان في هذه الساعة يستقبل الموظّفين بشكل خاص. طلبت على الفور قهوة إسبريسو مزدوجةً للحصول على جرعتها الصباحيّة الأولى من الكافيين ثم جلست على إحدى الطاولات الشاغرة القليلة.

شرعتْ في استكشاف البيانات التي جمعتها من الهاتف. كشف تطبيق رسم الخرائط على الإنترنت أنّه قبل يومين من الحادث، قصد باتاييه شارع رقم 14، جادة مونمارتر، في الدائرة التاسعة. بعثت على الفور برسالة إلى فالنتين طالبةً منها تعقّب هذه المعلومة.

ثم صبّت تركيزها على الأرقام الأخيرة التي هاتفَها مارك. بدا اثنان منها موضع اهتمام. ظهر الرقم الأوّل في قائمة الشرطي تحت اسم فاليري جانفييه. تـردّد صدى الاسم على الفور في ذهن روكسان. كانت جانفييه شرطيّة برتبةٍ عالية، عضوًا سابقًا في فرقة مكافحة الجرائم، مفوّضًا عامًّا، رئيسَ الدائرة الأولى في العاصمة. كانت أيضًا من الشخصيات التي تسلّط عليها المؤسّسة الضوء بانتظام في وسائل الإعلام في تقارير تحكي عن «المرأة في الشرطة». لم يكن باتاييه قد كلّمها مرّتين في الأسبوع السابق فحسب بل إنّ فاليري جانفييه حاولت أيضًا الوصول إلى الشرطي في الساعات الثمانية والأربعين الماضية: مكالمتان فائتتان، لا رسائل.

تـجـرّأت روكـسـان وحـاولـت الاتّـصـال – دون أمـل كبير – بالمفوّض، على الرغم من الساعة المبكّرة. على عكس التوقّعات، ردّت هذه الأخيرة على المكالمة.

– فاليري جانفييه.

بقيت روكـسـان متفاجئةً لبضع ثـوان. في الخلفيّة، سمعت الأصوات المألوفة خلال وجبة فطور عائليّة. آلة صنع القهوة، نشرة أخبار على محطة أر تي أل، شجار أطفال قبل الانطلاق إلى المدرسة.

– صباح الخير حضرة المفوّض، أسمح لنفسي بإزعاجك في المنزل لكي...

– من أنتِ؟

– النقيب روكسان مونكريستيين من الفرقة الوطنيّة للبحث عن الهاربين. أتّصل بخصوص مارك باتاييه.

– في السابعة والنصف صباحًا؟

– مارك في غيبوبة، في المستشفى.

– اللعنة، كيف حدث هذا؟

– تعرّض لحادث خطير للغاية أوّل من أمس. سقوط، ربّما يتعلّق بالقضيّة التي كان يعمل عليها.

بقيت جانفييه صامتةً لبرهة طويلة ثمّ تقدّمت بحذر.

– لمَ أخذتِ المبادرة بإبلاغي؟

– لأنّي أعلم أنّك حاولتِ الاتّصال به في اليومين الأخيرين.

لحظة صمت أطول.

– بأيّ صفةٍ ومن أعطاك الإذن بالاستيلاء على هاتفه؟

– بمبادرتي الخاصّة وخارج أيّ إجراء. لا أحد على علم بذلك.

شعرت بأنّ جانفييه قد ابتعلت الطعم لكنّها بقيت متردّدةً في الطرف الآخر من الخطّ.

– ما الذي تريدينه منّي بالضبط، نقيب؟

أرادت روكسان قبل كلّ شيء الاستحواذ على المعلومات من جانفييه لكنّها حاولت استدراجها.

– أودّ مشاركتك ببعض النتائج التي توصّلت إليها.

من الواضح أنّ الخدعة لم تنطل عليها لكنّ جانفييه قرّرت الدخول في اللعبة.

– لديّ وقت فراغ من الواحدة إلى الثانية ظهرًا. أترغبين في غداء سريع في سيليكت؟

استغلّت روكسان الفرصة وشكرت الشرطيّة قبل إنهاء المكالمة. ظهر رقم آخر مرّتين في سجل مكالمات مارك، لكن لم يكن محفوظًا في القائمة. اتصلت به ليأتيها الردّ من الجهاز الآلي فأقفلت دون ترك رسالة. حاولت البحث في دليل الهاتف لكن دون جدوى. لا بدّ أنّ المراسل كان على القائمة الحمراء. وفيما أخذت تفكّر في إيجاد طريقة للتعرّف على الرقم دون جذب الانتباه، اهتز هاتفها وظهر اسم رافاييل باتاييه على الشاشة.

– رافاييل؟

– تعالي فورًا، من فضلك.

– إلى أين؟

– إلى منزلي، شارع داساس.

– ما الذي يحدث؟

– تعالي، اللعنة! وأخبري زملاءك وسيارة إسعاف!

.3

مذهولًا، أوقعتُ هاتفي على الأرض.

كان المشهد أمامي بعيدًا كلّ البعد عن الواقع.

في المقدّمة، فتاةٌ تقرع بجسدها النحيف الطويل على الحائط الزجاجي. حافيةُ القدمين، شبحيّةٌ، مرتعدةٌ في قميص نومها اللؤلؤي، شعرها الأشقر ينسدل على كتفيها.

في الخلفيّة، صرخاتٌ، بكاءٌ، تنهّداتٌ مختنقةٌ بالخوف.

على بعد مسافة قليلة، بعكس الضوء، في وهج الفجر، ظهر طيفٌ عالٍ. طيفٌ قوطيّ. تبادر إلى ذهني أوّلًا مصّاص الدماء نوسفيراتو: رأسٌ أصلع، وأذنان مدبّبتان ومخالب عند أطراف أصابعه. كانت مشيته بطيئةً ومتقطّعةً لكنّ تقدّمه كان حتميًا. انقضّ الوحش على الجميلة.

استولى عليّ الذعر. ما العمل؟ قرّرت تسديد عدّة ركلات على الواجهة الزجاجية. ركلات بدأت خجولةً لكنّها سرعان ما تحوّلتْ إلى ضربات كونغ فو. اهتزّ الجدار الزجاجي في إطاره دون أن ينكسر.

في هذا الوقت، أصبح الوحش قريبًا جدًّا وتمكّنتُ من رؤيته بقدرٍ أكبر من التفصيل. كنت قد أخطأت في التشبيه عندما قلت

مصّاص دماء. كان أقرب إلى بان، إله الطبيعة في الميثولوجيا الإغريقية. مخلوقٌ وهميّ نصفه رجل ونصفه الآخر ماعز. محدودب الظهر ومنتصبٌ على قدميه الخلفيّتين المغطّاتين بالشّعر، كان للرجل-الحيوان وجهًا ممسوخًا وحاجبين كبيرين كثّين. كما نما من شعره قرنان ملفوفان على بعضهما.

ألقى الساتير الذي التفّ برداء من الفرو بنفسه على فريسته ووجّه أمام ناظريّ عدّة ضربات على خاصرتها مطلقًا زئيرًا مدويًّا. لم يكن في حوزتي أيّ سلاح. بلى، ربّما! كان والدي يخبّئ مسدس MR 73 في درج في غرفته، ركضت ووجدته... لكن دون رصاصات. لا شيء يمكن أن يساعدني حقًا. عالقًا في حالة يأس، أمسكتُ بمحراك النار الذي وُضع للزينة بجوار المدفأة. ضربت بكلّ قوّتي الواجهة بالقضيب المصنوع من الحديد المطاوع. بحركة مسعورةٍ، تابع المجنون توجيه بضع صفعات أخرى قبل أن يرفع ضحيّته المرعوبة على كتفه دون إيلائي أيّ اهتمام. بدأ لوح الزجاج المغشّى في الانهيار. تغطّت أصابعي بالدّم لكنّي ظللت أطرق إلى أن ظهرت فجوة. ثمّ استعنتُ بقضيب النار لتحطيم الجدار الزجاجيّ الذي تداعى فجأةً.

تحرّرت أخيرًا فخرجت حافي القدمين إلى الحديقة بحثًا عن المخلوق الذي وجدته في أوّل الطريق الإسفلتي. جئت من خلفه مسلّحًا بقضيب النار، وتحضّرت لتوجيه ضربة إليه لكنّه استدار فجأةً وتمسّك بطرف القضيب قبل أن ينتزعه من يدي. قابلت نظراته الوحشيّة والمسعورة لثانية واحدة فقط ثمّ وضعت يديّ أمام وجهي لحماية نفسي، لكنّ الضربة أصابتني في مؤخرة رقبتي. شعرت ببشرتي تحترق. ترنّحت فاتحًا فمي لأصرخ، لكن قبل أن يخرج أيّ صوتٍ من حنجرتي كنت قد هويتُ على الأرض.

10

الليل في القلوب

شعرٌ مبلّل، سيقان رشيقة، أثداء محمرّة ومتدافعة، عَرقٌ على الخدود، رغوةٌ على الشفاه، آه يا ديونيسوس، كنّ يبادلنك ما رميته فيهنّ من اتقاد.

أغاني بيليتيس

1.

تموّجت هالات حمراء وزرقاء على القار. في نهاية شارع داساس، امتزجت النعومة البنيّة الذهبيّة لنور الصباح بالأضواء التحذيرية الساطعة المتناثرة. أعاق الانتشار العشوائي لمركبات تعجّ بالشعارات الوصول إلى الحديقة النباتية لكليّة الصيدلة. وُضعت مثلّثات التحذير لتحويل حركة المرور إلى صفّ واحد عند مدخل الطريق 77.

صفقت روكسان باب سيّارة الأجرة وقدّمت بطاقتها للشرطيّ الذي كان يقوم بالحراسة خارج البوّابة. حسنًا، فكّرتْ في نفسها

فيما كانت تنخرط في الدرب المؤدّي إلى البيت الزجاجي، لم تعد هذه قضيّتي.

ما إن تلقّت المكالمة المتّسمة بالذعر من رافاييل، اعتبرت أنّه من الحكمة إبلاغ كلّ من بوتساريس ومخفر الشرطة في الدائرة السادسة، إذ كان وصولها من مستشفى بومبيدو سيستغرق وقتًا طويلًا. كما أنّ الملازم في الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين أبقاها على اطّلاعٍ على مجرى العمليّة. كانت تعلم أنّ رافاييل سليمٌ معافى، لكنّ رجال الشرطة حضروا بعد فوات الأوان ولم يتمكّنوا من منع اختطاف الشابة التي يُعتقد أنّها ميلينا بيرغمان.

غدت أرجاء المنزل أشبه بساحة معركة. رسمت شرائط الحواجز حدودًا شاسعةً لموقع جريمة ينشط فيه أفراد من قسم الأدلة الجنائية. راقبت روكسان المشهد من بعيد في تفقّدٍ للقوى المشاركة. كانت قد حضرت مجموعتها القديمة كاملةً من الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين، مع رجال المديريّة الثالثة للشرطة القضائية – الضفّة اليسرى – الذين من المحتمل أنّهم قدموا في الوقت نفسه. بدا بوتساريس في حالة اضطرابٍ واضحةٍ وهو يتفاوض مع سيرج كابريرا، قائد المديرية القضائية، في محاولة لمواصلة القضيّة. في الخلف، وقف القائد سوربييه منعزلًا، صامتًا، جامد الوجه، تحت ذراعه جريدةٌ مطويّة. على مسافةٍ بعيدة، جلس رافاييل باتاييه على كرسيّ للحديقة ملتفًّا ببطانية الإسعافات الأوليّة، شعره أشعث، سارحًا في الفراغ ومصعوقًا.

أدركت روكسان بالحدس أنّ زملاءها لن يرأفوا بها. ولتجنّب الجلد، وجب عليها الانسحاب من الموقع فاتصلت بفالنتين دياكيتيه.

– هلّا أتيت لاصطحابي على درّاجتك؟

– من أين؟

– شارع داساس أمام بوّابة باتاييه.

– ما الذي حصل؟

– سأشرح لك. كم يلزمك من الوقت للوصول إلى هنا؟

– ربع ساعة إذا انطلقت الآن. معي سيّارة إذا كنت تفضلين ذلك.

– رائع. أفضّل طبعًا.

باغتها سوربييه في اللحظة التي كانت تنهي فيها المكالمة.

– ألهذه الدرجة يصعب عليكِ الابتعاد عن المشاكل، مونكريستيين؟ هذا أقوى منك، أليس كذلك؟ تجذبك المصائب دائمًا.

– في هذه الحالة، يبدو أنّني أنا من يجذبها، لا؟

– سنلعب على الكلمات لاحقًا، عندما تتوقف وسائل الإعلام عن ترصدّنا.

– ما الذي تتحدّث عنه بالضبط، حضرة القائد؟

مدّ لها سوربييه الصحيفة. في الصفحة الأولى من لو باريزيان، عنوانٌ بصيغة سؤال: «من هي مجهولة نهر السين؟» فتحت روكسان الجريدة اليوميّة وتصفّحت المقال سريعًا. تناول التحقيق الذي امتدّ على صفحتين انتشال امرأة شابّة فاقدة للذاكرة من نهر السين، واحتجازها وهروبها من مستوصف مقرّ شرطة باريس. كانت المقالة رديئةً وطافحة بالكلام الفارغ. لم يُذكر اسم ميلينا بيرغمان إطلاقًا. زوّقت الصحفيّة الكثير وأعادت صياغة المعلومات القليلة التي تعرفها – والتي ربّما حصلت عليها من موظفٍ ما في الـI3P، كذاك الوغد أنطوني مورايس. مع ذلك، وقع الضرر. انتشرت القضيّة في الصحافة، ومع حادثة هذا الصباح، بات من المؤكّد أنّها لن تفارق الصفحة الأولى في القريب العاجل.

– هي الفتاة نفسها التي اختُطفت هذا الصباح، أليس كذلك؟ سأل سوربييه.

– لا أعلم أيّها القائد.

– لا تعبثي معي. هل تعرفين ما يعني أن تكون الـI3P في الصفحة الأولى من لو باريزيان؟ لماذا تمنّعت عن إخبارنا قبل الآن؟

– لا، أنا...

رنّ هاتف سوربييه في تلك اللحظة وتنحّى عنها للردّ على المكالمة، معفيًا روكسان من إنهاء جملتها الاعتراضية. انتهزت الفرصة لتبتعد وتقوم بجولة في المنزل. كانت إحدى الواجهات الزجاجية منهارةً بكلّ معنى الكلمة تاركةً فجوةً عملاقةً في البيت الزجاجيّ الذي بات يعطي الآن انطباعًا بالهشاشة وكأنه منزلٌ من ورق. دنت من رفاييل. كان الكاتب تحت مراقبة ضابطٍ من المديريّة الثالثة للشرطة القضائية بانتظار استجوابه مرّةً أخرى.

– أعتذر عن عدم الوصول قبل الآن. الكثير من الكسور؟ قالت وهي تفتح ذراعيها.

تجهّم رافاييل وأزاح بطانيّة الطوارئ ليكشف لها عن الكدمة الممتدّة من أسفل عنقه صعودًا حتّى رقبته.

– الفتاة، هل كانت ميلينا؟ سألته.

ظلّ الكاتب، الذي ما زال مذهولًا ممّا عاشه للتوّ، لائذًا بالصمت.

– والذي هاجمها، أتعرفه؟ ما قصة المخلوق تلك؟ استُخدم المكياج لتحويله إلى ساتير، أليس كذلك؟

كما خشِيَتْ، هرع بوتساريس إليها. لوضع حدّ لمحاولتها لاستجواب أوّلًا، ثمّ لإلقاء محاضرةٍ عليها كما لو كانت فتاةً في الثانية عشرة من عمرها.

– علينا التحدّث، روكسان.

– عليك قبل كلّ شيءٍ التحدّث معي بأسلوب مختلف، هذا مؤكّد.

لم تعجبها لا نبرة ولا تصرّف زميلها السابق. ذاك الشابّ الذي خضع للتدريب على يدها وكان قبل أسبوع لا يزال تحت إمرتها ولم يكن ليشغل منصبه اليوم لو أنّها لم تُستبعد ظلمًا.

– هل تجدين متعةً في قضاء معظم وقتك في توريط زملائك بالمشاكل؟ هاجمها قائلًا.

– عمّ تتحدث؟ لقد اتّصلتُ بك عدّة مرات صباح أمس لأخبرك عن هذه القضيّة. لم أشعر أنّك مهتمّ بها كثيرًا قبل أن تتصدّر الصفحة الأولى من لو باريزيان.

– يا لسوء النيّة!

علمت في قرارة نفسها أنّه على حافة الهاوية لكنّها لم ترغب في تسهيل الأمر عليه. كان على الأرجح هو مَن أدانها أمام سوربييه. بقيت تحدّق بنظرة مساعدها السابق ببرودة. بدا غاضبًا ومنهكًا بشكل خاصّ. كان بوتساريس ربّ أسرة شابًّا. نصّب نفسه مناصرًا للمرأة وأراد أن يكون معصومًا فكان يستيقظ كلّ ليلة لتقديم زجاجات الحليب لابنه البالغ من العمر أربعة أشهر. عرفتْ روكسان أنّه أخذ إجازةً في عيد الميلاد وأنّه يخطط للذهاب وقضاء العطلة في الريف مع أهل زوجته. لقد أفسدت هذه القضيّة مشاريعه لنهاية العام. ولم تكن هي من سيرأف به.

– هل سوف تواصل العمل على هذه القضيّة؟

– نأمل أن نكون قادرين على الانخراط فيها، لكن ليس هناك سوى الضربات، لذا...

– وجدنا شيئًا، بوتسا! ناداه صوت.

ظهر ليام هوانغ ثونغ من وراء سياج أشجار الغار.

– مرحبًا رئيس، قال لروكسان.

– أهلًا ليام.

كان هوانغ ثونغ أحد أعضاء فريقها. في الأربعينيّات ويبدو مرتاحًا في حياته، كان دومًا حسن الهندام، صبورًا بلا حدود وموهوبًا في استخراج الكلام من الأشخاص. لا يحجم أبدًا عن تحمّل أعباء العملَيّات الاستقصائية في الجوار. وهذه المرّة أيضًا، جاءهم بكنز.

– صوّر أحد الجيران مشهدًا جنونيًّا بهاتفه، حارس متحف زادكين، على الجانب الآخر من الطريق. يقول إنّ صفارة الإنذار أيقظته، أوضح وهو يلوّح بالجهاز أمامه.

طوّق روكسان وبوتساريس الشاشة بعد أن شغّل الشرطيّ التسجيل. التُقط المشهد من المبنى المقابل، كان موجزًا لكن صاعقًا. لم يطلق باتييه أخبارًا كاذبة. لقد جاء رجل يرتدي زيّ ساتير بالفعل لاختطاف ميلينا بيرغمان. ظهر خارجًا من الطريق الإسفلتي، غالبًا بعد توجيه الضربة لباتاييه، ثمّ نزل بسرعة في شارع داساس وعازفة البيانو على كتفه. قاومت الشابّة عبثًا ولم تستطع التخلّص من قبضة مهاجمها. بعدها، قام المخلوق، نصف الرجل ونصف الماعز، برميها بعنف في مؤخّرة شاحنة قبل أن يلوذ بالفرار.

– هذا رائع. أعد التشغيل، أعتقد أنّه يمكن رؤية لوحة السيّارة، صرخ بوتساريس.

مشاهدة جديدة. أوحى الفيديو لروكسان بأنّه فيلم من أفلام التسجيلات المكتشفة، باستثناء أنّ أداء هواتف اليوم بات ممتازًا لدرجة أنّ الصورة مليئة بتفاصيل يسهل استغلالها، كالعلامة التجاريّة للمركبة – سيتروين جامبي مع باب جانبيّ – ولوحة السّيارة مثلًا.

– أجل، لدينا رقم السيّارة! صاح بوتساريس. لدينا رقم السيّارة! سنمسك به!

هنّأ الرجال بعضهم البعض. احتفال سابق لأوانه، فكّرت روكسان. هرع بوتساريس – الذي رأى في الأمر فرصةً لإنقاذ عطلته – كي يحذّر سوربييه ونظيره من المديريّة الثالثة للشرطة القضائية.

أدركت روكسان في طريق عودتها أنّها لا ترغب في حلّ القضيّة. فالتحقيق الجيّد يضاهي في تأثيره تأثير المخدّرات والمضاجعة ومضادّات الاكتئاب مجتمعةً. التحقيق الجيّد من شأنه أن يشعل حياتنا ويحقنها بدفعة من الأدرينالين. وعلى العكس، كان إغلاق ملف تحقيقٍ يصيب بالإحباط. تمامًا مثل الانتهاء من قراءة كتاب جيّد. يغمرنا فراغٌ وشقاءٌ وحزنٌ كما لو أنّنا هجرنا أشخاصًا بدأنا نتعلّق بهم. ثمالةٌ تذكّرنا بالواقع الحزين لحياتنا.

سارت بعيدًا عن المنزل صعودًا نحو الطريق المؤدي إلى شارع داساس. كانت كاميرات قناتَي «بي. أم. أف.» و«أل. سي. إي». تطوّق البوّابة. وبينما راحت تشقّ طريقها عبر الصحفيّين، غمرتها قناعة كبيرة. لم تكن هذه القضية عادية وكانت بعيدة كلّ البعد عن الانتهاء. لبضع ساعات أخرى، ستكون روكسان متقدّمةً بعدّة خطوات على رجال الشرطة الآخرين. وهي أفضليّة حاسمة وجب استغلالها.

انتزعها صوت بوق من أفكارها. على الجانب الآخر من الشارع، كانت فالنتين دياكيتيه تنتظرها خلف مقود سيّارة ميني كوبر باللون الأزرق الفاتح.

.2

– ماذا يفعل كلّ رجال الشرطة هؤلاء هنا؟ سألت فالنتين.

– انطلقي، سأشرح لكِ.

– إلى أين نذهب؟

– انعطفي يسارًا، شارع فافين ثم راسباي. أودّ الذهاب إلى مكتبة غيوم بودي.

أثناء القيادة، أطلعت روكسان الطالبة على أحداث الصباح.

– إذًا، لم نعد نعمل وحدنا على القضيّة؟ استنتجت طالبة الدكتوراه والخيبة باديةٌ في صوتها.

– من الجيّد أن تنضمّ الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين أيضًا إلى الحفل للعثور على الفتاة. من الناحية اللوجستيّة، هم الأفضل. من جهتنا، سنواصل التعمّق في التحقيق الذي أجراه مارك باتاييه قبل الحادث.

فتحت النافذة ولمحت وجهها في المرآة. بدت شاحبة بشكل مخيف، شعرها مبعثر، تحيط بعينيها دوائر سوداء وتظهر ثنيات في زوايا عينيها. كارثة. على عكسها تمامًا، كانت فالنتين مفعمةً دومًا بنضارة الزهور وتتمتّع بإطلالة متكاملة كما لو كانت في طريقها إلى جلسة تصوير. تنّورة من الجلد البنيّ، وكنزة من صوف الماعز، وجوارب لامعة وجزمة بكعب عالٍ. يا لها من حياة لعينة وغير عادلة!

كانت مكتبة غيوم بودي قريبةً جدًّا، عند زاوية جادة راسباي وشارع فلوروس. ركنت فالنتين السيّارة على عجلٍ وشغّلت أضواء التحذير مقتحمةً بابتهاج الفاصل الأوسط. لم تتجاوز الساعة التاسعة والنصف، ولكن كما أمِلت روكسان، جاء أحدهم للبدء بترتيب الطاولات استعدادًا لعمليّات التسوق الأخيرة لعيد الميلاد. طرقت على الزجاج لجذب انتباه الموظّفة.

– الشرطة، سيّدتي. قالت وهي تلوّح ببطاقتها.

دخلتا المكتبة المتخصّصة في بيع كتب عن التاريخ القديم، والقرون الوسطى وعصر النهضة. امتدّت المكتبة على مساحة سبعين

مترًا مربّعًا، وانتشرت فيها رفوفٌ مسقوفة وسلالم خشبيّة تحاكي المكتبات الإنكليزيّة.

– كيف أساعدكما؟ سألت بائعة الكتب.

كانت لا تكاد تبلغ الثّلاثين من عمرها، وتتبنّى أسلوبًا لا ينسجم البتّة مع هذا الوسط الكلاسيكي: شعرٌ منكوشٌ وحذاء دوك مارتينز، وسروال جينز ممزّقٌ وقميصٌ طُبع عليه رسم لفرقة بيرل جام، وسترةٌ صوفيّة ضخمةٌ على نمط كيرت كوبين.

– أتتذكّرين هذا الزبون؟ سألتها روكسان وهي تعرض أمامها صورة لباتاييه استعارتها من المنزل في شارع داساس.

– طبعًا! ابتاع عدّة كتب الأسبوع الماضي. كنت أنا من ساعدته.

– ما الذي كان يبحث عنه بالضبط؟

– مراجع عن الأساطير. قصة ديونيسوس، سماته، دلالات على عبادته...

– هل أخبرك عن الدافع؟

– أخبرني أنّه شرطي ويعمل على تحقيقٍ في سلسلة من جرائم القتل.

تبادلت روكسان وفالنتين نظرةً نصفها ابتهاجٌ ونصفها توجّس. كانتا تتخيّلان كيف راح الأسد العجوز يختلق الروايات لإثارة إعجاب الفتاة الشابّة. نفضت بائعة الكتب قشرة الرأس الوهميّة عن كتفها ثم أتاها الوحي.

– آه، لقد نسيت تمامًا معاودة الاتصال به، وصل كتابه أمس!

– أيّ كتاب؟

– أراد كتابًا لم يكن لديّ في المخزن وكان عليّ أن أطلبه. سوف أحضره، قالت قبل أن تتوارى خلف باب من خشب الماهوغوني.

تحقّقت روكسان من هاتفها. وصلتها رسالة من ليام هوانغ ثونغ يبلغها فيها أنّ تتبّع لوحة تسجيل الشاحنة أسفر عن سيّارة مسروقة قبل أيام قليلة بالقرب من كوركورون. كما توقّعتْ، لن يكون البحث عن الساتير بهذه السهولة. عرضت الرسالة النصيّة على فالنتين قبل أن تتسلّل بين الطاولات. ذكّرتها أغلفة كتب بودي المرتّبة على الرفوف بسنوات دراساتها التحضيريّة. كم ساعة قضتها حتّى وقت متأخر من الليل لاستكمال ترجماته. اللون الأصفر للسلسلة اليونانية والأحمر للسلسلة اللاتينية. بومة أثينا مقابل الذئبة الرومانيّة. هل تبقّى منها شيء اليوم عدا الذكريات؟

رمشت عيناها. خلف النوافذ الكبيرة، طلعت الشمس في السماء فتوّجت فالنتين بهالة ذهبيّة ناثرةً نورها على الأرضيّة الخشبيّة المشمّعة وعلى الباب المصنوع من خشب الماهوغوني الذي فُتح من جديد.

– ها هو، قالت البائعة وهي تضع الكتاب على المنضدة.

انحنت المرأتان لقراءة العنوان: احتفالات الديونيسيا الكبرى. ولادة المسرح الكلاسيكي في اليونان.

– عمّ يتحدّث؟

– هو عمل أكاديمي يوضّح كيف تنحدر ولادة الفن المسرحي مباشرة من عبادة ديونيسوس.

– سأحتفظ بالكتاب كدليل في التحقيق.

– ومَن يدفع لي ثمنه؟

– سأعيده إليكِ. شكرًا لمساعدتك وعيد ميلاد مجيد.

.3

ما كادت المرأتان تبلغان الشارع حتّى اندفعتا للتفاوض مع ضابط مرور كان يسطّر محضر مخالفة. بعدما باءت المفاوضات بالنجاح، استعادت فالنتين مكانها خلف عجلة القيادة.

– إلى 14 جادة مونمارتر؟

كانت فالنتين قد تتبّعت عنوان مقهى لي تروا ليكورن الذي يُحتمل أن يكون مارك باتاييه قصده في الليلة السابقة للحادث الذي ألمّ به.

– سنذهب لاحقًا. أودّ أوّلًا الذهاب إلى شارع ليون-موريس-نوردمان، في الدائرة الثالثة عشرة، بجوار سجن لا سانتي.

استدارت فالنتين عند جادة راسباي.

– عليّ إخبارِكِ عن ليلتي. لديّ شيءٌ جديدٌ أيضًا!

– نسيت تمامًا لقاءك مع كورنتين لوليبفر. إذًا، إلى أين وصلتِ بتسلّلك إلى بؤرة البوبو؟

– الرجل في غاية الغباء لكنّه شكّاك، باشرت فالنتين. بدايةً، أطلق بعض الحكايات ثم انغلق على نفسه بعد إصراري. على أيّ حال، تمكّنت من الحصول على معلومات هامّة.

– أخبريني.

– المعلومات والصور التي استخدمها في مقالته زوّده بها كاملةً مُخبر قبل شهرين. حاولت جاهدةً معرفة هويّته لكنّه لم ينطق بكلمة أخرى.

عقدت روكسان حاجبيها.

– أخبرني رافاييل بهذا على متن الطائرة. يعتقد أنّه أحد العاملين في المستشفى الذي عولج فيه والده العام الماضي.

– أعلمني لوليفر أنّ جريدته حصلت على المواد دون مقابل. ولأنّ المُخبر لم يطلب شيئًا بالمقابل، فقد يعني هذا أنّ لديه مصلحةً لنشر المقال الآن.

– أو يعني ببساطة أنّ ما قاله لك الرجل هراء.

– لقد دعاني لاحتساء شراب الليلة. سأستمر في التنقيب.

– نحتاج إلى فهم السبب الذي يجعل الصحفيّ يتابع تحرّياته عن رافاييل.

– كوني أكيدة أنّي حاولت معرفة ذلك. هو يسعى وراء سبقٍ صحفي، هذا أكيد. لكنّه لم يفصح عن الكثير. سنلتقي الليلة على انفراد، سيكون الأمر أسهل.

– رغم ذلك، لا تجازفي. لا أثق بهذا الرجل.

عبرت سيّارة الميني شارع مونبارناس وانطلقت بسرعة إلى دانفير-روشيرو ثم على امتداد طريق سان جاك. عند شارع لا سانتي، انقسمت الجادّة إلى نصفين بوجود الجسر العلوي لمترو غلاسيار. كان مركز الاعتقال يفرض حضوره المقلق في كلّ زاوية فيما حجب ظلّ الجدران المحيطة الطريق، فبدا مطوّقًا بحزن شديد.

تلاشى هذا الشعور بالاختناق مع استلام الطريق الرئيسي التالي. كان شارع ليون-موريس-نوردمان هادئًا ومضاءً. ركنت فالنتين سيّارتها الصغيرة بين المدرسة العامة المحليّة ومطعم إثيوبي ذي واجهة كهرمانية من الطين.

– من سوف نقابل؟

– جان-جيرار أزيما، مصوّر باباراتزي سابق. أريد مساعدته في تعقّب رقم هاتف دون المرور بالشرطة، لكن أفضّل الذهاب بمفردي لعدم إخافته. أيمكنك الانتظار هنا؟

أومأت فالنتين برأسها، غير قادرة على إخفاء خيبة أملها. نزلت روكسان من السيارة وسارت نحو مبنى أبيض جميل فيه نفحة من فنّ الآرت ديكو ومشيّد على طرف ساحة ألبين-كاشو الصغيرة التي لا تشبه الساحة إلّا بالاسم. رنّت على الهاتف الداخلي وعرّفت عن نفسها طالبةً من المصوّر الحضور. مرتابًا، رفض أزيما القدوم ثمّ وافق بعد إصرار روكسان على مقابلتها أمام منزله.

فركت الشرطية يديها لتدفئتهما. كانت الشمس ساطعة لكنّ الهواء ما زال متجمّدًا. دخلت المطعم الإثيوبي الذي يعدّ القهوة الجاهزة وابتاعت فنجانَي إسبرسو مزدوج لها ولمصوّر الباباراتزي.

– إذًا، نحن هنا لرؤية جان-جيجي!

جعلها الصوت الأجشّ بعض الشيء تنتفض في مكانها. وصل أزيما من الخلف خفية. عادةٌ لا شكّ أنّه اكتسبها من مهنته. بدا المصوّر مهتمًّا بعناية واضحة بمظهره العجوز المتصابي. قامةٌ طويلة متأنّقةٌ، شَعرٌ رماديّ مقصوصٌ حديثًا، معطفٌ من الكشمير، نظاراتٌ شمسية. كناية عن ريتشارد جير من ضاحية سان-مارسيل.

– مرحبًا أزيما.

كانت قد التقت به قبل عامَين خلال جلسة استماع للشهود ورد فيها اسمه بشأن قضيّة مخدّرات. كان المصوّر مدرجًا في قائمة تاجر مطلوب من الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين. لم تتمّ مضايقته، لكنّ روكسان لم تنس وجهه. كان أزيما مصوّرًا صحفيًّا في البداية، ثم واحدًا من أكثر المصوّرين البابارازي تأثيرًا أيّام التسعينيّات وأوائل القرن الحادي والعشرين. تلك الحقبة التي دفعت فيها صحافة المشاهير ثروات مقابل لقطة للأميرة ديانا ودودي الفايد، أو مازارين تغادر مطعمًا أو كيت موس وهي تتعاطى الكوكايين. كان قد جنى الكثير من المال، لكنّ تعاطي الممنوعات والطلاق وأزمة الصحافة

الشعبية أرجعته إلى نقطة الصفر. منذ ذلك الوقت بدأ يحتال على العيش بيد أنّه حافظ على علاقاته الاجتماعية.

– هل هذا مرق دجاج؟ قال ممازحًا وهو يلتقط فنجانه.

أملت روكسان الاستفادة من الجوّ الدافئ للمطعم، لكنّ المالك أوضح لهما لزوم التنحّي منعًا لإعاقة المرور.

– حسنًا، أخبريني ما الذي أتى بكِ إلى هنا، مونكريستيين. أفف، تجمّدت أطرافنا، تذمّر المصوّر مع العودة إلى الرصيف.

أخرجت روكسان ورقة ملاحظات لاصقة من جيبها.

– أريدك أن تحدّد لي هويّة صاحب هذا الرقم، طلبتْ منه وهي تناوله الورقة الصفراء. هو على القائمة الحمراء.

– أتمزحين؟ يمكنك القيام بذلك بنفسك في ثلاث ثوان.

– هذا تحقيق خاصّ. لا أريد توريط رجال الشرطة.

هزّ جان-جيجي رأسه.

– لا، أشتمّ رائحة مكر في مسألتك هذه.

– هي قضيّة شخصيّة، قلت لك. مسألة جنس. رقم وجدته على هاتف الرجل الذي أواعده.

– لا أصدّقك البتة.

– أسدِ لي هذا المعروف. أنا لا أطلب طلبًا تعجيزيًا.

– وكيف أستفيد، أنا؟

– سأكون مدينةً لك.

– لا، هذا مبهم. سأفعلها مقابل ثلاثمائة دولار.

– اذهب إلى الجحيم.

بدا مصوّر الباباراتزي متشبّثًا برأيه.

– آسف عزيزتي، لكنّ الظروف صعبة وموضة الإنستغرام قضت على المهنة، أخذ يتشكّى إليها. لم يترك المشاهير لنا شيئًا: فمع

الشبكات الاجتماعية، باتوا يكشفون بأنفسهم عن خصوصيّاتهم. ومع هذه الهواتف اللعينة، أصبح كلّ شخص مصوّرًا محتملًا.

سمعت روكسان هذا الخطاب عدّة مرات: انتصار الناشطين على شبكات التواصل الاجتماعي والسرد القصصي على «الصحافة». فركت جفنيها. كان يوم 23 كانون الأوّل، لكن من المحتمل أنّ مخيّمًا للعطلة يشغل المدرسة في الشارع المقابل إذ سُمع صخب الأطفال في الملعب. أجمل المقاطع الصوتية في العالم!

– ميلينا بيرغمان، أتعرفها؟ سألته لتغيير الموضوع.

– لم أسمع بها قط.

– عازفة البيانو التي كانت على متن الرحلة التي تحطّمت العام الماضي.

– أوه نعم، ربّما.

– هناك مقالة عنها على موقع ويك-أند. ألقِ نظرة على الصور وأخبرني في حال لاحظت أمرًا مريبًا.

– وهل أفعل هذا من أجل عينيكِ؟

– هذا والرقم الذي طلبته منك، لا تنسَ.

– في أحلامك. هيا، وداعًا أيتها الشرطية. وضحك مبتعدًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

4.

الضفّة اليمنى. في حيّ غران بولفار، بلغت احتفالات عيد الميلاد ذروتها. توافدت الحشود، غفيرة إنّما غير مبتهجة. هيئات متعبة، متّحدة في معاناتها، ضحايا أمرٍ بالالتزام بروحٍ ميلاديّة افتُقدت منذ وقتٍ طويل. تشوّهت الشوارع بالأضواء المقزّزة وأشجار عيد الميلاد المصنوعة من البلاستيك المعاد تدويره. حتّى واجهات المتاجر

الكبرى، المليئة بزينة ثلجيّة تشبه حلوى المارينج، لم تُثر سوى اللّامبالاة أو الهتافات المبالغة.

تركت روكسان وفالنتين سيارة الميني في موقف للسيارات في شارع لا شوسي-دانتين. لم تتوقّع روكسان الكثير من هذه الجولة لكنّها عرفت عن تجربة أنّه، وللاصطياد في بحرٍ قليل الأسماك، وجب على المحقّق إلقاء عددٍ كبيرٍ من الشِّباك.

دفعتا باب لي تروا ليكورن لتجدا نفسيهما في أجواء تريد لنفسها أن تكون أنيقةً ومعاصرة. كان المكان غارقًا في النباتات التي انتشرت من أرضه حتّى السقف. سادت ألوان الخشب والباستيل في كلّ زاوية وبرز بارٌ من البلاط الأبيض النقيّ تمامًا كذلك الذي نراه في مختبرات الأبحاث. لم يكن لي تروا ليكورن مقهى تقليديًا، بل كان كنايةً عن بار عصيرٍ عضويّ يقدّم رقائق الكرنب وعصائر مستخلصة بتقنية المكبس الهيدروليكي، «خيار نعناع بريّ» مقابل اثني عشر يورو. في هذا المكان، كانّ كلّ شيء أخضر، وصحّيًا، وخاليًا من اللّاكتوز وباهظَ الثمن.

متسلّحةً ببطاقتها ثلاثيّةِ الألوان، شقّت روكسان طريقها إلى صندوق المحاسبة طالبةً التحدّث إلى مدير المتجر. كان استقبال المسؤولة على غرار المكان، زائفًا. استمعت إلى الشرطيّة ثم راجعت جدول موظفيها. تبدأ خدمة ماغدا، مديرة الصالة التي يُحتمل أن تكون قد خدمت باتاييه يوم الأحد الماضي، بعد ربع ساعة.

– سننتظرها، قرّرت روكسان وهي تجلس على طاولة شاغرة.

طلبت القهوة لكنّ بار العصير لا يقدّمها، فاقتدت بفالنتين واختارت حليب اللوز.

– أتتخيّلين مارك باتاييه في مكان كهذا؟

– لا، بل أراه في الجهة المقابلة، في إحدى الحانات الصغيرة في ممرّ بانوراما، مع زجاجة جعة وسندويش نقانق.

– إذا كان قد جاء إلى هنا فهي مبادرة من شخص ما. لم يكن هو من اختار هذا العنوان.

أخذتا تقيّمان مجرى التحقيق أثناء انتظارهما وصول النادلة. أكّدت أحداث هذا الصباح في منزل رافاييل – اقتحام الرجل المتنكّر بالساتير واختطافه لميلينا – صحّة فرضيّتهما بوجود صلة مع عالم الأساطير. هل كان «الساتير» يتصرّف منفردًا أم مع شركاء له؟ تذكّرت روكسان ملاحظات باتاييه عن ظواهر متعصّبةٍ محتملةٍ مرتبطةٍ بعبادة ديونيسوس. قد تكون مجموعةً من الذُهانيّين، عبدة ديونيسوس، هي التي اختطفت ميلينا لإرغامها على المشاركة في احتفالاتهم. ممكن. غير أنّ هذا لا يفسّر أبدًا نجاة عازفة البيانو من حادث تحطم الطائرة أو التعرّف على جثّتها من بين ضحايا الحادث.

لم يكفّ هاتف فالنتين المستقرّ على الطاولة عن الارتجاج طوال خمس دقائق.

– أجيبي، إذا كان مهمًّا.

– لا، رجلٌ واعدته عدّة مرات العام الماضي لكنّه لجوج.

– أتريدين أن أخيفه؟

– لا داعي، هو غليظٌ لكنّه ليس شرّيرًا.

– هل لديكِ صديق أو صديقة؟

– لم أكن أعلم أنّي على ذمّة التحقيق! انتصبت الطالبة.

شعرت روكسان بالإهانة ونظرت إليها شزرًا.

– ليس لديّ صديق، تابعت فالنتين بنبرة أكثر مرونة. لقد أوضحت لك ذلك من قبل: الشخص الذي يعجبني حقًّا هو...

– لا تقولي لي رافاييل باتاييه!

– بلى! ينبغي أن أخجل من قول هذا، لكنّي لست سعيدة بعودة عازفة البيانو إلى الظهور في حياته.

– لا أفهم. حصل حادث الطائرة قبل أكثر من عام. إذا كنت تحبّين باتاييه، فقد كان لديك متّسع من الوقت للمحاولة معه.

– أسعى وراء علاقة جادّة! أردت التريّث احترامًا لفترة الحداد، وكي لا يبدو أنّني ألقيت بنفسي على قطعة من اللحم كطماعةٍ شرهةٍ مستغلّةً الوضع.

اغتاظت روكسان.

– على كلّ حال، لا أرى ما يعجبك فيه. متصنّع، عبارة عن رجل يفرط في الاهتمام بمظهره ويلعب دور الفنان المعذّب الذي...

– أبدًا! أنت لا تعرفينه.

– لكنّكِ أنت أيضًا لا تعرفينه جيّدًا!

– قرأتُ كتبه على الأقلّ.

– إذا كنت تظنّين أنّك تحبّين الرجل لأنّك تحبّين الفنان!

– لا تهزئي من كلامي.

– لا أشعر بالارتياح تجاه هذا الشاب. ليس صادقًا، أؤكّد لكِ. ثقي بخبرتي كشرطيّة.

قاطعت المديرة مشادّتهما.

– وصلت ماغدا، قالت لهما وعرّفتهما على امرأة شابّة ذات عينين فاتحتين كبيرتين ورأسٍ حليقٍ تمامًا.

بريتني سبيرز، 2007، فكّرت روكسان آخذةً زمام الأمور.

– لن أزعجكِ طويلًا، لكن أطلب منك التركيز. (أعطتها صورة باتاييه). هل تعرفين هذا الرجل؟

– نعم، ممكن.

تنّهدت الشرطية. بدأت الفتاة تزعجها من الجواب الأوّل.

– «ممكن»، لا تعني شيئًا. أتعرفينه أم لا؟

– أعتقد أنّه جاء الأسبوع الماضي، نعم. فظّ بعض الشيء، ناداني بـ«جميلتي» لكنّه ترك لي ورقة خمسة يورو بقشيشًا.

– هل رأيته من قبل؟

– لا.

– هل كان وحده أو برفقة أحد؟

– كان على موعد مع امرأة. عجوز إلى حدٍّ ما، شعرها أحمر طويل، حسبما أظّن.

– عجوز؟ كم عمرها برأيك؟

– أكبر من حضرتك. على أيّ حال، رأيتها مرّتين أو ثلاثًا من قبل.

– أتعمل في الجوار؟

هزّت ماغدا كتفيها.

– ربّما.

– كم من الوقت مكثا هنا؟

– ربع ساعة.

– ألم تسمعي حديثهما؟

– لا، لكنّهما كانا يتجادلان، على ما أظنّ.

– بعنف؟

– باحتدام. أراد الرجل أن يعرف شيئًا ورفضت المرأة العجوز الردّ عليه.

– ما الذي أراد معرفته؟

– لا أعرف. معلومة. اسم، عنوان...

أدركت روكسان أنّها لن تعلم أكثر من ذلك. شكرت الفتاة وخرجت إلى الجادة. غير مبالية بالجلبة، تقدّمت مسافة متر على قارعة الطريق تنتظر مرور سيّارة أجرة.

– هل أقلّك؟ اقترحت فالنتين.

– دعكِ من هذا، سأتدبّر أمري.

– هل أنتِ غاضبةٌ؟

– نعم، لقد أثرتِ أعصابي. أعرف أنّ رافاييل باتاييه ليس جديرًا بالثّقة.

– هذا ليس سببًا لتغضبي بهذا الشكل.

– حسنًا، اتركيني وشأني الآن.

– أنتِ، عندما تكونين في مزاج سيّء، لا تبذلين أيّ جهد في احتوائه...

.5

منحني الهواء الجليديّ في الخارج روحًا جديدةً شافية. رفعت ياقة معطفي ونزلت شارع داساس على الرصيف الأيسر. بدأ تأثير مسكّن الآلام يهدأ موقظًا الألم في رقبتي والصداع النصفي. استجوبني رجال الشرطة لأكثر من أربع ساعات. كانوا تائهين لدرجة لم أضطرّ حتّى إلى الكذب. تفاديت بعض الأسئلة، تنصّلت، أجبتُ على أسئلتهم بأسئلة أخرى. قبلت عن طيب خاطر أخذ العيّنة الجينيّة التي طلبوها منّي. ونظرًا لعدم استيعابهم للموقف، بدا أنّهم أرادوا الاعتماد على التكنولوجيا: كاميرات المراقبة، الاتصالات الهاتفية، الحمض النووي، تحديد الموقع الجغرافي. كانت روكسان مونكريستيين الوحيدة التي تفوقهم ذكاءً إلى حدّ ما، لكن على عكس ما أخبرتني به، لم تكن طرفًا فاعلًا مباشرًا في التحقيق.

لا يمكن أن يستمرّ هذا الوضع. كان عليّ أن أتحمل مسؤوليّاتي وأتولّى زمام الأمور بنفسي. كنت الشخص الوحيد الذي يملك جزءًا

من حقيقةٍ ستتطلّب منهم بعض الوقت لفهمها. ولاكتشاف الحلقة المفقودة، عليّ العودة إلى البداية. إلى اللحظة التي «استُنسختْ» فيها ميلينا بيرغمان. اللحظة التي ظهرت فيها نسخةٌ مزدوجةٌ شرّيرة، بخطأ منّي، لاستغلالها.

استعدتُ في ذهني مرارًا وتكرارًا الضربات التي وجّهها الجلّاد. شراسته، عنفه... من كان هذا الرجل؟ لماذا تنكّر بهذا الزيّ؟ لم كلّ هذا الإصرار؟ لم أستطع الرؤية بوضوح. وجب عليّ التخلّص من الفوضى داخل رأسي. لكن من أين أبدأ؟ ما زلت أفتقد الكثير من الحلقات لفهم منطق السلسلة.

خالفتُ إشارة المرور للوصول إلى موقف السيّارات في محطة لوكسمبورغ حيث كانت سيارتي مركونةً. أدرت رأسي فلاحظت قامةً تتبعني من المنزل. أكان شرطيًا؟ ليس مستبعدًا أن يريد هؤلاء المجانين مراقبتي. وصلت إلى الشّرفة المُدَفَّأة لمقهى ليبرتي، عند تقاطع شارعَي داساس وفافين. توقفتُ لحظةً وحذا الرّجل حذوي. للتأكّد، دخلت المقهى. تردّد ثم تبعني فأمسكته بتلابيب سترته ودفعته على الرصيف.

– من أنت؟

لم تبدُ عليه هيئة الشرطيّ. بنيةٌ جسديّةٌ هزيلةٌ، سكسوكةٌ على نمط الهبستر، قميصٌ مناهضٌ للرأسماليّة طُبع عليه هاشتاغ #اِلتَهِمْ الأثرياء[1]. كان مدفونًا تحت سترته الجلديّة، يعتمر قبّعةً صوفيّةً مخطّطةً تحمي جمجمته الصلعاء.

– لا تلمسني! أنا صحفيّ.

– لا أكترث. اغرب عن وجهي.

1 #EatTheRich.

كان الرجل متوتّرًا يعبث بأصابعه بلحيته كما لو أنّه أراد اقتلاعها. في بادرة حماية، أخرج هاتفه الخلويّ وبدأ يصوّرني. ثمّ فهمت فجأةً: لا بد أنّه كورنتين لولييفر، الكاتب المعتوه الذي يحوم حولي منذ عدة أيام. كم هو مثير للشفقة. وجّه جهاز الآيفون الخاص به في اتجاهي كما لو أنّه درعٌ واقٍ وسلاحٌ نصف آليّ في الوقت ذاته، مناديًا عليّ بنبرة تهديد.

– أتحرّى عنك ولديّ بعض الأسئلة لك.

بعد تلك الساعات الطويلة مع رجال الشرطة، كان الدخول في استجواب جديد هو آخر ما أرغب به، تحديدًا مع هذا الصحفي-المدّعي.

دفعني صرير إطارات غير عادي إلى رفع رأسي. على مسافة عشرين مترًا أمامي، أصبحت الإشارة خضراء. انطلقتْ سيّارة مرسيدس كوبيه مسرعةً واخترقتْ مسار السيّارات على يمينها. قفزتُ قفزةً واحدة وألقيتُ بنفسي جانبًا.

باندفاعها مثل الصاروخ، كانت السيّارة المسرعة تنقضّ عليّ.

11

قصر الأوهام

لا توجد عوائق، العائق الوحيد هو الهدف؛
سيروا بلا هدف.

فرانسيس پيكابيا

1.

«لم يكن فرانسوا هولاند رئيس جمهوريّة سيّئًا»، «ما زال النظام الصحي الفرنسي هو الأفضل في العالم»، «فرنسا بلد ليبراليّ متطرف»، «ماكرون ديكتاتور حقيقي».

رفعت روكسان رأسها ونظرت إلى الرّجلين الجالسين على الطاولة المجاورة. لو كنّا في مسابقة «مَن يمكنه التلفّظ بأكبر كمّ من التفاهات في دقيقة واحدة»، لكان هذان الرجلان مرشّحين أساسيّين للفوز بالجائزة.

الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعون دقيقةً. كانت الشرطيّة جالسة إلى طاولة في سيليكت تترقّب وصول فاليري جانفييه فيما تعيد قراءة ملاحظاتها على هاتفها المحمول. لم يكن مطعم «عالم

الأدب» الشهير في بولفار مونبارناس مكتظًّا كالعادة، فقد هجره الناشرون والصحفيّون – الذين يحتلونه في العادة – إلى منازل العطلة في لوبرون أو بروتاني. كان ذلك المكان، بواجهته الزجاجيّة ومقاعده المصنوعة من الخيزران، ونقوشه الجصيّة وقوالبه الخشبيّة، يستحضر الحقبة الفرنسيّة لعشرينيّات القرن الماضي، فيبثّ الطمأنينة في نفوس السيّاح. فجأة، عبر طيف شخص مألوف باب المطعم. جان-جيرار أزيما. جال مصوّر الباباراتزي بنظره في الغرفة بحثًا عن روكسان، وما إن وجدها حتّى تقدّم ناحيتها بابتسامة عريضة.

– بتنا لا نفترق!

– كيف وجدتني؟

– هذه وظيفتي! أجاب وهو يجلس أمامها.

استدعى جان-جيجي النادل وطلب كوكتيلًا بشراب النعناع.

– منذ متى يتناول ضبّاط الشرطة طعام غَدائهم في سيليكت؟ أرى أنّك لا تحرمين نفسك من شيء.

– أتحمل معلومات إليّ؟

– ربّما. ماذا تعطيني في المقابل؟

– صفر، لا شيء. سبق وقلت لك ذلك في الصباح.

كانت قد أملت عودة المصوّر في نهاية المطاف. ففي هذه الفترة العجفاء، كانت قصة ميلينا بيرغمان طُعمًا مغريًا.

– حسنًا، نطق قائلًا، إثباتًا لحسن نواياي، سأعطيك هويّة صاحب الخط المدرج في القائمة الحمراء.

أعاد إليها أزيما الملصق الذي سلّمته له قبل ساعات قليلة، وكان قد دوّن عليه الاسم.

– غايتان يوردانوف؟

– زميل لكِ، على ما يبدو.

– شرطي؟

– نعم، زميل عظيم من فرقة الشرطة الماليّة. أعشق مطاردة ضبّاط الشرطة لبعضهم البعض، أجد الأمر مثيرًا جدًا.

أثارت المعلومة اهتمام روكسان. دليلٌ جديد، ربّما تحتاج إليـه، علـى أنّ باتايـيه قـام بتفعيل كـافّة شبكاته وأنّ للتحقيق تشعّبات معقّدة.

أحضر النادل الكوكتيل، فبلع جان-جيجي جرعةً طويلةً بشراهة عطشانٍ عبَر الصحراء الكبرى من دون ماء.

– آه! يا لـه مـن شعور رائـع! الباستاغا[1]، لا شـيء يضاهيها. تذكّرني بالعطل، وبلعبة الكرة الحديديّة، وسان بول دي فينس، ولا كولومب دور...

– أنا في انتظار أحد، إذا لم يكن لديك شيء آخر تقوله، اذهب وأنهِ مشروبك على البار.

– لحظة يا حلوة، لقد ألقيت نظرة على مقالتك. مثيرة للاهتمام حقًّا...

لم يكن أزيما غبيًّا. على الرغم من السنين التي مرّت، لم يزل متيقّظًا جيّدًا، يتشمّم السبق الصحفيّ والفضائح وخفايا الأنفس الدنيّة، ويَكسو رذائله برداء «البحث عن الحقيقة» المبهرج.

– اشرحي لي سبب اهتمام الشرطة بهذه القصّة.

– هذا السؤال يساوي الملايين، جان-جيجي، لكن إذا كنتُ بحاجة إلى نشر أيّ معلومة، فستكون أوّل من يعلم.

– وعد؟

[1] الباستاغا هو الاسم الذي يطلق بالعامية على المشروبات الكحولية المصنوعة من اليانسون.

– أقسم لك، هيّا اذهب الآن، الشخص الذي أنتظره أصبح على وشك الوصول. واطلب من البار ضمّ الكوكتيل الذي تناولتَه إلى فاتورتي.

الساعة الثانية عشرة وخمس وخمسون دقيقةً. أجرت روكسان مكالمةً هاتفيّةً لتأكيد المعلومة. كانت أغلب معلومات المصوّر صحيحة. غايتان يوردانوف شرطيّ بالفعل، لكنّه ليس في فرقة الشرطة الماليّة نفسها، بل في فرقة الأبحاث والتحرّيات الماليّة. بادرت إلى الاتصال بالمركز وطلبت – بعد أن عرّفت عن نفسها – تحويلها إلى مكتب خدمة يوردانوف دون تعليق الآمال على ذلك، نظرًا إلى اليوم والوقت. ردّت عليها زميلة للشرطي وأعلمتها أنّ يوردانوف في إجازة حتّى 3 كانون الثاني/يناير. وإذ أظهرت الفتاة بعض اللطافة، حاولت روكسان طلب رقم الشرطي منها، دون جدوى.

– مررنا بعامٍ أشبه بالجحيم. سوف يغضب غايتان. فهو يحدّثني عن إجازته منذ أشهر.

الفرنسيّون والعطلة. قصّة حب لا تتزعزع.

– على الأقلّ ابعثي له رسالةً نصيّةً مع معلوماتي الشخصيّة تفيد بأنّني أريد التحدّث معه بشأن مارك باتاييه.

ثمّ أنهت المكالمة دون توقّع غلّةٍ وفيرةٍ من الطُّعم الذي ألقته.

.2

– كنت الثالثة في مجموعة مارك باتاييه في فرقة مكافحة الجرائم في بداية العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين. هو من علّمني كلّ شيء.

كانت فاليري جانفييه متأنّقةً ببدلة سروال وحذاء رياضيّ فاخر، مع قصّة الشَّعر القصيرة الكلاسيكيّة، ومظهر ديناميكي أنيق. فرضت عليها العطلة أن تصطحب ابنتها البالغة من العمر سبع أو ثماني سنوات، والتي كانت غارقةً في قراءة كتاب جيرونيمو ستيلتون.

على عكس ما خشيته روكسان، كان التواصل بينها وبين جانفييه في غاية السلاسة. لم تكشف الضابطة عن لطافة فحسب، بل كانت مرتاحةً، تكاد تكون لا مبالية، كما لو أنّ لا شيء في هذه المهنة يمكن أن يمسّها بعد الآن. ما إن اطمأنّت على صحة باتاييه حتّى راحت تتحدّث عن بداياتها تحت قيادة الأسد العجوز.

– في تلك الفترة، أردفت، كان مارك لا يزال تحت تأثير صدمة موت ابنته. كان متقلّب المزاج والأداء، لكنّه كان قائد فريق جيّدًا رغم ما ادّعاه مسؤولوه. لم نكسب الكثير من القضايا المثيرة لأنّها لم تُعهد إلينا في المقام الأوّل، لكنّنا أنجزنا عملنا ولم يكن علينا أن نخجل يومًا من النتائج.

انتظرت روكسان المفوّض لتنتهي من قضم بضع لقمات من طبق السيفيتشي، قبل أن تسألها من جديد:

– هل بقيتما على اتّصال بعدها؟

– نعم، يمكن القول إنّه رافقني عن بُعد طوال مسيرتي. دائمًا ما كان يعطي النصيحة الجيّدة، وحتّى بعد أن تمّ استبعاده، ظلّ يسدي لي الخدمات.

– متى اتّصل بكِ آخر مرّة؟

– منذ حوالي عشرة أيام. لم يكن على حاله المعتادة: كان متحمّسًا وقلقًا في آن معًا. أخبرني أنّه كان يعمل على قضيّة بمفرده خارج الإطار القانوني.

– ألم يخبرك ما هي؟

– فلنقل إنّه بقي غامضًا للغاية بدايةً. استخدمها وسيلة لعدم إخافتي ولحمايتي في حال ساءت الأمور.

أخذت فاليري جانفييه بضع شرائح من البطاطا المقليّة من طبق ابنتها. محافظةً على زخمها، سألتها روكسان: «ما الذي توقّعه مارك منكِ؟»

– كان طلبه الأوّل أن أجمعه بشخص موثوق في دائرة العلوم السلوكيّة.

يعمل في دائرة العلوم السلوكية، التي تتّخذ اليوم مقرًّا لها في سيرجي بعد انتقالها من حصن روسني-سو-بوا، فريق صغير من الضباط المتخصّصين في التحليل والتحقيق الميداني، كان يتمّ استدعاؤهم للتعاون مع محقّقين محليّين متى استلزمت جريمةٌ من الجرائم طريقة عمل صارمة معيّنة.

– هل تعرفين عمّا كان يبحث؟

– كان يسعى، وفق ما فهمت، وراء معلومات عن جرائم قتل سابقةٍ مرتبطةٍ بشكل مباشر أو غير مباشر بعالم الأساطير. أراد مراجعة قواعد البيانات لمعرفة ما إذا كان بإمكاننا التوفيق بين بعض طرق العمل.

– هل ذكر ديونيسوس؟

– أرى أنّك تعرفين الكثير! نعم، تحدّث عن ذلك في وقت لاحق. كانت رحلته القصيرة إلى عمق السالفاك[2] مثمرة. أثارت قضيّتان انتباهه بشكل خاص، واحدة في الأراضي الفرنسية والأخرى في إنكلترا.

[2] السالفاك هو نظام تحليل الروابط للعنف المتصل بالجرائم.

سحبت روكسان قلمًا من جيبها لتدوين الملاحظات. حاولت فاليري جانفييه التركيز للحظة على صياغة عباراتها بشكل جيّد.

– لا شكّ في أنكِ سمعت عن القضية الأولى التي ذكرتها وسائل الإعلام الفرنسية في العام 2017 حين عُثر على جثّة جنديّ في حاوية بالقرب من قصر البابوات في أفينيون.

راحت روكسان تكتب على ساعدها كتلميذة في الثانوية.

– والقضيّة الثانية؟

– بعدها بعام، جريمة قتل قاضٍ في ستراتفورد. سأدعك تبحثين عن التفاصيل في الإنترنت.

– وما كانت الصلة بين القضيّتين؟

– كانت الجثّة في الحالتين مغطاة بجلد ماعز مخيّط على الجسم.

رفعت الطفلة عينيها عن كتابها عند ذكر تفاصيل جريمتَي القتل. فردّت جانفييه بابتسامة لتطمئنها.

– هل اعتبر باتاييه أنّه كان يتتبّع قاتلًا متسلسلًا؟

– ليس تمامًا، ربّما سلسلة من جرائم قتل. قضيّةٌ مثيرة على أيّ حال. من الأمور التي دفعتنا جميعًا إلى اختيار هذه الوظيفة في بداية حياتنا المهنيّة.

لم يحاول باتاييه خداع بائعة الكتب بكلام لبق.

– جازفتِ لمساعدته، أليس كذلك؟

– مارك شرطيّ بارع. لم ينخرط في هذا التحقيق بغية التسلية أو الترفيه عن نفسه. أدركت جيّدًا أنّه كان يصطاد سمكةً كبيرة. وإذا ما لجأ إليك محترفٌ بهذا المستوى وقدّم لك قضيّة جرائم قتل متسلسلةٍ على طبق من فضّة، فمن الحماقة رفض مساعدته.

– وما كان الاتّفاق الضمنّي بينكما؟

هزّت جانفييه كتفيها.

– أن يمرّر القضيّة لي عندما تنضج.

– ما الدافع من إخباري بهذا كلّه؟

عوضًا عن الإجابة، أنهت جانفييه تناول سمكتها.

– قمت ببعض التحرّيات عنكِ، مونكريستيين. ما سبب استبعاد سوربييه لكِ؟

بقيت روكسان جامدةً كأنّها غير معنيّة بالسؤال.

– سأكون صادقةً معكِ، استأنفت المفوّضة. سأترك الشرطة في الربيع المقبل. عُرضت عليّ إدارة الأمن في شركة كبيرة للسلع الفاخرة.

لم تستطع روكسان إخفاء دهشتها.

– لم نعد نتلقّى اليوم في هذه المهنة سوى الضربات والرواتب الزهيدة، برّرت جانفييه نفسها. في النهاية، لن يبقى في السلك سوى أصحاب القدرات المحدودة.

– لكنّك لن تضيّعي فرصة إنهاء حياتك المهنيّة بقضيةٍ دسمة، خمّنت روكسان.

تصلّب وجه المفوّضة واتّسمت نبرتها ببعضٍ من التهديد.

– وضعتكِ على سكّة باتاييه. في المقابل، أريد منكِ...

ارتجّ الهاتف على الطاولة. ليام هوانغ ثونغ. أوضحت روكسان، بإشارة من يدها، أنّها مجبرةٌ على استقبال المكالمة.

– مرحبًا ليام.

– لديّ معلومة لكِ، رئيس. افعلي بها ما يحلو لكِ.

– قل.

– لقد تمّت محاولة قتل رافاييل باتاييه.

3.

شاء القدر أن تكون روكسان على مقربة من مكان الحادث. دفعت الحساب والتحقت بمقهى ليبرتي عن طريق شارع فافين. أسفر انتشار قوّات الأمن ورجال الإطفاء أمام المقهى عن إعاقة حركة المرور واحتشاد الأشخاص الفضوليّين.

كان المشهد رهيبًا. اخترقت سيّارة – مرسيدس كوبيه – واجهة المقهى الذي تحطّمت جميع نوافذه. مكثت روكسان لحظات في صفّ المتفرّجين وراء طوق الشرطة مرهفةً سمعها لالتقاط أوّل وابل من المعلومات. من الواضح أنّ ثمة ضحيّةٌ، بيد أنّها لم تكن السائقة التي حارب رجال الإطفاء فترةً طويلةً لانتشالها ونقلها للتوّ عبر سيّارة إسعاف إلى المستشفى. كانت الوسادة الهوائيّة قد فُتحت فأنقذت حياتها. لمحت روكسان بوتساريس في خضمّ نقاشٍ مع الرائد غالوند، المسؤول عن الفرقة النهاريّة التابعة لدائرة معالجة الحوادث القضائيّة المعنيّة بالتدخّل والتحقيق في حوادث الطرق التي تنتج عنها إصابات جسديّة خطيرة. بدا وجه ملازمها السابق شاحبًا: بشرةٌ باهتة وملامحُ جامدةٌ وابتسامةٌ تنمّ عن عدم ارتياح.

لوّحت روكسان ببطاقتها لعبور الحاجز. حتّى لو عمد رجال شرطة الدائرة السادسة إلى حماية المكان، كانت زمام المبادرة في يد رجال غالوند وقسم الأدلّة الجنائية الذين انتشروا لالتقاط الصور، وتقدير المسافات، ورفع بصمات الأصابع عن عجلة القيادة واستجواب الشهود. وبينما كانت تسير أقرب ما يمكن من حطام السيارة، صُعقت بالمشهد المرعب: كان الرصيف مغطّى بالدماء. آثارٌ هائلة باللون الأحمر الداكن ذي الانعكاسات السوداء، وكأنّ أحدًا قد ذُبح للتوّ في المكان.

– المشهد فظيع، رئيس...

تعرّفت روكسان إلى صوت ليام هوانغ ثونغ خلفها.

– أعطني ملخّصًا، ليام. ما الذي نعرفه بالضبط؟

– فقدت السائقة السيطرة على سيّارتها قبل أن تقتحم الرصيف بسرعةٍ عاليةٍ وتصطدم بقوّة بشرفة وواجهة المقهى. عدم وجود المزيد من الضحايا هو بمثابة معجزة حقًّا.

– ما هي الحصيلة بالضّبط؟

– امرأة شابّة كانت تتناول القهوة على الشرفة وبجانبها عربة طفلها، أصيبت بضربة قويّة وقُذفت نحو الطرف الآخر من المقهى. كانت قد ماتت لحظة وصول رجال الإطفاء.

– اللعنة... والطفل؟

– لم يصبه مكروه، الحمد لله.

لم تستطع روكسان أن تشيح بنظرها بعيدًا عن الرصيف. حطّمت المركبة كلّ الدعامات التي أقيمت لتستعمل كدرابزين. ومع نهاية جنونيّة كهذه، إمّا أنّ السائقة تجاوزت الإشارة وإمّا أنّها زادت من سرعتها كالمجانين. تذكّرت روكسان حادثًا مشابهًا وقع قبل عامين داس فيه رجلٌ كبيرٌ في السنّ على دوّاسة البنزين بدلًا من المكابح.

– هل رأيتَ السائقة؟

– نعم، عندما أخرجها رجال الإطفاء من السيّارة.

– كم عمرها؟

– بين الثلاثين والأربعين عامًا. امرأة آسيويّة. وجميلة.

– كانت وحدها في السيّارة؟

– كلّ شيء يوحي بذلك.

– ورافاييل باتاييه؟

– يعاني من جروح جرّاء شظايا الزجاج، لكنّه سيكون على ما يرام. قاموا بنقله إلى مستشفى كوتشين.

انضمّ بوتساريس إليهما، كان محمّر العينين ومتعب الملامح، يفرك جفنيه كمَن لم يعرف طعم النوم منذ يومين. بغضب واغتياظ شديدين، أشار نحو الطريق.

– هذه ليست مصادفةً، بحقّ الجحيم! ليس هناك أيّة آثارٍ للفرامل.

– قد تكون الفتاة شعرت بتوعّك، قدّرت روكسان.

– هي في الثلاثين من العمر، لا أصدّق ذلك أبدًا. صديقك كان مستهدفًا.

– باتاييه ليس «صديقي». أتعرف هويّة السائقة؟

أشار بوتساريس بإيماءة من ذقنه إلى الشرطيّين والخبير الفنّي في قسم الأدلّة الجنائية الذين يطوّقون السيّارة.

– ذهب غالوند للاستقصاء. أدعه يقوم بذلك لتجنّب الحساسيات.

– بالحديث عن الاستقصاء، ألم يُحدَّد بعد مكان سيّارة الساتير؟

– بلى، وهنا المشكلة: وجد أحد المتقاعدين السيّارة متروكةً في غابة بالقرب من شارتر. قد يكون الرجل واصل فراره بسيّارة أخرى.

– هل أحرق سيّارته؟

– لا، وهذا ما يدهشني في الواقع. محتملٌ ألّا يكون الرجل مدرجًا في السجّلات، لأنّنا سنجمع الكثير من بصمات الأصابع.

– وصباحًا عند باتاييه؟ هل عثر قسم الأدلة الجنائيّة على آثار ممكن الاستفادة منها؟

– نحن بانتظار النتائج، إنّها ليلة عيد الميلاد وكلّ شيء يتباطأ، كما تعلمين.

نهض الرائد غالوند بحدّة بعد أن كان يجلس القرفصاء إلى جانب السيّارة وأشار إليهم للتقدّم.

– عثرنا على جواز السفر الخاصّ بالسائقة، أعلن وهو يسلّمهم دفترًا باللون الأزرق الداكن مطبوعًا بحروف ذهبيّة.

يوكيكو تاكاهاشي. مواطنة أميركيّة. وُلِدت في اليابان عام 1989. وُضعت نسخةٌ مطبوعةٌ من تذكرة سفر وعقد إيجار سيّارة بين صفحات وثيقة الهويّة، إضافةً إلى البطاقة الممغنطة لغرفة فندق. كانت الفتاة قد وصلت إلى باريس من برلين في اليوم الذي سبق. استأجرت سيّارة المرسيدس في رواسي وأمضت الليلة في فندق لينوكس، شارع ديلامبر، على مقربة من هنا.

– وجدنا هذا في صندوق التابلوه، قال غالوند وهو يفرد نسخةً من مقالة ويك-أند عن رافاييل وميلينا.

صرّ بوتساريس أسنانَه قائلًا: «في حال ما زال لدينا شكٌّ حول أيّ صلة مع باتاييه».

أبقت روكسان عينيها مجمّدتين على جواز السفر. في الصورة، امرأةٌ سمراء جميلة: عينان كبيرتان، وعظام وجنتين عاليةٌ بارزةٌ، وشعرٌ طويل داكنٌ مسرّحٌ إلى الخلف. يوكيكو تاكاهاشي. لقد رأت هذا الاسم من قبل خلال التحقيق. لكن أين؟

هاتف، جوجل، نتيجة البحث: تاكاهاشي عازفة كمان لطالما عزفت في ثنائيّات أو ثلاثيّات مع ميلينا بيرغمان. حتّى إنّها كانت شريكتها الرسميّة في تسجيلات موسيقى الحجرة. لم تكن نجمةً في مجالها وإنّما عازفةٌ راقية من الدرجة الثانية. وصديقةٌ لميلينا بلا شك. فقد أقامت المرأتان لسنوات حفلات موسيقيّة مشتركة في جميع أنحاء العالم، مما يدلّ على تقاربٍ حقيقيّ. لكن ما دافع تلك الضغينة التي تكنّها لباتاييه لدرجة أنّها أرادت قتله؟

– علينا الذهاب لمقابلة الكاتب في أقرب وقت ممكن، صمّمت روكسان وهي تخبّئ هاتفها. بوتسا، فلنذهب معًا إلى كوتشي.

هزّ الملازم رأسه.

– لا يمكن التمرّد على الإجراءات على هذا النّحو، روكسان. لقد استُبعدتِ من مركز خدمتك في الفرقة الوطنيّة للبحث عن الهاربين ولا عمل لديكِ هنا.

– لا تتظاهر بالغباء، بوتسا. ليس لديك ما يكفي لكسب قضيّة كهذه.

– آه حقًّا؟ ولماذا؟

– لأنّك تفتقر إلى الخبرة، والفطنة، ورباطة الجأش، والذكاء، والشجاعة. شرطيّ يعمل خمسًا وثلاثين ساعةً ويخاف على عطله الوضيعة.

– حسنًا، هذا يكفي. ليام، عليك العودة إلى نانتير لحراسة الثكنة. روكسان، لا يمكنني السماح لك بالبقاء.

– ستخسر القضيّة يا بوتسا. لدينا شابّة ميّتة، طفل يتيم، عمليّة خطف، تورّط مواطنة أمريكيّة، امرأة عائدة من الموت، كاتب مشهور، إعلام بالمرصاد. سينفجر الفتيل الأوّل في وجهك.

أدار الشرطي لها ظهره وابتعد رافعًا لها إصبعه الأوسط.

– ستكون العواقب وخيمةً. النتيجة واضحة. وستكون قد استحقَقْتها.

.4

– هيّا رئيس، اهدئي، لا جدوى من الغضب.

كعادته، حاول ليام التوفيق بينهما.

– يا له من غبيّ! تعلم أنّني على حق، أليس كذلك؟

– ضعي نفسك مكانه ...

– مكان الغبيّ، لا شكرًا!

– هل تريدين أن أقلّك؟

أشار إلى إحدى سيّارات البيجو التي ركنها صعودًا معتليةً الرصيف من الجانبين.

– لا، سأمشي. لقد أثار هذا الحقير أعصابي.

– أصرّ على ذلك، رئيس. أريد أن أحدّثكِ بشيء.

تبعته من دون حماسة إلى السيّارة.

تمركز ليام خلف عجلة القيادة واستدار نحو شارع داساس.

– إلى أين؟

– هيّا قُد، سوف أدّلك. عمَّ أردت التحدّث معي؟

– عليّ أن أشرح لك أوّلًا، بدأ بنبرة غامضة.

أطلقت روكسان تنهيدةً ممتعضةً طويلةً: «اللعنة، ليام، أفصح بما عندك. لستُ في مزاج مناسب».

– هذا الصباح، في منزل رافاييل باتاييه، وبينما كان رجال قسم الأدلة الجنائيّة مشغولين في الحديقة ومحيط المنزل، قمت بجولة قصيرة في الصالون.

فتحت روكسان نافذتها كما لو كانت تعاني نقصًا في الأوكسجين. تابع ليام: «كان الجميع مأخوذًا بمسرح الجريمة، ولم يندفع أحد لتفتيش المنزل رغم أنّنا لا نحتاج لمذكّرة تفتيش في حالة الجرم المشهود كي نفتّش ساحة الجريمة».

– فقمت أنت بذلك، صحيح؟

– هي بمثابة ضربة حظ إلى حدّ ما. كنت أنظر إلى الكتب في المكتبة عندما لاحظتُ هذا.

مدّ يده إلى جيب قميصه وسلّم روكسان مكعّبًا صغيرًا أسود، لا تتعدّى سماكته السنتيمتر ونصف.

– ما هذا؟ ميكروفون؟

– كاميرا للتجسّس فائقة الصِّغر، ثُبّتت على رفٍّ من الرفوف، ووجدتُ خمسةً غيرها موزّعةً حول الصالون، أي ما يكفي لتغطية كافّة زوايا الرؤية.

– أأنت جادّ؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

أومأ برأسه.

حملت روكسان المكعّب بيدها لتقدير وزنه: لا يكاد يزن خمسين غرامًا.

– هذه أشياء للمحترفين، أليس كذلك؟

– يمكن لكلّ من يرغبُ الحصول عليها عبر الإنترنت اليوم، لكنّها لا تزال باهظة الثمن، نعم.

– إذًا كان باتاييه يُراقَب من كلّ زاوية، 24 ساعةً في اليوم؟

– نعم ولا.

– اشرح.

– تعمل الكاميرات بواسطة بطاريّة لا تتمتع باستقلال ذاتيّ هائل. يمكن أن أقول ساعتين على الأكثر.

– ألا يوجد بطاقة ذاكرة في الجهاز؟

– لا.

– لكن من يمكنه الوصول إلى هذه الصور؟ حاولت روكسان أن تفهم.

– قام الذي ثبّت الكاميرات بوصلها بشبكة الواي فاي في المنزل وهي ليست آمنةً تمامًا بصراحة.

– يعني...؟

– يعني بإمكانه الدخول إليها من هاتفه في الوقت الفعليّ وأينما كان.

– حتّى لو كان في الطرف الآخر من باريس؟

– حتّى لو كان في الطرف الآخر من العالم.

– كيف يتمّ تشغيل الكاميرا؟

– بفضل مستشعر الحركة، رغم أنّه يمكن أيضًا تشغيلها وإيقافها عن بُعد.

في جادة راسباي، لوّحت له لتشغيل الإشارة لاستلام شارع غرونيل.

– هذا ليس كلّ شيء رئيس. عندما اكتشفتُ الكاميرات، كانت لا تزال تعمل. برأيي، صُوّر كلّ شيء: وصول الفتاة، الهجوم على الساتير، تدخّل رجال الشرطة...

بقيت روكسان عاجزةً عن الكلام. ها هو عنصر آخر يجرّ هذا التحقيق المثير للدّوار إلى ما هو أعمق بعد من المجهول.

– ماذا عليّ أن أفعل بهذه المعلومات؟ سأل ليام وهو ينعطف نحو شارع باك.

– أدمجها في القضيّة. قل لبوتساريس إنّك عدت إلى منزل باتاييه ولاحظتَ وجودها.

أشارت إليه بالتوقّف أمام ساحة جمعيّة البعثات الأجنبيّة.

– والأهمّ، أبقني على اطّلاع على كلّ ما يمكنك جمعه. ابعث لي كلّ معلومةٍ تجدها على تلغرام.

فكّت حزام الأمان ولوّحت بيدها لزميلها قبل أن ترتقي الرصيف متّجهة إلى مدخل الباب العالي. وفيما كانت تُدخل الرمز، رفعت رأسها إثر صدور صوت بوق مطوّل. كان ليام يومض لها بالمصابيح الأماميّة فعادت إلى السيّارة.

– تعالي انظري! قال لها وهو يخفض نافذته.

استعادت روكسان مكانها بجوار الشرطي الذي أخرج هاتفه للتحقّق من رسائله.

– تركتُ رقم هاتفي لدى حارس متحف زادكين هذا الصباح، شرح لها قائلًا.

– الرجل الذي صوّر عمليّة الخطف؟

– نعم، في الواقع لم يكن هو الوحيد الذي صوّر. فقد التقطت زوجته أيضًا بعض الصور، من الطابق العلويّ ومن زاوية أخرى.

قامت روكسان بعرض المشهد. كان الإطار أوسع والارتفاع أعلى.

– ألم تلاحظي ما يثير الدهشة؟ سألها ليام.

قطّبت جبينها. حملت الصّور القدرَ نفسه من العنف لكنّها لم تلمح أيّ جديدٍ فيها. لكنّها انتبهت فجأةً إلى شيء، فكبّرت الصورة بأصابعها.

– ما هذا؟ سألت مشيرةً إلى نقطة برتقاليّةٍ كبيرةٍ متحرّكة.

أجاب ليام: «طائرة من دون طيّار. أراهن على أنّ من قام بتركيب الكاميرات في المنزل كان يصوّر أيضًا المشهد من الخارج».

.5

لم تحلّ الساعة الرابعة بعد لكنّ الشمس كانت قد هاجرت السماء. منذ نهاية الفترة الصباحيّة والسماء مصبوغةٌ باللونين الأبيض والرمادي. حتّى من موقعها المهيمن، تراءى لروكسان خطّ أفقٍ وحيدٍ كأنّه غطاء لؤلؤيّ كثيف يمهّد لغروب الشمس. كانت قد استحمّت وارتدت البيجاما وفوقها سترة الكشمير القديمة التي جلبتها من عند باتاييه. على الرغم من رغبتها الملحّة في احتساء كأسٍ من النبيذ،

قرّرت أنّ من الأفضل انتظار ساعة بعد وحضّرت لنفسها كوبًا من الشاي الساخن، شاي أسود داكن من كوريا الجنوبية مع فاكهة اليوسفي من جزيرة جيجو، وضعته على فخذها ليخدم كقربة ماء ساخن. فأصبحت في حالة سبات شتويّ وهي غارقةٌ في بطانيّة مزدوجة، مستلقية على الأريكة ورأسها على وسادتها، تحت الأضواء الخافتة وعلى وقع خرخرة القط جنبها.

كانت على أهبة الاستعداد، لا للخلود إلى النوم، بل لمواصلة تحقيقها. حملت هاتف الآيفون وشرعت في خطوتها الأولى: البحث في الإنترنت عن معلومات متعلّقةٍ بالقضيّتين اللتين تحدّثت عنهما فاليري جانفييه.

بدأت بالقضيّة الأسهل، تلك التي وقعت في فرنسا. في ما يتعلّق بالأحداث المتنوّعة، كانت الصحافة الإقليميّة في كثير من الأحيان أفضل اطّلاعًا من وسائل الإعلام الوطنيّة. دخلت إلى موقع لا بروفانس وكتبت بضع كلمات رئيسيّة ثمّ أنزلت سلسلة المقالات التي كُرسّت لجريمة أفينيون. في 18 تشرين الأوّل/أكتوبر 2017، عُثر على جثّة الجنديّ السابق جان-لوي كريميو، البالغ من العمر 62 عامًا، في حاوية قمامة في شارع باناستيري، على مرمى حجر من قصر الباباوات. في تلك الفترة التي تلت الهجومات في فرنسا، أثار مقتل جنديّ المخاوف من وقوع عمل إرهابي، لكن سرعان ما استُبعد هذا التهديد. خدم كريميو بصفة قائدٍ في فوج مشاة البحريّة الحادي والعشرين في فريجوس، وكان قد ترك الجيش منذ فترة طويلة. بان سبب وفاة الجندي بوضوح: الذّبح. وُجد نصف عارٍ، بملابس ومكياج المتحوّلين جنسيًّا: كعبٌ رفيع عالٍ، كورسيه بحمّالات، شالٌ من الفرو مخيّط على الجلد.

طالت فترة التحقيق إلى ما لا نهاية. لم تحصل روكسان سوى على جزء ضئيل من الأدلّة – المقال الصحفي ليس أبدًا ملفًا تحقيقيًا – لكنّها قرأت بين السطور بأنّ أيّ جهة مقنعة لم تظهر. في الأسبوعين الأوّلين، خصّص موقع لا بروفانس للقضيّة ما يقارب مقالًا في اليوم: شخصّية الجندي، بيئات المتحوّلين جنسيًا، نظريّة تسوية الحسابات، وما إلى ذلك. لكن من خلف العناوين الرئيسية، كانت الأخبار الحقيقيّة نادرةً. قلّت المقالات بمرور الوقت، ومع نهاية شهر كانون الأوّل/ديسمبر، كان قد مرّ عام مذ أحجمت الصحيفة عن إفادة قرّائها بمعلومات عن القضيّة. لمعرفة المزيد، عليها الاتّصال بأحد رجال الشرطة الذين تولّوا التحقيق في ذلك الوقت. ولكن، قبل أربع وعشرين ساعةً من ليلة عيد الميلاد وبدون توصية من أحد، ستبوء محاولتها بالفشل لا محالة. ساعات طويلة من المناقشات الهاتفيّة المملّة التي لن تفضي إلى شيء.

انتقلت إلى القضيّة الأخرى. جريمة قتل القاضي في مقاطعة وارويكشاير بوسط إنكلترا. هنا أيضًا استهلّت بحثها من خلال الصحافة المحليّة، متنقّلةً بين موقعَي هاربورو مايل ووارويك كورير، لكنّها سرعان ما أدركت أنّ هذه القضيّة جذبت اهتمام الصحافة الوطنيّة. ستراتفورد-أبون-آفون هي مسقط رأس شكسبير. كان حتمًا لجريمة قتل في هذا المعلم السياحي تداعياتٌ إعلاميّة. ما كانت تلك الجريمة؟ عُثر على قاضي المحكمة التجارية تيرينس بومان مهشّم الرأس وجيوبه فارغة في حدائق كنيسة الثالوث المقدّس. لم يطل التحقيق. فقد وُجدت ساعته وهاتفه ومحفظته في موقع البستانيّين الخاصّ بالكنيسة. تبع ذلك عدد من الاعتقالات واعترافات شخص في حجز الشرطة، اسمه جيمس ديلر، وهو مدمن مخدّرات سيّء السمعة يبلغ من العمر 21 عامًا، زار مختلف مراكز إعادة التأهيل.

مع قراءة أقوال الصحف هذه، اعترى روكسان مزيج من الحماس وخيبة الأمل. حماس للعمل، ولو بشكل غير مباشر، على سلسلة من جرائم القتل، وخيبة أمل من عدم الوصول إلى ملف التحقيق. فعلى عكس ما قالته لها جانفييه، لم يُذكَر جلد الماعز في جريمة القتل الثانية هذه. أيُعقل أن تكون قد خلطت الحابل بالنابل؟ أم إنّه دليل لم يُعلن في الصحافة؟ على أيّ حال، لم يتّضح سبب افتتان باتاييه بجرائم القتل هذه أو ربطها المباشر مع عبادة ديونيسوس.

أيقظ اهتزاز هاتفها الهرّ الملتصق بساقها. مكالمةٌ من رقم مجهول.

– غايتان يوردانوف. من فرقة الأبحاث والتحريّات الماليّة!

استقامت روكسان على وسادتها.

– روكسان مونكريستيين، الفرقة الوطنيّة للبحث عن الهاربين.

– أنا في إجازة، بدأ حديثه بنبرة توبيخ.

– افترضتُ ذلك، شكرًا لاتصالك بي.

– ما قصّة مارك باتاييه؟

– هل كنت على اتصال به مؤخّرًا؟

– لا، لم أتلقّ أيّ أخبار عنه منذ خمس أو ست سنوات.

– ومع ذلك، يظهر رقمك الشخصي في سجل مكالماته للأيّام الأخيرة.

– ولكن، عمّ تتحرّين هنا؟

– باتاييه في غيبوبة. أستأنف إحدى القضايا التي عمل عليها.

أخذ يوردانوف استراحةً طويلةً.

– في غيبوبة؟ هل الأمر خطير؟

– بين الحياة والموت، نعم.

– لقد... اتّصل بي الأسبوع الماضي. أرادني أن أساعده في تتبّع عمليّة نقل أموال.

– أيّ عمليّة؟

– لا أعلم شيئًا. قلت له أن يذهب إلى الجحيم. لست معتادًا على العمل خارج القانون.

– هيّا، أكيد أنّ اتّصال باتاييه بك لم يكن اعتباطيًّا. قام بذلك لأنّه كان يعلم أنّك ستساعده.

– هذا كلّ ما حصل، كما أقول لكِ!

– يمكننا أن نلعب بهذه الطريقة، يوردانوف، وسوف ينتهي بنا المطاف إلى استدعائك رسميًّا. ويمكننا أيضًا الانتهاء من هذه المسألة الليلة ويبقى اسمك خارج الإجراءات القانونيّة.

– محاولة جيّدة، لكنّ الأمور لا تسير بهذه الطريقة. يبدو لي أنّك أنتِ مَن يحقّق خارج الإجراءات القانونيّة. هيّا، وداعًا.

أنهى المكالمة قبل أن تتمكّن من التفوّه بكلمة أخرى.

تنهّدت ثم أغمضت عينيها مسترسلةً لدفء سريرها المصطنع، مصغيةً إلى صوت المطر وهو يطرق على نوافذ برج الساعة. لم تصبح الساعة السادسة بعد. كان اليوم الذي سبق عيد الميلاد وكانت مفصولةً من وظيفتها، وحياتها العاطفيّة صحراء قاحلة، تزعج الجميع والجميع يزعجها. لم تعد تتحمّل هذه المدينة، هذا البلد، هذا العصر، هؤلاء الناس، هذه التفاهات القذرة التي تصلنا عبر الراديو والصحف والإنترنت. هذا الانتصار العظيم للرداءة. في كلّ زمان. في كلّ مكان.

«أنا حزين، وأودّ لو أنطفئ. [...] لا تكتب. فلنتعلّم أن نموت لأنفسنا فقط»... كانت كلمات مارسلين دي بورد فالمور تتردّد في رأسها. هذا ما أرادته، أن تنطفئ. فالشعلة التي كانت تحييها ذات مرّة قد خفت نورها وباتت ترتعش أكثر يومًا بعد يوم. لم يعد شيء

فيها قادر على أن يلمع، أن يضيء، أن يُدفئ. اكتفت شعلتها بانتظار النفخة التي سوف تخمدها إلى الأبد.

لن تصبح شرطيّةً عظيمةً أبدًا. في الذاكرة الجماعيّة، إمّا أن يكون رجال الشرطة العظماء قد ارتبطوا بتحقيقات استثنائيّة أو أنّهم تمكّنوا من القبض على كبار المجرمين. بروسار ومسرين، بورنيش وإميل بويسون، مونتي وغي جورج. باتاييه والبستاني... غطّت في نوم عميق تهدهدها خرخرة بوتين. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما فتحت عينيها. ظهر وجه ليام على شاشة هاتفها.

– مساء الخير، ليام.

– أيقظتكِ، رئيس؟

– هل تمزح؟ كنت أعمل، وأنت؟

– في طريقي إلى المنزل.

كان ليام في سيّارته وهاتفه مثّبت على لوحة القيادة.

– هل من جديد؟

– تحدثت للتوّ مع بوتسا. اتصالٌ مطوَّل. كان يغادر كوتشي.

– هل تمكّن من رؤية رفاييل باتاييه؟ كيف حاله؟

– مليء بالجروح، لكن لا شيء خطير.

– هل استجوبه؟

– نعم، لكنّ الكاتب لم ينطق بكلمة. يؤكّد أنّ السيّارة دهسته، ويدّعي عدم معرفته بالسائقة.

– واليابانية؟ يوكيكو تاكاهاشي؟

– في حالة صدمة، يمكنك أن تتخيّلي. قيل لها إنّها قتلت أمًّا ففقدت أعصابها وانهارت. أُجبر الأطباء على حقنها لتهدئتها.

– تكلّمت أم لا؟

– بشكل متقطّع ومختصر. كرّرت عدّة مرّات أنّ المقالة في ويك-أند أفقدتها صوابها.

– لم أفهم.

– تقول إنّ رافاييل باتاييه سرق قصّتها. وإنّه محتال.

– ليام، ابذل بعض الجهد. لا أفهم شيئًا.

تنحنح الملازم.

– ما تزعمه هو أنّ ميلينا بيرغمان لطالما فضّلت النساء.

– كانت ميلينا مثليّة...

– ... وتاكاهاشي تدّعي أنّها كانت على علاقة معها.

– لذا، كانت تغار من علاقة رافاييل وميلينا؟

– لا، لم تكن تغار. بالنسبة إليها، لم تكن هذه العلاقة يومًا حقيقيّة، بكلّ بساطة.

الخميس 24 كانون الأوّل/ديسمبر

12

السبب الخفيّ

لا تبحث في داخلك، لا شيء هناك. ابحث
في الآخَر الذي أمامك.

قسطنطين ستانيسلافسكي

.1

تمشّت روكسان وسط منظر طبيعيّ مكسوّ بالثّلج ومنبسطٍ إلى ما لا نهاية. صحراء نقيّةٌ، صامتةٌ، مقلقةٌ. سجنٌ من جليد، بلا جدران وبلا حرّاس. تردّد صوت كلّ خطوة لها في صريرٍ حادٍّ خلق صداه المتضخّم بفعل الصمت إيقاعاتٍ صوتيةً طويلةً وأليمة. صريرٌ أضحى أنينًا، تأوّهًا، تنهّداتٍ مختنقة. من أجل كتمها، أوقفت تقدّمها على الثلج. لكنّ النحيب لم يتوقف. كان يطنّ في رأسها إلى أقصى الدرجات. ولم تساعد يداها اللتان سدّت بهما أذنيها في تغيير ذلك. فجأة، سمعت طقطقة تحت حذائها. لاحظت جسمًا أسود عند قدميها ينتأ من السطح الطباشيري. انحنت وجرفت المسحوق الأبيض، فإذ بهاتف يرنّ.

انتزعها الرنين من رقادها.

اللعنة...

سقط هاتفها عن الأريكة خلال الليل. وجدته تحت أريكة التشيسترفيلد وأجابت عن المكالمة دون النظر إلى الرقم.

– ألو؟

– غايتان يوردانوف، هل أيقظتكِ؟

تحقّقت روكسان من الساعة. كانت التاسعة وعشر دقائق صباحًا.

– لا بدّ أنّك تمزح، أنا في مكتبي منذ ساعة.

– لقد فكّرت جيّدًا: أنا موافق على إخبارك بما سألني عنه باتاييه.

– أرى أنّ الليل روضة الفكر.

– ليس لديّ ما أخفيه، هذا كلّ شيء.

– أنا أسمعك.

– حاول مارك تتبّع دفعة سُدّدت في 14 كانون الأوّل/ديسمبر لحساب متجر باريسيّ.

– أيّ متجر؟

– ميمورابيليا. تاجر تحف في ممرّ بانوراما، حسبما فهمت.

استقامت روكسان على الأريكة. كان استحضار المكان كافٍ لإيقاظها كليًّا. يقع ممرّ بانوراما عند شارع رقم 14، جادة مونمارتر! عنوان مقهى لي تروا ليكورن.

– دفعةٌ واردةٌ مِمَّن؟

– هذا أحد الأمور التي أراد مارك معرفتها.

– إذًا؟

– لم أعثر على شيء. الدفعة غير موجودة. في حال تمّ الشراء، فمن المحتمل أنّه حصل نقدًا.

– شراء ماذا؟

– لم يخبرني مارك. وهذا كلّ ما أعرفه عن هذه القضيّة. هيّا، عيد ميلاد مجيد، والآن اتركيني وشأني.

المرّة الثانية التي يغلق فيها الهاتف في وجهها. لكنّها لم تبالِ. من حيث لا تدري، وفي ليلة عيد الميلاد هذه، جلب لها «بابا يوردانوف» هديّةً جميلة. ارتدت روكسان ثيابها بأقصى سرعة، أطعمت القطّ ثمّ نزلت الدّرج وهي لا تزال شاخصةً إلى هاتفها الخلوي. لم يكن لمتجر ميمورابيليا موقع إلكترونيّ وإنّما صفحة غير ناشطة على فيسبوك ذُكر فيها أنّه يفتح أبوابه من التاسعة صباحًا حتّى السابعة مساءً في 24 كانون الأوّل/ديسمبر.

ما أن وصلت إلى الشارع حتّى استولى عليها بردٌ جليديّ أعاد إلى ذهنها منام الليلة الماضية. رفعت عينيها نحو السماء: كان الثلج يتساقط! انثالت ندفات كبيرة كحبّات القطن على الشوارع والأرصفة فغطّتها بقشرة بيضاء بدأت تلتصق بالأرض. أيقظ الشعور بالبرد جوعها. في الماضي، لاحظت أنّ وطأة التحقيق تجعل بعض الزملاء يفقدون حسّ «الطعام والشراب». لم تكن تلك تلك حالها يومًا إذ لطالما اقترنت حماسة القضيّة التي تعمل عليها بحجمٍ من التوتّر يعزّز رغبتها في التهام كلّ ما تقع عليه يداها. ويُفضّل أن يكون مشبّعًا بالدهون أو السكّر. هرعت إلى ممرّ التسوّق المكشوف الذي يربط بين شارع غرونيل وشارع دو باك وجادة راسباي. رصدت مخبزًا فابتاعت منه الكرواسان والقهوة وخرجت. وفيما هي متوجّهة إلى موقف سيارات الأجرة في سان جيرمان، سمعت إطلاق بوق ثلاث مرّات دفعها إلى التخفيف من سرعتها. استدارت فرأت عند زاوية الجادّة سيّارة فالنتين دياكيتيه الصغيرة ذات اللون الأزرق الجليدي.

.2

مكياج خفيف، شعرٌ غير مصفّف، تي-شيرت بتصميمٍ قوطيّ وسترة باركا ارتُديت على عجل. لأوّل مرّة لم تعطي فالنتين انطباعًا بأنّها خارجة من مجلّة للموضة. بدت فرحة الانتصار جليّةً على وجهها المشرق.

– لديّ خبر صاعق!

– استديري نحو اليمين، أشارت روكسان وهي توقف الموسيقى على الراديو. سنعود إلى جادّة مونمارتر، إلى ممرّ بانوراما بالتحديد.

عند الإشارة الحمراء، أمسكت الطالبة جهاز أيباد كان مثبّتًا خلف لوحة القيادة. ظهرت على الشاشة نسخة مقالة ويك-أند التي تناولت علاقة رافاييل وميلينا.

– كيف كان عشاؤك مع كورنتين لولييفر؟

– نجحت في جعله يبوح بما لديه! عرفت السبب وراء ملاحقته لباتاييه!

– قولي.

– لأنّ ميلينا ليست ميلينا! زعقت بعينين لامعتين.

– ماذا تعنين؟

ناولت الجهاز اللوحي لروكسان بمجرّد أن أصبحت الإشارة خضراء.

– انظري إلى الصورة في المقال.

– أيّ صورة؟

– صورة ميلينا ورافاييل في كورشوفيل. التُقطت أمام فندق ليزيريل، أحد أفخم الفنادق في المنتجع.

– نعم، إذًا؟

– ألقي نظرة على الزينة عند مدخل المبنى.

زمّت روكسان عينيها وكبّرت الصورة.

– إنّها دمى روسيّة.

– بالضبط. هل سبق لكِ أن زرتِ كورشوفيل؟

– أتعرفين كم يكسب الشرطي؟

– أنتِ على حقّ. على مرّ السنين، أمسى المنتجع أحد أكثر المواقع شعبيّةً للسيّاح السلافيّين الأثرياء الذين يمثّلون، في بداية شهر كانون الأوّل/ديسمبر، ما يقارب ثلاثة أرباع العملاء، خاصّة في عيد الميلاد الأرثوذكسي. وللاحتفال بالحدث، تُقام العديد من الأنشطة في كورشوفيل. ينزل مدرّبو مدرسة التزلّج الفرنسيّة حاملين المشاعل بأيديهم، والأهـمّ أنّ الفنادق تشارك باللعبة تمامًا حتّى في الزينة.

– حسنًا، إلى أين ستصلين بكلامك؟

– في فندق ليزيريل، تُفرش زينة عيد الميلاد الأرثوذكسي من 2 إلى 23 كانون الثاني/يناير.

– إذًا؟

– إذًا، التُقطت هذه الصورة في شهر كانون الثاني/يناير 2019.

– هذا واضح.

– المشكلة هي أنّ هذا غير ممكن. خلال شهر كانون الثاني/يناير 2019، قدّمت ميلينا بيرغمان سلسلةً من الحفلات الموسيقيّة في اليابان.

– طوال شهر؟ تعجّبت روكسان.

أومأت فالنتين برأسها إيجابًا.

– لقد استعلمتُ عن ذلك. لعلّ اليابان هي البلد الوحيد في العالم الذي لا تزال تلقى فيه الموسيقى الكلاسيكية رواجًا شعبيًا. فالثقافة الموسيقيّة لشعبها حقيقيّة. يخضع اليابانيّون منذ سنٍّ مبكّرة لعدّة ساعات في الأسبوع لتعلُّم الموسيقى. إضافة إلى أنّ للجامعات

أوركسترا خاصّة، بها فيما قاعات حفلات موسيقيّة عديدة ومشهورة بخصائصها الصوتية. ويُنظر إلى بعض الفنّانين الغربيّين على أنّهم نجوم كما هي الحال مع ميلينا التي حقّقت نجاحًا هائلًا في اليابان منذ طرح ألبومها الأوّل.

– وكيف يفسّر صديقك الصحفي ذلك؟

– هو في الحقيقة لا يفعل. لا يمكن لميلينا بيرغمان أن تكون قد وُجدت في مكانَين في نفس الوقت. ولكي يفهم هذا اللغز، أطلق تحقيقًا عن رافا.

مستاءة، رمت روكسان بجهاز الأيباد على لوحة القيادة. كانت متأكّدةً. كان عليها أن تلحّ على استجواب رافاييل والمرأة اليابانية بنفسها بعد الحادث.

– إيه! انتبهي إلى أغراضي! تأفّفت فالنتين.

اتّصلت روكسان فورًا بليام وبدون مقدّمات، وجّهت إليه اللّوم لعدم متابعته القضيّة.

– تواصل مع المختبر لحثّهم على التحرّك، بحقّ الجحيم! قال باتاييه إنّ الفتاة طرقت بيدها على الزجاج. لا بدّ أنّ رجال قسم الأدلة الجنائية رفعوا عشرات البصمات. نحتاج إلى النتائج الآن! وفورًا! لا أهتمّ أبدًا لعذر عيد الميلاد التافه. ينبغي أن نعرف ما إذا...

– اهدئي، رئيس، قاطعها ليام بصوت مطمئن. حصلنا على بعض النتائج الجزئيّة للحمض النووي. أرسلتها لكِ منذ عشرين دقيقة.

اللعنة. لقد تحقّقتْ من رسائلها النصيّة ورسائل البريد الإلكتروني، لكنّها نسيت تطبيق تلغرام.

– سأفسد عليكِ المفاجأة، تابع الملازم. الفتاة التي اختُطفت أمام منزل رافاييل باتاييه ليست ميلينا بيرغمان.

3.

الساعة العاشرة. ممرّ بانوراما.

راحت روكسان تبحث عن المتجر الذي أشار إليه يوردانوف دافعةً الجميع بمرفقيها ومزاحمةً المارّة في سبيل إزالة كلّ العقبات التي تقف في طريقها.

يُعرف الممرّ بأنّه من أقدم أروقة التسوّق المسقوفة في العاصمة، وأوّل مساحة عامّة مضاءةٍ بالغاز في باريس، يمتدّ من جادة مونمارتر في الشمال حتّى شارع سان مارك في الجنوب. لم يكن الصباح قد انبلج لكن اكتظّ المكان بالناس. احتشد أُسارى عيد الميلاد والسيّاح معًا على امتداد الأزقّة الضيّقة يطوفون بالحانات والمطاعم والمتاجر العتيقة: جامعو الطوابع، وتجّار البطاقات البريدية، وباعة العملات النقديّة والحرفيّون الفنيّون. كان الأمريكيون واليابانيون يعشقون هذا السّحر الذي عفا عليه الزمن. وجدوا أخيرًا في هذا المكان صورةً لمدينة باريس تتماشى مع ما تمنّوا أن تكون عليه. هنا، أُعدّ كلّ شيء لإتقان الصورة واستحضار أجواء الحقبة الجميلة: التذهيب، الخشب المنحوت، البلاط الفسيفسائي، السقف الزجاجي ينفذ عبره ضوء مشرق، والمرايا العاكسة إلى ما لا نهاية.

كان الممرّ عبارةً عن متاهة حقيقيّة. تخلّلت الزقاق الأساسي تفرّعات متعدّدة تضمّ تجّار الطوابع الآخرين أو بائعي الكتب أو المقاهي. لمحت روكسان أخيرًا لوحةً مطليّةً بالمينا تشبه الزلّيج الأندلسيّ، كُتبت عليها العبارة التالية: «ميمورابيليا منذ 1956». دخلت الشرطيّة، وفالنتين في أعقابها، إلى الدكّان الصغير الذي فاحت منه رائحةٌ مزيجٌ من الشّمع والغبار.

تبادرت إلى ذهنها فورًا صورة حجرة العجائب. على الرفوف القديمة من خشب الجوز، كُدّس خليطٌ من الأغراض، من الحيوانات المحنّطة أو المتحجّرة أو التوقيعات والرسائل والمخطوطات، تجمع بينها نقطةٌ مشتركةٌ واحدة هي أنّها كانت ملكًا لشخصيّات مشهورة.

في قلب هذه المملكة الصغيرة، أقامت امرأةٌ عرشها مرتديةً فستانًا بشرائط أشبه بزيّ من الحراشف، وظهر شعرها الفاقد صبغته الحمراء من خلف عمامتها الفيروزيّة. بوجهها المحنّط، بدت دائمة الشباب.

– روكسان مونكريستيين، عرّفت روكسان عن نفسها.

– الشرطة مجدّدًا؟ لقد سئمت منكم!

تأكّدت روكسان من أنّها في المكان الصحيح.

– سبق وأخبرت زميلك أنّني لا أكشف معلومات عن عملائي.

– لقد تغيّر الوضع، سيّدتي. الشخص الذي تحاولين حمايته مشتبهٌ بارتكابه جريمة قتلٍ ومحاولة اختطاف.

رفعت المرأة حامل سجائر عاجيّ اللون إلى فمها على غرار أليس سابريتش وتظاهرت بالسَّحْب.

– هذه ليست مشكلتي.

– ستصبح مشكلتك سريعًا في حال اتّخذتُ قرار حجزك في مركز الشرطة لثمانٍ وأربعين ساعةً. تكونين قد خسرت يومًا حافلًا بالمبيعات وودّعت ليلة عيد الميلاد و...

– لكن ما الذي تريدين معرفته بالضبط؟

حاولت روكسان خداع خصمها وتقدّمت برويّةٍ وحذر.

– ما كان يجب أن تقوليه لزميلي.

– اشترى الزبون الذي نتحدّث عنه خصلة شعرٍ لعازفة بيانو ألمانية.

خصلة شعر... اجتاح روكسان إحساس بالإثارة.

– أخبريني القصّة من البداية، من فضلك.

تنهّدت صاحبة المتجر وهي تعبث بأصابعها بعشرات القلادات الطويلة التي تدلّت حتّى خصرها.

– حسنًا، لكن اجلسي. تتعبني رؤيتك واقفةً، قالت بصوتها الغليظ الخشن جرّاء التدخين.

جلست روكسان وفالنتين على مقعدين من البرونز المذهّب مسندهما على شكل تمساحٍ مجمّدٍ في اعوجاجٍ مؤلم.

استهلّت قصّتها قائلة: «منذ حوالي أربعة أشهر، حضر رجل إلى متجري، بدا أنّه على اطّلاع واسع، وسأل عن غرض محدّد: خصلةٌ طويلة من شعر ميلينا بيرغمان».

جفلت روكسان. ها هي تقترب من الحقيقة. استغرق الأمر منها أربعة أيام لكنّها اقتربت من كشف الخدعة. فهي لم تصدّق أبدًا تلك الحكاية عن قيامة ميلينا بيرغمان من الموت. لم تؤمن قطّ باقتحام هذا القرين. ميلينا الحقيقيّة ماتت. وكلّ أمرٍ آخر كان مدبّرًا ومزيّفًا.

– هل تبيعين الشَّعر حقًّا؟ سألتها فالنتين.

كانت حرارة المتجر مرتفعةً جدًّا. راحت سابريتش تلوّح بمروحة من العاج المنحوت أمام وجهها.

– هذا صحيح. تجارة الشَّعر الخاصّة بالشخصيّات التاريخية والمشاهير هي سوق متخصّصة نشطة ومربحةٌ للغاية.

– لكن من هم المشترون؟

– هناك نوعان من هواة الجمع، أوضحت صاحبة المتجر. الجامعون القهريّون الذين يجمعون كنوزهم كما يجمع الأطفال ملصقات بانيني. ثمّ أولئك السّاعون إلى إقامة علاقة خاصّة مع معبودهم.

– علاقة خاصّة؟

حركة جديدة حانقة من مروحتها.

– يمنحك الشَّعر إمكانية الوصول إلى حميميّة لا علاقة لها بالتوقيعات أو المخطوطات أو حتّى أزياء المشاهير. هي أمرٌ شخصيّ للغاية، وجسديّ. تستحوذين على جزء صغير من الشخص فيكاد يصبح ملكك.

لتأييد نظريّتها، نهضت وجمعت إطارات محميّة بغلاف من الزجاج.

– لديّ بعض القطع الجميلة. انظري إلى هذه: ديفيد بوي، تشارلز ترينت، ناثان فاولز... في مسيرتي المهنية، شاركت في العديد من المبيعات الجميلة لعيّنات شَعر يكثر عليها الطلب: البيتلز، إلفيس، مارلين، نابليون، جون كينيدي، تشرشل...

– لكن من أين تأتي هذه النماذج؟

– يوجد الكثير من الموردين المحتملين. مصففو الشّعر الخاصّون، والخدم، وصانعو الشّعر المستعار...

– من أين حصلت على شعر ميلينا بيرغمان تحديدًا؟

– من مزاد خيريّ نظّمه الصليب الأحمر السويسري قبل أكثر من ثلاث سنوات ودُعيت فيه الشخصيات الهامة للتبرّع بأغراض شخصيّة. يانيك نواه عرض مضربًا للبيع، وسولاج لوحةً مطبوعةً طباعةً حجريّة، ولو كليزيو قلمًا، وما إلى ذلك. فكّرت عازفة البيانو بدفتر موسيقى موقّع منها وخصلة شعر. اشتريت القطعة المعروضة مقابل مئتي دولار. كانت قطعةً عاديةً إذ كانت سمعة بيرغمان محدودةً في أوروبا في ذلك الوقت، ثمّ كثُر الحديث عنها بوجه خاص بعد وفاتها.

– واشترى منك رجل إذًا خصلة الشَّعر؟

– نعم، وأراد منّي أيضًا أن أجدلها في سوار. لهذا السبب استغرق الأمر وقتًا طويلًا.

– سوار؟

شعرت روكسان بالدّم يتجمّد في عروقها. «كانت الفتاة ترتدي ساعةً وسوارًا»: رجعت كلمات برونو جان–باتيست، الغطّاس الذي قاد عمليّة الإنقاذ في النهر، إلى مسمعها مثل البوميرانغ. كيف لم تتبع هذا الخيط؟ أرادت أن تسأل طبيب وحدة الطبّ الشرعيّ لكنّه أغلق الهاتف في وجهها. قضيّة مجهولة نهر السين لم تبدأ يوم السبت الفائت. ثمّة خطّة كانت قد وُضِعت قبل أشهر. خطّة هي فيها اللعبة وأحد التروس النشطة في الوقت عينه. اعتبرت نفسها ذكيّةً لأنّها جمعت خصلات الشَّعر في الـI3P. غير أنّ تلك الخصلات لم تكن متوفّرةً بتلك الكثرة عن طريق الصدفة. بل إنّها وُضعت هناك تحديدًا من أجل أن تجدها هي.

– قد يبدو الأمر مشوّشًا لنا اليوم، تابعت سابريتش، لكن قبل الصور، كان الشَّعر رمزًا قويًّا لتعلّق الشخص بمن يحبّ. كانت خصلة تُقصّ من شعر الموتى قبل دفنهم، وكانت خصلة شعر الحبيب، أو العشيقة، أو الأولاد، تلازم الشخص أينما ذهب. كانت تُحفَظ غالبًا في قلادات، لكنها كانت تُستخدَم أيضًا، في كثير من الأحيان، في ترصيع المجوهرات.

– الرجل الذي طلب منك العيّنة، كيف كان شكله؟

– أربعينيّ، شعره بنيّ، عادي.

لم ترتدع روكسان عن رفع صوتها، قائلةً لها: «ابذلي جهدًا، سيّدتي. هذه قضيّة جنائية».

– لا أستطيع اختلاق أشياء! لا قصير ولا طويل. لا سمين ولا نحيف. لا قبيح ولا جميل. عادي وشفّاف. مثل ميستر سيلوفان في المسرحيّة الموسيقية.

نزل على روكسان إلهامٌ مفاجئ. بحثت في هاتفها عن صورة لرافاييل باتاييه وعرضتها على المرأة.

– أكان هو؟

هزّت كتفيها: «لا، على الإطلاق. كنت لأتذكّره لو كان هو».

بقيت روكسان عاجزة عن الكلام للحظة. غمرتها الكآبة فجأةً. شعرت بالخجل لأنّها خُدعت بعمليّة تقليدية في النهاية، ولو أنّها عبقريّة. صدّقت أنّ الحمض النوويّ كان ملِك الأدلّة. خصلة شَعر واحدة كانت كافيةً لتضلّلها.

اقتلعها رنين هاتفها من تأمّلاتها. ليام مرّة جديدة.

– نعم؟

– لديّ عشر ثوانٍ لأتحدّث معك، رئيس. أخرج الآن من كوتشي مع بوتسا. لقد فرّ باتاييه!

– ماذا؟ ولكن متى؟

– منذ بضع دقائق بحسب مقدّمي الرعاية. هرب من النافذة.

– كنتُ أكيدة من ذلك!

مجموعة أغبياء...

– سنحاول القبض عليه، استأنف ليام. سأوافيك بالتطوّرات.

4.

– أسرعي واسلكي ممرّ الحافلات!

– ولكن إلى أين؟ سألت فالنتين.

– لا أعرف بعد. في الوقت الحالي، انزلي باتجاه اللّوفر وريفولي.

كانت تلك إحدى اللحظات التي يحتاج فيها المرء لاستخدام صفّارة الإنذار والأضواء المزوّدة بها سيّارات الشرطة. أغمضت

روكسان عينيها مطوّقةً رأسها بيديها في محاولة لعزل الجلبة والضوضاء من حولها. ما هو دور باتاييه في هذه القصّة كلّها؟ أهو ضحيّة أم مذنب؟ ماذا الذي يدور في رأسه الآن؟ والأهمّ، أين هو؟ تخيّلت في ذهنها مباني كوتشي. كانت تعرف المكان من ارتيادها لعيادة الخصوبة فيه لفترة من الوقت. الموقع ليس بعيدًا جدًّا عن شارع داساس، لكنّ الكاتب لن يخاطر بالعودة إلى المنزل. أين هو إذًا؟ قد يكون استقل سيّارة أجرة في محطة بور-روايال بُعيد مغادرته المستشفى. أو على الأرجح سعى إلى استعادة سيّارته الخاصة. تذكّرتْ بطاقة موقف السيّارات التي وجدتها في منزله. كان لباتاييه اشتراك في الموقف السفلي لأندريه–هونورا، ناحية حديقة لوكسمبورغ.

– اعبري نهر السين واستلمي شارع سان-جاك.

كانت لا تزال مغمضة العينين. كم مرّ من الوقت على خروج باتاييه من المشفى؟ عشرون دقيقة؟ نصف ساعة؟ حتّى لو سيرًا على الأقدام، فقد وصل حتمًا إلى لوكسمبورغ. سوف يفلت منهما.

– انعطفي يمينًا، الطريق أسرع عند بولفار سان ميشال. تخطّي الإشارة، لا يهمّ!

فندق فاندوم، مبنى المدرسة الوطنيّة للمناجم، ثمّ، أبعد بقليل، مدرسة ليسيه مونتين. كان ولوج السيّارات إلى موقف هونورا يتم من شارع أوغست-كونت، طريق المشاة الذي يحيط بحديقة لوكسمبورغ من الجانبين. عند اقترابهما من زاوية الشارع، لاحظتا وجود إحدى السيّارات المدنيّة للفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين. لقد راودت الفكرة نفسها بوتساريس وليام أيضًا! لكنّهما افتقرا إلى التعزيزات اللازمة لتطويق الطوابق فقرّرا انتظار خروج الطائر من القفص.

– إلى حاجز الموقف، بسرعة! صرخت روكسان. اسحبي تذكرة وادخلي.

جالت سيارة الميني المستويات الأربعة الأولى. حُظر الدخول إلى المستوى الخامس بحاجزٍ يفتح تلقائيًا بواسطة بطاقة اشتراك.

– انتظريني هنا، طلبت منها روكسان وهي تترجّل من السيّارة.

عبرت الحاجز والتصقت بالحائط نزولًا إلى المستوى الأدنى. من هنا، انزلقت بين الأعمدة الخرسانية ومصدّات السيارات وهياكل المركبات. بدا الموقف في هذا الطابق المضاء بضوء مصفرّ مهجورًا وساكنًا. سرّحت نظرها إلى السيّارات. لا صوت لمحرّك أو صرير إطارات. باتاييه ليس هنا، أو على الأرجح لم تلحقه. انطفأت الأنوار. بقيت روكسان للحظة في الظلام ساكنةً بلا حراك. أغمضت عينيها لاستحضار ذكرياتها. وُضعت بطاقة موقف السيارات التي اكتشفتها في مكتب الكاتب في درج بالقرب من جواز سفره وهاتفه ومفاتيح سيارته. المفاتيح. بالكاد تذكّرتها. ميدالية من المينا الأبيض والأزرق. حرف A منمّق مشطوب بسهم... شعار ماركة ألبين!

أعادت تشغيل الأنوار وسارت في الممشى، متسلّلةً مرّة أخرى بين صفوف المركبات. رأت سيّارة الـ A110 الزرقاء التي تبحث عنها مركونةً في نهاية الممرّ بين سيارتيْ دفع رباعيّ ضخمتين. ما إن اقتربت حتّى لمحت جسدًا في المقعد الأمامي. وجدت رافاييل منهارًا على عجلة القيادة يدفن رأسه بين ذراعيه. للحظة، اعتقدتْ أنّه مات لكن عندما لصقت وجهها بالنافذة أدركت أنّه يبكي.

طرقت على النافذة لكي يراها، فانتفض الروائي واستغرق لحظةً للتعرّف عليها قبل أن يفتح الباب أخيرًا.

– علينا التكلّم بجدّ رافاييل، قالت وهي تجلس قربَه على مقعد الراكب.

أخذ منه الاكتئاب كلّ مأخذ، بدأ يمسح دموعه قائلًا: «حصل كلّ شيء بسببي. المرأة التي ماتت أمس في الحادث، بسببي...».

– إذا أردت منّي أن أساعدك، عليك أن تخبرني بكلّ شيء.

– كانت مصيدةً، كذبة سارت على نحو خاطئ وتسبّبت في النهاية بموت أحدهم.

– أنا على علم أنّ الشابّة التي طاردتها منذ بداية هذا الأسبوع ليست ميلينا.

– أجل، أؤكِّدُ ذلك. اسمها غارانس دو كاراديك.

– لمَ لم تخبرني من قبل، بحقّ الجحيم؟

– لأنّني اعتقدت أنّه يمكنني إصلاح الأمور. هي قصّة معقّدة.

تنهّدت ووضعت يدها على كتفه.

– عليك أن تخبرني بكلّ شيء، كرّرت قولها. بالتفصيل. والآن!

13

ابن بيبيل[1]

حتّى إنّ تلك هي الطريقة التي نعرف بها أنّنا أحياء: نرتكب الأخطاء. ربّما الأفضل هو أن نتوقّف عن الاهتمام بكوننا على خطأ أو على صواب بشأن الآخرين، والمتابعة لا لشيء سوى الرحلة ذاتها. لكنّكم ستكونون محظوظين إن تمكّنتم من تحقيق ذلك...

فيليب روث

.1

يسهل عليّ تأريخ بداية هذه القصة بدقّة. لحظة خرجت فيها الأمور عن مسارها الصحيح. كان صباح يوم سبت من شهر تشرين الأوّل، منذ زهاء أكثر من عامين. كان والدي ما زال آنذاك يعيش في منزله في موري-سور-لوان في سين ومارن، على بعد ساعة فقط من باريس. كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا. قرعتُ مطوّلًا جرس الباب،

[1] لقب الممثل الفرنسي جان بول بلموندو.

دون جواب. رأيت سيّارته في الحديقة فصعدت عبر البوّابة ودخلت المنزل مرورًا بالمرآب.

وجدت والدي، مارك باتاييه، ممدّدًا وسط المطبخ في حالة ثمالة. باتت الصورة مألوفةً لديّ. منذ وفاة أختي الصغيرة فيرا وأنا في العاشرة من عمري، والمشهد ذاته يتكرّر، بالسيناريو نفسه تقريبًا. بشكلٍ منتظم نوعًا ما، كان والدي ينبش ألبومات صور أختي ودمياتها المحشوّة التي احتفظ بها. حتّى إنّه ذهب بالفاجعة إلى حدّ نصب الكرسي الخشبي العالي الذي اعتادت تناول وجباتها عليه أمامه والشّرب حتّى الثمالة فيما يحادث شبحها طالبًا منها العفو ومسترجعًا فيلم حياتنا. في مرّة من المرّات أخرج مسدّسه من جرابه وعبث بفكرة إطلاق رصاصة في رأسه للانضمام إليها.

وككلّ مرّة، اتّبعتُ البروتوكول المألوف: نزعتُ عنه ملابسه وسحبته تحت الدشّ – ماءٌ ساخن أوّلًا ثم القليل من الماء البارد – أدخلته بعدها السرير ووضعت على المنضدة قربه كوبًا من الشاي الداكن الساخن وكأسًا كبيرة من عصير الليمون والزنجبيل.

لم ألقِ عليه اللّوم يومًا. على العكس تمامًا. كنت أعلم أنّ سقوطه في هاوية الحزن ليس سوى صمّام أمان. وسيلة أساسية للتنفّس ساهمت في إبقائه على قيد الحياة حتّى اليوم. عرفت بعدها أنا أيضًا أوقاتي العصيبة، ولحظاتي السوداء، وشياطيني المألوفة. وقف والدي دومًا جنبي، دون مواعظ. جاء عدّة مرات لجلبي من مخفر الشرطة بعد مشاجرات قمت بها. رافقني مرّتين إلى مستشفى الطبّ النفسي بعد أن جرفني نداء الفراغ بعيدًا. كنّا دائمًا موجودَين للمساندة والاتّكاء على بعضنا البعض في كلّ وقت عصيب. كان والدي رجل حياتي. وكنت رجل حياته.

عدت إلى الصالون وقمت ببعض التنظيفات. أعدت الكرسيّ العالي مكانه ورتّبت الدمى المحشوّة، من بينها الفيل الشهير الذي كانت فيرا تحمله معها إلى كلّ مكان والذي شهد على معاناتها في سيّارة والدتي. الرفيق الأخير. الصورة الأخيرة التي أخذتها معها. طبعًا أنا أيضًا كنت أنفجر بالبكاء في كلّ مرّة أرى فيها الدمية، وأرغب في وضع حدّ لحياتي. حتّى أنا داعبت مسدس الـMR 73 وتلاعبت بفكرة تفجير رأسي للانضمام إليها في الجنة. كنت أعلم بوجود هذا الاحتمال الكبير بأن تنتهي الأمور بهذا الشكل في يوم من الأيّام. لقد استعدّ جزء منّي لذلك منذ وقت طويل. لكنّ هذا لن يحصل اليوم، ليس بهذا الشكل.

أعدت السلاح أخيرًا إلى الجراب. ثمّة قاسمٌ مشترك يجمعنا أنا وأبي، هو أنّنا شخصان عاقلَان غير عقلانيّين. كائنان متّزنان من عالم عدم الاتّزان.. نصاحب الجنون والفوضى دون الانصهار فيهما بشكلٍ كامل. ودائمًا ما يعيدنا تعطّشنا للحياة إلى النور.

انتهيتُ من التنظيف ووضعت الصور في مكانها في الألبومات، فأصابتني قشعريرة غير مفاجئة البتّة. تأسّفت على وجود والدتي في معظم اللقطات. كانت تحمل إعجابًا خاصًّا بنفسها جعلها تجد دومًا وسيلةً للتسلّل إلى الصورة، بعكس والدي الذي اشتغل كمصوّر. لم ألمح، وأنا أقلّب الصفحات، سوى أربع صور نظهر فيها أنا وأختي بجانبه. أربع صور ذكّرتني بالطفولة السعيدة التي عشتها إلى أن بلغت العاشرة من عمري. لم تدم البراءة وقتًا طويلًا، لكنّ ذلك العقد من عمري شيّد لي إطارًا وأُسُسًا أعتمد عليها وحمتني، في نهاية المطاف، من أشياء كثيرة. لكن ليس من كلّ شيء.

2.

في أحد الألبومات، أعدت قراءة قصاصات من صحف قديمة لم أرها منذ فترة طويلة. مقالات من لا بروفانس ولا مارسييز نُشرت في الأيّام التي أعقبت اعتقال راينالد بفيفيركورن، البستانيّ. لحظة المجد في مسيرة والدي المهنيّة. فقبل أشهر قليلة من وفاة فيرا، تعرّفت فرقة مكافحة الجرائم التي كان يقودها في مرسيليا على هويّة أحد أخطر القتلة المتسلسلين في فرنسا في العصر الحديث واعتقلته. كان الملقّب بـ«البستاني» بفيفيركورن شخصًا منحرفًا يعاني من اضطرابات عقليّة اختطف وقتل ثمانية أشخاص – ست نساء ورجلين – في ضواحي مرسيليا بين العامين 1987 و1989. حاول البستانيّ الهروب في قطار إلى بلجيكا في شباط/فبراير من العام 1990 بعدما عَلم بكشف أمره، فحاصره والدي واثنان من رجاله، نوسيرا وألبرتيني، «على الطريقة التقليديّة» على درجات السلّم الكبير في محطة سان-شارل، كما حوصر بلموندو نوعًا ما في فيلم الخوف على المدينة.

ذلك التلميح إلى «بيبيل» ورد في مقالة لا بروفانس وما زال، بعد ثلاثين عامًا، يشعرني بالفخر. هي تلك الصورة التي احتفظتُ بها لأبي. صورة لا تُمحى. صورةٌ هوّنت تحمّل الصور كلّها. فقد شهدت مسيرته، بُعيْد هذا المجد ونقله إلى باريس، لحظات خيبة كثيرة جاءت نتيجة حالته النفسيّة والتعيينات التي حصل عليها. في عدّة مناسبات، لم تتركه المفتشية العامة للشرطة الوطنية وشأنه. خفتْ عليه في كلّ مرّة حاولوا الإيقاع به، إنّما كان للمحنة تأثير على نهوضه من جديد. قبل ذلك بثلاث سنوات، كان على وشك أن يُفصل من العمل بعد أن وضع جانبًا لوحين من الحشيش كان ينوي أن يكافئ

بهما أحد المخبرين.لكن لحسن الحظ عثرتُ على محامٍ بارع أحبط العمليّة في الوقت المناسب.

اليوم، هو على مشارف التقاعد. كنت أعلم أنّه استُبعد منذ فترة طويلة. تقاذفتْ دوائر الخدمة حطامه كقطٍّ مشرّدٍ وتوارى معظم مناصريه عن الأنظار. أصابني الأمر بألمٍ عصر أحشائي. فكّرت غالبًا في الأمر، يقودني مزيج من الغضب والوجع هو نفسه لم يشتبه حتّى بوجوده.

انصبّ هذا الغضب بادئ الأمر على والدتي، إليز باتاييه. بعد موت أختي، وبينما طالب كلٌّ من والديّ بالحضانة الحصريّة لي، عُثر على قاضيةٍ في محكمة الأسرة حسمت القرار لصالح والدتي! لم يدم تعايشنا شهرين. امتنعتُ عن توجيه الحديث إليها إلّا لتعذيبها بالإهانات والشتائم. هربت مرارًا وتكرارًا لألحق بوالدي، وبقصد تشويه سمعتها، أخبرتُ المدرسة كلّها أنّها كانت تحبسني عاريًا في قبو المنزل وتستقبل رجالًا في سريرها ليلًا. ثمّ في صباح أحد الأيّام، علمتُ أنّ حبيبها، طبيب الأسنان جويل إسبوزيتو، الذي رزح تحت وطأة الفضيحة التي أعقبت وفاة أختي، شنق نفسه على شجرةٍ في حديقته، ممّا سرّع رضوخها. وافقت في البداية على الحضانة المشتركة ثمّ بعد فترةٍ وجيزة، انتقل والديَ للعمل في باريس فلم تعترض على انتقالي معه.مكتبة .. سُر مَن قرأ

بقيت إليز باتاييه تتّصل بي وتراسلني لسنوات رغم أنّني لم أردّ يومًا على مكالماتها ولم أفتح رسائلها. عند بلوغي الخامسة عشرة، كانت قد سئمت ولم أعد أسمع عنها شيئًا. ثمّ حاولت الاتصال بي مرّة أخرى من خلال دار النشر بعدما أصدرت روايتي الأولى، لكنّني طلبت إعادة رسائلها. المحاولة الأخيرة كانت قبل عشر سنوات بمناسبة توقيع كتابٍ لي في فيرجن ميغاستور في الشانزليزيه.

تعرّفت عليها من بعيد ورفعت لها إصبعي الأوسط، ما ردعها عن الاقتراب أكثر.

أعدت ترتيب ألبومات الصور على رفوف المكتبة، بجانب المئات من أسطوانات الموسيقى الكلاسيكيّة. كان والدي متعلّمًا ذاتيًّا وحمل شغفًا خاصًّا بالبيانو. وضعتُ أسطوانةً بشكل عشوائيّ على القرص الدوّار، فقط لأنّني أحببت غلافه – معزوفة الجيمنوبيديه لإيريك ساتيه تؤدّيها ميلينا بيرغمان – بينما كنت أغسل الأطباق وأكنس الأرض. ما إن أنهيت التنظيف حتّى حضّرت لنفسي فنجانًا من القهوة لأشربه على الشرفة. كان والدي قد نسي على منضدة خشب الساج علبة سجائره وولّاعة زيبو نُقش عليها أسدٌ مشتعل الشَّعر. أشعلت سيجارة، أنا الذي لم أدخّن يومًا. هي وسيلةٌ مثيرةٌ للشفقة لأن أبقى بالقرب منه. لأن أبدأ في قتل نفسي ببطء شديد ومرافقته في الموت. لأن أخفّف من شعوره بالوحدة. فقد كان الموعد النهائي قد اقترب بشكلٍ خطير في الأيام القليلة الماضية، إذ كشف فحص الرئة والخزعة في وقت سابق من هذا الأسبوع أنّ سرطانًا في مرحلة متقدمة ينمو في رئتَي الأسد العجوز.

رافقت والدي إلى المستشفى لإجراء الفحوصات الطبيّة حيث عرض طبيب إدراجه دون تأخير في بروتوكول العلاج الكيميائي، الطريقة الوحيدة لاحتواء تطوّر المرض. شكره والدي وأبلغه عدم رغبته في الخضوع للعلاج. نهض بعدها من مقعده، مستهزئًا أكثر منه متحدّيًا، وأشعل سيجارة قبل أن يغادر المكتب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

3.

– مرحبًا يا بطل.

ظهر والدي من جديد حوالي الساعة الواحدة ظهرًا. لم تكن حالته سيّئةً بالنظر إلى الظروف. نكش شعري كما يفعل دائمًا منذ صغري. كان قد حلق ذقنه ولبس قميصًا أبيض وسروال جينز وسترة كنزو عمرها حوالي خمسة عشر عامًا لكنّها ما زالت تفي بالغرض.

– أنخرج لتناول الطعام؟ اقترح عليّ كأنّ شيئًا لم يكن.

– موافق.

– في لا بيل إكيب؟

– هيّا بنا.

كانت لا بيل إكيب عبارةً عن حانة بمحاذاة النهر اعتاد والدي ارتيادها. رغم نسبة الكحول العالية التي ما زالت في دمه، أصرّ على قيادة الكاترهام رودستر. كنت أهديته السيّارة البريطانية ذات المقعدين قبل خمس سنوات، من الطراز نفسه الذي يقوده بيلموندو في فيلم شرطي أو مجرم[2]. عندما وصلنا إلى المطعم، قام بأحد استعراضاته الصغيرة أمام المديرة لكي تعطينا طاولةً «جهة البحر».

طلبنا المحار وبعض السّمك المقلي. اخترت نبيذ بيساك ليونيان بينما فضّل الكوكا كولا زيرو. كنّا في عطلة نهاية الأسبوع. كان الديكور مبتذلًا لكنّ جوّ المكان ريفيّ: مفارش مائدة عليها مربّعات باللونين الأحمر والأبيض، زهور في أصص، عازف أكورديون يعتمر قبّعةً بحريّةً من القشّ... بدا الناس من حولنا يستمتعون بالجوّ. لم يكن مكاني المفضّل لكنّه لا يخلو من السحر لمن يرغب بتناول طبقٍ

[2] Flic ou voyou.

من المحار والبطاطا المقليّة بسعر تسعة عشر يورو وتسعين سنتًا مع النبيذ الأبيض تحت العرائش.

– خطرت لي فكرة: من المريح أكثر لك أن تنتقل للعيش معي في شارع داساس، طوال فترة العلاج الكيميائي.

– لن أخضع للعلاج الكيميائي، سبق وقلت لك ذلك، رافا.

– ولكن، هذا غباء: لن تستسلم للموت دون أن تجرّب!

– بلى، لقد تعبت وسئمت من كلّ هذه الأمور.

– عرفتك محاربًا.

– اسمع، «حارب المرض»، «كن قويًّا»، «ابقَ إيجابيًّا»، كلامٌ فارغٌ لا تأثير له البتّة على انتشار الخلايا السرطانية.

– ألا تخشى الموت؟

– ليس تمامًا.

ثمّ حدّق في عينيّ وتابع: «وكلانا يعرف أنّ جزءًا كبيرًا منّي قد مات منذ زمن طويل».

– «جزءٌ كبير منّي مات منذ زمن طويل»، كلامٌ فارغ أيضًا.

لم يستطع كبت نصف ابتسامة وقال: «أوافق، ولو أنّها الحقيقة».

– إذًا، هل سوف تستسلم للموت؟

حكّ لحيته، مبرطمًا.

– لن يطول الأمر.

– وأنا؟

– ما بك أنت؟

– ألا تهتمّ لبقائي وحيدًا؟

– لن أنفعك بشيء بعد الآن، رافا.

لم يحاول الهروب من نظراتي وما رأيته في عينيه دمّرني: اليقين بأنّه رفع الراية البيضاء.

– أشعر بأنّي فارغ، أكّد قائلًا، ثمّ وقف متذمّرًا ومهمهمًا شيئًا من قبيل: «حاجة ملحّة للتبوّل مرّةً أخرى. البروستاتا اللعينة. تبًّا».

بقيت مسمّرًا في مكاني، مذهولًا، مبلبل الفكر. حاولت طيلة الحديث ألّا أدير رأسي، لكنّني كنت على يقين من أنّها كانت هناك وكانت تتابع مناقشتنا منذ بعض الوقت. أختي فيرا. أو بالأحرى شبحها. أو بالأحرى الصورة التي رسمتها في ذهني لشبحها. حوّلت بصري إليها عازمًا على مواجهتها. كانت تبلغ من العمر حينها سبع أو ثماني سنوات. تضع نظّارةً شمسية على شكل قلب، شعرها مصفّف بضفيرتين وتمضغ حلوى السكاكر بالنعناع.

– انتهى الأمر، هذه المرّة سيأتي أبي لرؤيتي.

– لا، لا أظن.

– كان واضحًا، أليس كذلك؟

– لن أسمح له بالذهاب.

خفضت نظّارتها إلى أنفها البارز وقالت: «وأنت، لمَ لا تأتي معنا؟ سنكون سعداء هناك، نحن الثلاثة معًا».

– لا، لا تسير الأمور على هذا النّحو.

– يوجد ترامبولين عملاق وخيول. سنستمتع كثيرًا.

– اذهبي، الآن.

مدّت لي لسانها وسرعان ما تبخّرت مع عودة أبي. كان لا يزال وجهه خاليًا من أيّ تعبير، طلب كأسًا من النبيذ الوردي وأشعل سيجارًا صغيرًا.

– وأنتَ كيف حالك؟ حياتك، الكتب، النساء...

في تلك اللحظة بالذات، تشكّل سيناريو القصّة. مثل مشروع رواية: وميض مفاجئ، حشد من الأفكار التي تكوّن حبكةً مترابطة. من أين انطلقت تلك الشرارة؟ بلا شك من الذنب الذي تملّكني دومًا

تجاه حرمان والدي من الشيء الوحيد الذي كان سيردّ له سعادته. زوجة الابن والأحفاد الذين سوف يعيدون تكوين الأسرة التي نسفتها والدتي. منذ سنوات وهو يخبرني عن رغبته في أن يصبح جدًّا، غير أنّني لم أعتزم يومًا إنجاب طفل. لأنّني كنت سأعيش مع خوفٍ دائم من فقدانه. تمامًا كما فقدنا فيرا.

– بخير، في الواقع. قابلت فتاةً رائعة!

– في باريس؟

– كلّا، في سويسرا، الشهر الماضي. نزلنا في نفس الفندق في لوزان.

– ماذا كنت تفعل هناك؟ تتفقّد موقعًا لرواية جديدة؟

– لا، توقيع كتاب عند بايو[3].

– ومن هي هذه الفتاة؟ موظّفة في بنك؟

اجتاحت ذهني صورة غلاف الأسطوانة التي رأيتها في منزله.

– عازفة بيانو ألمانيّة. من الممكن أنّك تعرفها أيضًا: ميلينا بيرغمان.

شعّ بريقٌ في عينيه، كما تمنّيت بالضبط.

– طبعًا أعرفها! لديّ معظم تسجيلاتها. شوبرت، ديبوسي، ساتيه...

أحببت مزيج الشكّ والفضول والفرح الذي رأيته في عينيه.

– لكن، هل أنتما... تتواعدان حقًّا؟

– منذ شهر، نعم.

– هذا رائع. احكِ لي! كيف هي في الحقيقة؟

[3] Payot هي دار نشر سويسرية تأسست في لوزان عام 1875.

وهكذا رميت القنبلة. حديث هامشيّ أثناء تناول الغداء على البحر لجذب انتباه والدي وإعادة تأجيج محرّكه. وانطلقت الماكينة. طلبنا فنجان قهوة تلو الآخر فيما رحنا نتحدّث لأكثر من ساعة. وشرعتُ في أكثر ما أنجح فيه: الاختراع، التضليل، الكذب. فكان يومًا عظيمًا. ألهبتْ ابتسامته فيض التفاصيل. انخرطتُ في اللعبة شيئًا فشيئًا وبدأت قصّتي تكتسي بالاتساق والتفاصيل. نحتُّ شخصيّة ميلينا بيرغمان بالشكل الذي علمت أنّه سيعجب والدي: أشقر اسكندنافي ممزوج بدفء البحر الأبيض المتوسط. امرأةٌ رصينة، حنونة، تتّسم بالمشاركة والتفاهم. نقيض والدتي. وكلّما تحدّثت أكثر، رأيته يتحوّل أكثر. فانغمست في اللعبة أكثر: وضعت مخطّطًا للزواج وربّما تكوين أسرة أيضًا. في غضون ساعة، تمكّنت من قلبه رأسًا على عقب. عدنا إلى السيّارة بعد نهاية الوجبة وكانت الصفقة منتهيةً: سيبيع منزله ويأتي للعيش معي ليبدأ بعدها جلسات العلاج الكيميائي في أقرب وقت ممكن.

.4

في العام 1971، طلبت بلدة إيلييه الصغيرة في أور ولوار، تغيير اسمها إلى اسم كومبراي، وهو الاسم الجغرافي الذي وصفها به بروست وأوصلها إلى الشهرة في رواية البحث عن الزمن المفقود. تعجبني هذه الحكاية. فهي تشهد على قوّة الخيال: القدرة على خلق كونٍ يستبدل الواقع أحيانًا.

لقد اختلقتُ تلك العلاقة مع ميلينا بيرغمان ووجب عليّ الآن إحياؤها. لكن في ظلّ عائق كبير: كان والدي شرطيًا. لن أكون قادرًا على خداعه لفترة طويلة إذا لم أدعّم كذبتي.

باختياري ميلينا بيرغمان – التي لم أكن أعرف عنها الكثير – حالفني الحظ بقوّة إذ كانت الفنّانة متحفّظةً جدًّا بشأن حياتها الخاصة. لديها حساب على إنستغرام قلّما يُستخدَم، وإن حصل ذلك فمن قِبَل شركة التسجيلات الخاصّة بها فقط. سمحت لي قراءة مقابلاتها القليلة باستخراج بعض المعلومات التي استخدمتها لإثراء المحادثات مع والدي.

أدركت جيّدًا حاجتي إلى مزيد من الذخيرة، فلجأت إلى جوليان هوارو، مصمّم الجرافيك المستقل الذي ينفّذ أغلفة رواياتي. كان هوارو شغوفًا بالصور ومحترفًا في عدد من المجالات: عمل سابقًا في الإعلانات ثمّ تحوّل إلى تصميم مواقع الويب وإخراج الأفلام القصيرة والمقاطع الدعائية للروايات. دون الخوض في التفاصيل، طلبت منه التلاعب بصور عازفة البيانو الموجودة في الإنترنت وتركيب لقطات تجمعني مع ميلينا. كانت النتيجة مذهلةً للغاية وذات فائدة كبيرة تساعد على أن أصمد بضعة أسابيع، لكنّ والدي لم يرغب سوى بأمر واحد: مقابلة الموسيقيّة.

مكبّل اليدين والرجلين، بحثت عن حلّ للتفلّت من عواقب أكذوباتي، ولم أجد. فقرّرت أن أكشف كلّ شيء لوالدي، لكن خانتني الشجاعة عندما وقفت أمامه. كان البروتوكول الطبي قد أنهكه. شعرت أنّ الحقيقة ستعجّل موته، وأنّ الشخص الوحيد الذي أحببته في حياتي والذي تهمّني نظرته إليّ سيموت وفي ذهنه صورة ابنه الخائن البائس. وجب عليّ تدارك الموقف حتّى النهاية. كان هوارو، الذي انتهى بي الأمر إلى سرد القصّة كاملةً له، هو من أطلق الفكرة الحاسمة لأوّل مرة، على شكل دعابة: «الحلّ الوحيد هو في توظيف ممثّلة تلعب دور ميلينا أمام والدك!» تخبّط هذا السيناريو السخيف في رأسي لبضعة أيام. كنت أعمل مع وكيل يتولّى إدارة

الحقوق السمعيّة والبصريّة لكتابي فطلبت منه أن يعرّفني على مديرة لتجارب الأداء فكلّمني عن أدريان كوترسكي التي يعتبرها من الأفضل في باريس.

– لديّ الشخص المناسب لك، أكّدت لي كوترسكي على الهاتف.

رتّبت لي لقاءً مع شابّة تدعى غارانس دو كاراديك قابلتها في وقت متأخّر من بعد الظهر على شرفة مقهى زيمر، بجوار مسرح شاتليه. وصلت متأخرًا وبقيت أبحث عنها لخمس دقائق حيث لم تشبه ميلينا بشيء. لا شقراء ولا سمراء، كانت غارانس دو كاراديك ضائعة بين الحشود. طول متوسط، وجه حادّ، ملامح مبهمة، عينان فاتحتان لكن سارحتان، شعر متوسّط الطول باهت ومتشابك. من ناحية المظهر، وقفت على مسافة بين صورة كاريكاتورية لطالبة في علم الاجتماع، والمعلّمة اليسارية من طفولتي، وزاديست من نوتردام دي لانـد. كانت ترتدي كلّ ما يخطر على البال: سروال فضفاض مجعّد، كوفيّة فلسطينية، صدرية من جلد الغنم صُنعت في لارزاك وجزمة باتوغاس باللون الكاكي.

لم أستطع إخفاء خيبة أملي، لكنّي جاذبتها الكلام رغم ذلك، بدافع الأدب. أخبرتني بإيجاز عن وضعها: أعطت دروسًا في الارتجال في المدارس، وقدّمت بعض الأدوار الثانوية، وعملت منسّقة ملابس في مشاريع للهواة وشاركت في عروض مع فرقة مسرحيّة. بعد ثلاث دقائق، شعرت برغبة في المغادرة. تخيّلتها فورًا بحقيبتها المحبوكة عند مخرج قاعات المحاضرات في نانتير وهي تـوزّع منشورات «الاتّحاد الوطني لطلبة فرنسا» أو حزب «فرنسا الأبيّة» تدعو فيها إلى «تقارب النضالات». لكن لم أرَ للحظةٍ كيف يمكنها أن تجسّد ميلينا بيرغمان.

– لا أريد أن أهدر وقتكِ، قلت رافعًا يدي لطلب الفاتورة. أعتقد أنّ أدريان كوترسكي لم تفهم جيّدًا ما كنت أبحث عنه.

– يمكننا المحاولة على الأقل!

– لا، لا فائدة من ذلك. لا أقصد الإهانة لكنّ الدّور هنا يتخطّى مجرّد تقمّص شخصيّة.

وضعت النقود على الطاولة وتركتها معلّقة على تلك الشرفة المقزّزة. في الأيام التي تلت، نسيت هذه الفكرة الجنونيّة. تدهورت صحّة والدي أكثر فأكثر. لم يعطِ العلاج الكيميائي نتيجةً مُرضيةً وكان الموت يقترب بلا هوادة. بعد أسبوع، وفيما كنت عائدًا ذات مساء إلى المنزل، وجدت والدي بابتسامة مرتسمة على محيّاه يحتسي كأسًا على الشرفة مع مَن اعتقد أنّها... ميلينا بيرغمان. لم يكن انتحالًا للشخصية بل تجسيدًا كاملًا لها. خضعت غارانس دو كاراديك لعمليّةٍ تحويليّةٍ مرعبة بعض الشيء. لقد جمعت كلّ ما في ميلينا: اللهجة اللطيفة، نبرات الصوت، وضعيّة الرأس، الشعر الأشقر الأملس، خفّة النبلاء المقرونة بالاهتمام بالآخر. حتّى الملابس كانت في غاية الانسجام: سوار مطليّ بالمينا، كنزة كشمير لورو بيانا، عطر خفيف، معطف هريتاج. كيف يمكن لممثلة من الدرجة الثانية أن تحقّق مثل هذا التحوّل؟ أين وجدت المال لشراء هذه الملابس؟ كنت مندهشًا للغاية – وسعيدًا لرؤية والدي يطير من الفرح – لدرجة أنّني أخفيت هذه التساؤلات تحت البساط.

اقترح والدي عند وصولي أن نحضّر العشاء. قضينا أمسيةً رائعةً رفعت مجدّدًا من معنويّاته. ثمّ تكرّر المشهد مرّات عدّة في الأسابيع التالية. التزمت غارانس بدورها بشكل جديّ. عقدنا اتّفاقًا ماليًّا، لكنّ الممثّلة بقيت لغزًا بالنسبة إلي. في أيلول/سبتمبر، أُدخل والدي إلى المستشفى، بعد أن نهشه مرض السرطان، وأكّد لي الطبيب بدمٍ

بارد أنّ «كلّ شيء سينتهي في غضون عشرة أيّام». فقرّرت الانغماس في الكذبة أكثر بهدف تخفيف معاناته. فتظاهرت أنّني أنتظر طفلًا من ميلينا.

.5

لم يمت أبي في غضون عشرة أيام. بعد شهرين من هذه النبوءة الفظيعة، عاد إلى المنزل على قيد الحياة على أثر علاجٍ جديدٍ يرتكز على تقوية المناعة وكان تفاعله معه جيّدًا.

– لا زال الأسد العجوز يزأر، سأحظى بفرصة التعرّف على حفيدتي.

كان قد أدخل في رأسه فكرة أنّ «ميلينا» كانت حاملًا بفتاة وتنتظر التأكّد من فحص تصوير الأشعة فوق الصوتية في الثّلث الثاني من الحمل. وجدت نفسي محطّمًا مرّة أخرى. كنت سعيدًا ومرتاحًا لرؤية والدي يتشبّث بالحياة، ومذعورًا في الوقت نفسه من العواقب التي قد تترتّب على كذبتي. لم أستطع النوم بعد ذلك. وقفت عاجزًا. مع سكّين على رقبتي. لم يقتصر الأمر على معرفتي بانعدام الحلّ لإخراجي من هذه الفوضى بل إنّ قصّة الحمل تلك حدّدت موعدًا نهائيًا لا يُحتمل لأكاذيبي.

ومع ذلك، ظهر شيء هذه المرّة أيضًا لينقذني. حدثٌ مفجع، واحدةٌ من أعظم الكوارث في تاريخ الطيران الحديث. في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، تحطّمت الرحلة رقم AF 229 في المحيط الأطلسي ما أسفر عن مقتل جميع ركّابها، بمن فيهم عازفة البيانو ميلينا بيرغمان. في غضون ساعات قليلة، تحسّن وضعي تمامًا جرّاء تلك الحادثة المؤلمة.

أطلقتُ سراح غارانس دو كاراديك ووجدت نفسي، رغمًا عنّي، أمام والدي في دور الابن الذي يحتاج الحماية. أصبحتُ «الرّجل القاتم، الأرمل، المثقل بالكآبة». منتعشًا بعلاجه المناعي، لم يستسلم الأب للهزيمة. استأنف دوره كربّ أسرة وسهر عليّ كما عندما كنت في العاشرة من عمري. كان شفاؤه مذهلًا. مرّت الأشهر واستطعت أن أخلع ثوب الحداد شيئًا فشيئًا. كنّا على مستوى رائع من التفاهم. واستمرّت الحياة. استأنف والدي عمله؛ وانزلقت أنا في رواية جديدة.

لم أسمع بغارانس دو كاراديك مجدّدًا وأوشكت حتّى أن أنسى وجودها. إلى أن جاءت شرطيّة للبحث عنّي في عريني السريّ لتعيد إليّ الساعة التي أخذتها غارانس معها.

III

بهلوانات ديونيسوس

14

الحقائق الأربع

أنت كاتبٌ لأنّه لا يكفي أن تكون نفسك فحسب. أحتاج إلى أن أكون ممثّلة لأنّه لا يكفي أن أكون نفسي فحسب.

جويس كارول أوتس

روكسان

1.

كانت مكاتب أدريان كوترسكي تقع في شارع لينكولن، في الدائرة الثامنة، في الطابق الثالث من مبنى يطلّ على الشارع وعلى فناء صغير بدأ ثلجه بالذوبان. فقد طلعت الشمس من جديد بشكل مفاجئ لتضع حدًّا لتوهّمات «عيد الميلاد الأبيض». كانت روكسان على وشك قرع الجرس عندما دفعت امرأةٌ شابّة – بمظهر عارضة أزياء مع نظارات داكنة وسمّاعات مزروعة في أذنيها – باب الوكالة وهي تتحدث

عبر الهاتف عن تجربة الأداء بمزيج من اللغتين العبرية والإنجليزية. استغلّت الشرطيّة فتح الباب للاندفاع إلى الداخل.

كان وقت الغداء ويوم 24 كانون الأوّل/ديسمبر، فلم يستقبلها أحد في الردهة. في الطابق المهجور، سارت روكسان على امتداد ممرٍّ أرضيّته من الخشب الفاتح وجدرانه مطوّقة بملصقات سينمائية: ليوس كاراكس، فيليب جاريل، برونو دومون وطلاب موهوبون آخرون من تيليراما ولو ماسك إي لا بلوم[1]. في نهاية المتاهة استوديو للتصوير تسرّبت منه أصواتٌ عالية. دفعت روكسان الباب المفتوح جزئيًّا. كانت المساحة شاسعة، محاصرة بجدران رماديّة فاتحة تأوي أجهزة عرض وعاكسات ضوء وطاولة للتحكّم في مزج الصوت. كان فريق صغير يقوم بتجارب الأداء لدور نسائي. على تابوريه في وسط الغرفة، كانت أدريان كوترسكي جالسةً، امرأة شقراء طويلة مليئة بالشغف، تقرأ السيناريو لممثلة. وقف تقنيّان لمساعدتها، أحدهما بالكاميرا والآخر من خلف وحدة التحكّم.

– الشرطة يا رفاق! سنأخذ استراحةً! قالت روكسان مخاطبةً الرّجلين.

ثمّ أومأت برأسها للممثلة طالبةً منها الخروج أيضًا. أزعجتها الأجواء المعزولة والضوء الخافت، فرفعت الستارة الكهربائية لتسمح بدخول الشمس قبل أن تجلس مكان مقدّمي الطلب أمام المديرة التي راحت تراقبها دون أن تنبس بكلمة.

– هل جئتِ من أجل تجربة الأداء؟ سألتها أخيرًا المديرة.

– لا، أنت من سوف تخضع لها اليوم، أجابتها روكسان وهي تلوّح ببطاقتها. أودّ أن تخبريني عن غارانس دو كارديك.

[1] Télérama وMasque et la Plume.

– آه، غارانس، بالطبع...، لفظت كلماتها حالمةً. هل حدث لها أمرٌ سيّء ؟

كانت أدريان كوترسكي امرأةً نحيلة، شقراء مزيّفة ذات سحنة فاتحة وبشرة جافة تتقشّر كمَن أمضى يومًا كاملًا تحت الشمس الحارّة. تخفي نظراتها خلف نظّارات زرقاء مثمّنة الشكل وترتدي صندلًا بكعب عريض وتنورةً مع سترة دنيم ضيّقة.

– هل تعرفينها منذ وقت طويل؟

– أربع أو خمس سنوات. لم تردّي على سؤالي: هل أصابها شيء؟

ارتسمت على وجهها أمارات قلقٍ صادقة.

– أجيبي على أسئلتي أوّلًا.

– رجال الشرطة...، همست كوترسكي.

انضمّت إليها روكسان في اللعبة.

– بالضبط، أعتقد أنّ وظيفتي لا تختلف كثيرًا عن وظيفتك.

– كيف؟

– يشبه نبش المواهب تعقّب المجرمين إلى حدّ ما، أليس كذلك؟ يشبه الأمر عمليّة الصيد. نمسح الأرض للوصول إلى فرائسنا.

– إذا أردتِ. على أيّ حال، كنت أنا من اكتشفت غارانس، هذا أمر مؤكّد.

– أين كانت؟ أخبريني.

– في مسرح قذر. قاعة عروض في سير دو بانتان.

أشعلت كوترسكي سيجارةً، ما يكفي من الوقت لاستحضار ذكرياتها.

– بات كلّ شيء اليوم يمرّ بالعالم الرقمي، لكنّي ما زلت أنتمي إلى المدرسة القديمة. أتحمّل عروض الهواة في الضواحي، حتى الحثالة منها، على أمل أن أعثر على الكنز. عندما رأيتها تمثّل لأوّل

مرّة، كانت غارانس تنتمي إلى فرقة من المرتجلين المجانين كليًّا، في حركة المسرح الحيّ.

– لا يذكّرني الاسم بشيء، أقرّت روكسان وهي تنتصب من مقعدها غير المريح.

– تأسّست شركة المسرح الحيّ في نيويورك من قبل ثنائيّ من الأناركيّين وعرفت أمجادها في الستينيّات. استندت عقيدتها على إشراك المتفرّج في السينوغرافيا المسرحيّة. محو الحدود بين الممثل والمتفرّج...

– باختصار، ما الذي يعنيه ذلك؟ أن يصبح الجمهور ممثّلًا ويشارك في العرض بالارتجال؟

– بالضبط. مع كلّ الانجرافات التي يمكن للمرء أن يتخيّلها، والمرتبطة بالإيديولوجية التحررية في ذلك الوقت. ذهب الممثلون أحيانًا إلى حدّ ممارسة الجنس على خشبة المسرح ودعوة المتفرّجين للانضمام إليهم. كما جنّدوا مدمني المخدّرات لدمجهم في مسرحيّاتهم. باختصار، كان ذلك كلّه متطرّفًا ومريبًا إلى حدّ ما...

أبقت روكسان قضيّتها نصب عينيها محاولة عبثًا أن تربط في ذهنها بين ما قالته لها مديرة الكاستينغ والعناصر التي بحوزتها.

– ما كان الهدف؟

– البحث في العلاقة بين الواقع والخيال. استخدام المسرح متنفّسًا للرغبات المقموعة من المجتمع.

أخذت كوترسكي نفختين متوتّرتين من سيجارتها قبل إعادة تركيز المحادثة على غارانس.

– باختصار، شعرت على الفور، وفي عرض رديء كهذا، أنّ الفتاة تملك شيئًا مميّزًا. حضور وحيويّة وسحر محيّر. ذهبت

وعرضت عليها إجراء تجربة أداء كي أصبح وكيلتها. أجابت «لمَ لا» لكنّها لم تحضر أبدًا!

وقفتْ لتتناول كوبًا من الورق كانت تستخدمه كمنفضة لسجائرها. فتحت النافذة بشكل جزئي وواصلت التدخين تحت أشعّة شمس الشتاء الباهتة.

– وجدت نفسي أركض وراءها. شيئًا فشيئًا، تعرّفت عليها وأدركت أنّني أخطأت جدًّا في تقييم الوضع: لم تملك غارانس «شيئًا» فحسب، بل كانت ممثّلةً استثنائيّةً حقًّا.

تنهّدت روكسان. وجدتْ صعوبة في فهم ما يعنيه أن تكون ممثلة استثنائية. بالنسبة إليها، كانت هذه كلمات جوفاء. استمناء فكريّ لجماعة البوبو. لكن لم يكن الوقت مناسبًا لمهاجمة محاورتها، فاكتفت بسؤالها: «ما الذي يميّزها؟ ما الذي يجعلك تعتبرين أنّها ممثّلةٌ استثنائية؟»

– أوّلًا، لديها موهبةٌ نادرة للغاية: القدرة على لعب كلّ الأدوار. غارانس هي الممثّلة الأعظم. أتذكرين ميريل ستريب أو داستن هوفمان في الثمانينيّات؟ تصدّقينهما في دور شخصيّة مثيرة جنسيًّا، كما تصدّقينهما في دور سيّد أو سيّدة عاديّين. أناس مثل هؤلاء لا يقبلون بحصر أنفسهم داخل صندوق. هم في غاية المرونة.

تجهّمت روكسان متشكّكة.

– أجد صعوبة في تصوّر ذلك بشكل عمليّ، خارج المبالغة في الاصطلاحات.

أجابت كوترسكي وهي تطفئ سيجارتها: «فهمت، تعالي لأريك».

توجّهت نحو المنضدة حيث وُضع الكمبيوتر المحمول.

– بقي الممثّلون الطامحون لفترة طويلة يحملون معهم كتابًا مليئًا بالصور. أمّا اليوم فقد بات لكلّ شخص تجربة أداء مسجّلة على مواقع الفيديوهات.

بعد ثوانٍ قليلة، بدأت الشاشة بعرض مونتاج مؤلّف من مقتطفات أفلام قصيرة ومسرحيّات. شهدت الصور بالفعل على النطاق الواسع للأدوار التي أدّتها غارانس دو كاراديك. كانت اللقطات مبهرةً خاصّة بتنوّع الشخصيّات التي تقمصتها الممثّلة، لدرجة غدا من الصعب التصديق، بين مشهدٍ وآخر، أنّها كانت المرأة نفسها.

– يظهر الأمر سهلًا كونها موهوبةً، أوضحت أدريان كوترسكي. لكن من الصعب جدًّا إتقان أدوار مختلفة لهذه الدرجة. لديك الفطرة من جانب، والحدس من جانب آخر، ولكن أيضًا الكثير من الجهد والألم للنفاذ إلى جوهر الشخصيّة. الكاميرا تحبّها، المسرح يحبّها. بمجرد ظهورها، يحدث أمر ما.

كان في صوتها مزيجٌ من الإعجاب والحنان.

– فهمت كلّ هذا، وافقت روكسان، لكن ثمّة أمرٌ يشغلني: إذا كانت غارانس تتمتّع بموهبة كهذه، كيف لم تجد دورًا يليق بها في السينما أو المسرح؟

غابت مديرة الكاستينغ في تنهيدةٍ طويلة.

– لقد كشفتِ عن الميزة الأخرى لهذه الفتاة، ميزةٌ تنفرد بها عن كلّ الممثّلات اللواتي أعرفهنّ: غارانس ليست في الواقع ممّن يطلبون الأدوار.

2.

– أتعرفين كم عدد العاملين في قطاع الترفيه بصورةٍ متقطّعة في فرنسا؟ سألت أدريان كوترسكي.

ألقت روكسان – التي لم تكن تحبّ أن تخطئ أمام أحد – رقمًا عشوائيًّا.

– ثلاثون ألفًا؟

كانت المرأتان قد انتقلتا إلى مطبخ صغير مجاور للاستوديو. سكبت المديرة المسؤولة عن اختيار الممثّلين الماء الساخن في أكوابٍ كانت على الطاولة: الشاي لها، والقهوة لروكسان.

– ثلاثمائة ألف، بينهم أكثر من خمسين ألف ممثّل، أعلنت كوترسكي. نضيف إلى ذلك الفتيات الصغيرات اللّواتي يؤدّين دور الأميرات على إنستغرام، وثلّة مرشّحي تلفزيون الواقع، وعارضات الأزياء من كافة الأنواع اللّواتي يسعين إلى الشهرة بأيّ ثمن، وما إلى ذلك. باختصار، يظنّ كلّ شخص في فرنسا نفسه ممثّلًا.

أدركت روكسان مرادها، فطرحت استنتاجًا لتهوّن عليها الأمر.

– في حين أنّ عدد الأدوار محدود حتمًا...

أومأت كوترسكي برأسها إيجابًا.

– تعمل وكالتي على مستوى راقٍ. مهمّتي أن أجد مئة وخمسين إلى مئتي دور كحدٍّ أقصى في السنة. وظيفتي إذًا أن أقول لا. وظيفتي تحطيم حلم الـ«أنا» الجامح والهشّ. ولا أحد يرفض دورًا أقدّمه، ولو كان دورًا ثانويًّا في مسلسل على فرانس 2. حتّى في هذه الحالة، تتقاتل خمسون ممثّلةً في الوكالة على الدور. لا أحد يرفض سوى... غارانس دو كارادِيك.

لمست روكسان لدى كوترسكي شعورًا أشبه بخيبة أمل غراميّة. سارحة الفكر، فتحت كيس مُحلٍّ صناعيّ وسكبته في مشروبها الساخن. قرأتْ روكسان على كوبها عبارةً مقتبسةً منسوبةً إلى مارلون براندو: «الممثّل هو شخص لا يسمعك إذا لم تكن تتكلّم عنه».

– قبل ثلاث سنوات، رفضت غارانس عرضًا من المخرج جاك أوديار، أردفتْ مديرة الكاستينغ بنبرة فيها استياء. كنت قد تولّيت في العام السابق لذاك تجارب الأداء لفيلم فرنسي من توقيع ديفيد فينشر الجديد وعرضنا عليه أكثر من مئة فتاة. واحزري من هي الفتاة الوحيدة التي اختارها؟ غارانس طبعًا! إلّا أنّ الآنسة دو كاراديك لم تظهر ذرّة اهتمامٍ بالفيلم. أجرت التجارب فقط لاستمتاعها بذلك، وتوقّفت عند هذا الحدّ. من المؤسف امتلاك مثل هذه الموهبة وعدم استخدامها!

تحوّل الإعجاب الآن إلى انزعاجٍ ثمّ غضب.

– ولكن ما الذي تبحث عنه إذًا؟ سألت روكسان.

– لا يهمّها سوى الخبرة والتحدّي في الدور. التمثيل بذاته لا الشهرة. ولا أن تصبح النجمة الجديدة. غارانس عاشقة مسرح. تتقن الآداب الكلاسيكيّة وتعرف النصوص الرائعة، لكنّها تعتبر أنّ التمثيل يقارب الأداء الكليّ. تقول، دون كلل، إنّها لا تتنفّس إلّا عندما تمثّل، وإنّ المسرح ساحر، لأنّ كلّ شيء يُستنفد في اللحظة. شغوفةٌ إلى أقصى الحدود.

ردّت روكسان محاولةً تغيير الموضوع: «وكاراديك، من أين يأتي الاسم؟ من بروتاني على ما أظن».

– نعم. تتحدّر غارانس من عائلة أرستقراطية قديمة. كان والدها، أبل توسان دو كاراديك، دبلوماسيًّا لامعًا أدّى دورًا بارزًا في كيه دورسيه خلال حقبة ميتران. وكانت والدتها، تيفان دو كاراديك،

معالجةً نفسيّةً ماويّة. أدمن الزوجان على الأفيون ثمّ وقعا في النهاية في براثن الهيروين. عاشا نوبات جنونٍ في مراكز التأهيل وما لبث أن مات كلاهما بجرعة زائدة، في قصرهما، على جزيرة في فينيستير.

– كم كان عمر غارانس في ذلك الوقت؟

– سبعة عشر أو ثمانية عشر عامًا حسبما أظنّ. بعد أن أنهت دراستها، سافرت للإقامة مع عائلةٍ أجنبيّة في بريطانيا العظمى حيث قابلت رجلًا غريبًا اسمه أمياس لانغفورد، وهو ممثّل إنكليزي أنشأ فرقةً من الكوميديّين. رجل مريض، مجنون كليًّا.

ومضت فكرة في ذهن روكسان.

– أخبريني المزيد عنه.

أشعلت كوترسكي سيجارةً أخرى كما لو أنّها كانت تحتاج إلى جرعة أخرى من النيكوتين لتحفيز ذاكرتها.

– أمياس هو خرّيج الرادا، الأكاديميّة الملكية للفنون المسرحية، مدرسة المسرح الأقدم والأشهر في إنكلترا. كان يمكن له هو أيضًا أن يحظى بمهنةٍ باهرة دون شكّ. فقد أدّى عدّة أدوار في إنتاجات بي بي سي. كما تدور قصّةٌ حوله، حقيقيّةٌ على ما أظنّ. قبل بضع سنوات، أدّى دور مقاتلٍ مقاوم في فيلم تلفزيوني عن الحرب العالمية الثانية وذهب في مسألة التشابه إلى حدّ زراعة سنّ مجوّفةٍ تحتوي على كبسولة سيانيد حقيقية! أتركك لتتخيّلي الشخصيّة بعض الشيء...

– آه، هو أيضًا من أصحاب فكرة «الفنّ من أجل الفنّ»؟

– بل هو أكثر تطرّفًا حتى. أمياس لانغفورد رجلٌ متطرّفٌ ومبالغ، معاشرٌ للبيئات الأناركيّة والمناهضة للرأسمالية. ينادي بمسرح شامل، ثوريٍّ وخلافيّ.

– ما الذي يعنيه هذا من الناحية العمليّة؟

– هراء. شطحاتٌ كبيرة غنائية – دفع حدود الخشبة، إدراج المسرح في الحياة، طمس الحدود بين الفنّ والوجود – ولكن قبل كلّ شيء، استفزازات كثيرةٌ رخيصة. أتذكّر المسرحية التي شاهدتها في سير دو بانتان. أراد أمياس إعادة إنتاج حادثة من تخيّل بيتر بروك، فقام الممثّلون في نهاية العرض بإطلاق فراشاتٍ حيّةٍ بأجنحة مشتعلة نحو المتفرّجين. هي ذروة اللذّة لديهم: خلق عدم ارتياح بين المتفرّجين بهدف دمجهم في العرض.

وضعت روكسان هاتفها المحمول على الطاولة. كان في الوضعيّة الصّامتة، لكنّها كانت تلقي نظرةً على شاشتها في كلّ مرّة تردها رسالة. بعد الفشل الذريع في عملية فرار باتاييه، أُقيل بوتساريس واستُدعي للمُضِيِّ في إجازته. أعاد سوربييه بنفسه ترؤّس الفرقة المسؤولة عن التحقيق. وإن لم يستطع إعادة روكسان إلى منصبها بشكل رسميّ، إلّا أنّه أقرّ باستحالة الاستغناء عنها أيضًا في هذه القضيّة. لم يتوقّف ليام عن تزويدها بالمعلومات، لكن بموافقة الرئيس الكبير هذه المرّة. كانت الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين قد تقصّت عن غارانس دو كاراديك في ملفّات البيانات لديها إلّا أنّ الحصاد لم يكن حتّى هذه اللحظة وفيرًا. أفصحت غارانس عن مكان سكنها الأخير الذي أعيد تأجيره مرّتين منذ مغادرتها، كما أنّ مصلحة الضرائب لم تذكر اسمها، فيما نادرًا ما تحرّك حسابها المصرفي. أثناء الاستماع إلى محاورتها، بحثت روكسان عن صور لأمياس لانغفورد على جوجل – لم تجد سوى واحدةٍ فأرسلتها إلى فالنتين مرفقةً بسؤال: اسألي صديقك الأخرق ما إذا كان هذا الرجل هو من قدّم له المعلومات لكتابة مقالته.

– هل تعتقدين أنّ غارانس تحت تأثير لانغفورد؟

– من المؤكّد أنّ تأثيره عليها ليس جيّدًا. أمياس يرضيها براديكاليته، عبر رفض أيّ شكلٍ من أشكال المسرح أو السينما التجارية، ومعارضة جميع القواعد المعمول بها. ولدتُ في بولندا في السبعينيّات. رأيت النّير الشيوعي يغرز في جسد عائلتي ولا أكنّ أيّ تعاطف مع هؤلاء المتسكّعين الصغار الذين يريدون صنع الثورة بتغريدةٍ على أحدث طراز آيفون.

لم تستطع روكسان قمع ابتسامتها.

– أتظنّين أنّه كان يعنّفها؟

– ممكن. ثمّة شيء يجب أن تعرفيه عن غارانس. هي تجنّن الرجال. وكأنّها تسحرهم. وأمياس هو من النوع المتملّك. لن أكون متفاجئةً إذا ما جنّ جنونه.

انتظرتْ بضع ثوان ثمّ أكملت الوصف السيكولوجي لطفلتها المدلّلة.

– غارانس فتاةٌ معقّدةٌ. ممسوسةٌ، لكنّها محبّبة للغاية. فتاة رومانسيّة في بحثٍ عن المطلق. تحمل في داخلها نوعًا من الكآبة القاتمة جدًّا. برأيي، لن تكون سعيدةً أبدًا. والآن، أودّ أن أفهم: هل أتيت لاستجوابي لأنّ غارانس مشتبهٌ بها في قضيّة ما أم لأنّها ضحيّة لشيء ما؟

– نعتقد أنّها اختُطفت.

– من خطفها؟ أمياس؟

– ربّما. هل سمعتِ غارانس تتحدّث من قبل عن عبادة ديونيسوس؟

– لا، لكنّ الفرقة التي أسّستها مع أمياس...

– نعم...؟

– اسمها بالفعل «بهلوانات ديونيسوس».

شعرت روكسان باندفاعٍ من الأدرينالين روى كلّ شبرٍ من جسدها. كانت تقترب بلا رحمةٍ من العقل المدبّر الذي يتلاعب بخيوط هذه القضيّة المظلمة.

– ولستِ أوّل شخص يطرح عليّ هذه الأسئلة، تابعت كوترسكي. زارني أحد زملائك منذ أسبوعين.

– ماذا؟

– كان اسمه على اسم النبيذ.

– أيّ نبيذ؟

– شاتو-باتاييه.

أومأت روكسان برأسها. واضح، لا يُعقل أن ينخدع شرطيّ مثل مارك باتاييه بأفعال ابنه التهريجية. عندما دخل في الغيبوبة، كان باتاييه يحقّق في فرقة «بهلوانات ديونيسوس» ومن الممكن أنّه تعقّب الشبكة.

موجةٌ جديدةٌ من الرسائل النصيّة من ليام فيها علامات تعجّب. كانت عاملة الغرف في فندق في أورليان قد نبّهت الإدارة بعد عثورها في الحمّام على جلد حيوان ملطّخ بالدماء وقناعٍ بقرون ماعز. التقطت كاميرات المراقبة فيديوهات في الرِّواق وفي مدخل الفندق.

ظهرت لقطات الكاميرا على هاتفها المحمول. أمياس لانغفورد!

كانت على وشك أن تبعث برسالة إلى ليام عندما بدأ هاتفها بالارتجاج. اتصال من سوربييه بنفسه.

– رئيس! قالت وهي تلتقط الهاتف، أعرف من هو الرّجل الذي يظهر في فيديوهات الفندق!

– أنا أيضًا، ردّ بهدوء رئيس الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين. أمياس لانغفورد، لقد حدّدنا هويّته للتوّ.

لم تستطع روكسان إخفاء خيبتها.

– كيف يمكنني أن أساعدك؟

– أردت أن أعرف ما إذا كنت مستعدّة.

– مستعدّةٌ لماذا؟

– للقيام بنزهة. أنتظرك في الأسفل.

– في الأسفل أين؟

– شارع لينكولن.

فتحت روكسان النافذة لإلقاء نظرةٍ فرصدت سيّارة البيجو الخاصّة بسوربييه متوقّفةً عند زاوية شارع فرانسوا الأوّل.

– إلى أين سنذهب؟

– إلى قاعدة فيلا كوبلاي العسكريّة. سأشرح لك في الطريق.

مارك

.3

أُدعى مارك باتاييه. عمري 62 عامًا. جسدي ممزّق إربًا وروحي تتألّم. قفصي الصدري غائر، عظمة ترقوتي مكسورةٌ، عمودي الفقري مهترئ، رئتاي مثقوبتان. وهيئتي؟ لا يمكنني حتّى أن أخبركم. يعوم رأسي في ضباب ذهني، غارقًا في متاهة الغيبوبة الاصطناعية. كنت دائمًا في حالةٍ مزرية في الحياة. تلقّيت ضربات أكثر مما قدّمت، لكنّني تمكّنت في كلّ مرّة من النهوض. بالفطرة بعض الشيء، ولكن مع كثيرٍ من الحظ. متبلّد الإحساس، لكن بقلبٍ طافح بالدموع. غير أنّ الخوف تملّكني هذه المرّة. ليس على نفسي، بل على الآخرين، بدءًا من ابني رفاييل. يغضبني هذا الشلل في سرير المستشفى، غير قادر على تحريك إصبعي أو لفظ أيّ حرف بينما أعرف التهديد القادم.

كما يحدث غالبًا في الحياة، مهّدت النيّة الطيّبة الطريق إلى المأساة. كذبة صبيانية... في كلّ مرّة أفكّر في الأمر، تصيبني القشعريرة... والغضب. أردت تصديق قصة رافاييل، حقًّا، لكنّني لم أفهم كيف بقيتُ إلى هذه الدّرجة فاقدًا للبصيرة لأكثر من عام! إلى أن فتحَت مقالة ويك-أند عينيّ. تزامن عيد الميلاد الأرثوذكسي في كورشوفيل مع حفلات ميلينا بيرغمان في اليابان. ألقيت اللّوم على سذاجتي لكنّ كذبة رافاييل هذه عصرت قلبي. لأنّني عرفت أنّني أتحمّل الجزء الأكبر من المسؤولية. ولأنّها كانت دليلًا عظيمًا على الحبّ.

لكن أكثر ما أبهرني، من حيث موقعي كشرطيّ، هي الفتاة. كيف تمكّنت من خداعي دون أن ألاحظ؟ كيف استطاعت أن تؤدي دورها بشكل مقنع للغاية، دون أدنى هفوة؟ أردت مفاتحة رافا بالموضوع لكنّي قاومت تلك الرغبة بدافع الخجل. وللوصول إلى حقيقة الأمر، قرّرت التحقيق بنفسي. من كانت؟ ما كانت خلفيّاتها ودوافعها؟ كيف استحكمت في أداءٍ تطلّب كلّ ذلك الجهد والطاقة؟

اكتشفتُ اسمها الحقيقي على أرومة دفتر الشيكات الخاص برافاييل: غارانس دو كاراديك. بيد أنّ هذا لم يجب على تساؤلاتي. لم أجد لها حضورًا يُذكر في الإنترنت، لكنّه كان كافيًا لرسم صورةٍ أوليّة لها. فنّانةٌ تعمل بشكلٍ متقطّع، ممثلةٌ صغيرةٌ في فرقة مسرحٍ صغيرة. احتجت إلى معرفة المزيد. بودرة جرافيت، فرشاة رسم، شريطٌ لاصق: جرّبت الطريقة القديمة لرفع بصمات الأصابع التي ربّما تكون قد تركتها على أسطوانات ميلينا بيرغمان التي قدّمتها لي. تمكّنتُ من الحصول على عيّنتين يمكن استغلالهما. شيء ما أنبأني أنّه من غير المستحيل أن تكون الفتاة مسجّلةً في بيانات الشرطة. ودفعتني حاسّتي السادسة كشرطيّ إلى التقدّم متخفيًّا.

لكي أبقى بعيدًا عن الأنظار، أوكلتُ بصمات الأصابع إلى فانسان تيرسولان، وهو شرطيّ فاسد بعض الشيء كنت قد عملت معه في الدائرة الإقليمية للشرطة القضائية في فرساي. وافق مقابل أربعمئة يورو على إدخالها في ملف البصمات الآلي. عندما أبلغني بالنتائج، بدا على وجهه ذعر شخص كان يعتقد أنّه ملكٌ في عالمه، ليجد نفسه فجأة غائصًا في الوحل.

– في أيّ ورطة أوقعتنا، باتاييه؟ سأل منزعجًا.

كانت البصمة، وإن لم تُثبت هويّتها، مدرجةً في الملفّ في قضيّة قتل تعود إلى العام 2017! كانت قد رُفعت في أفينيون من حاوية قمامة عُثر فيها على جثّة جنديّ سابق. نصحتُ تيرسولان بشدّة أن ينسى هذه القصّة وباشرت التحقيق فيها بنفسي.

كانت غارانس دو كاراديك قد استأجرت من الباطن غرفةً صغيرةً في شارع موسيو-لو-برانس، فوق مطعم سوشي، مع شخص إنكليزي يُدعى أمياس لانغفورد ويعمل ممثّلا أيضًا. لمعرفة المزيد، بدأتُ في اقتفاء أثرها جامعًا في نفس الوقت كلّ معلومة أعثر عليها عن جريمة القتل في أفينيون.

أحاط الغموض بالقضيّة. في خريف العام 2017، عُثر على الجنديّ المتقاعد جان-لوي كريميو، مذبوحًا، في حاوية قمامة في شارع باناستري، على مقربة من قصر البابوات. كان كريميو عضوًا سابقًا في فوج مشاة البحريّة الحادي والعشرين في فريجوس حيث لم يترك سوى الذكريات الطيّبة. لُقّب بـ«سيرجنت هارتمان»، في إشارةٍ إلى الرقيب المدرّب السادي في فيلم كوبريك، إذ كان يملك شخصيةً «صارمةً» قادت المحقّقين إلى مسار الانتقام العسكري. ولكن، ما صلة غارانس دو كاراديك بهذه القضيّة؟ قرّرتُ الذهاب لإمضاء يومٍ

واحد في مدينة الباباوات ومقابلة غابرييل كاتالا، مفوّض الشرطة الذي أشرف على القضيّة.

لم أجد صعوبةً في الحصول على موعد. كان كاتالا، في غضون ذلك، قد أحيل إلى التقاعد وكانت لديه، وفق ما فهمت على الهاتف، بعض الأشياء ليخبرنا بها حول القضيّة. وجدته في ذلك اليوم يعتني بأشجار الزيتون الخاصّة به على أرضٍ مدرّجة بالقرب من غورد حيث بنى سقيفةً من الحجر الجاف. كنّا من الجيل نفسه. كان يعرف قصّتي و«أسطورة» البستانيّ. انسجمنا على الفور ولم يتردّد للحظة في إخباري عن التحقيق الذي أجراه ونحن نحتسي كأس ران كانكان بطعم الدّراق.

– وُجد الضابط السّابق نصف عارٍ، بملابس ومكياجٍ كالمخنّثين، تذكّر كاتالا. ملابس داخليّة نسائية، كعب عالٍ، شال طويل على الرقبة من جلد الشادن مخيّط مباشرة على الجلد.

تصوّرتُ المشهد في ذهني فأصابني بالقشعريرة. الإثارة والاشمئزاز، شعوران غالبًا ما يختلطان في المهنة.

– أمّا الأغرب، تابع الشرطي، فكان وجود أفاعي حيّة في حاوية النفايات.

لم تظهر هذه المعلومة في الصحافة.

– سامّة؟

– لا، أفاعٍ عادية من مونبلييه. لم نعرف أبدًا سبب وضعها هناك.

كان كاتالا شديد التدقيق وقام بتعقّب الدليل تلو الآخر لكنّه وصل إلى طريق مسدود. تعرقَل التحقيق وعُهد به في نهاية الأمر إلى قاضي تحقيق آخر عمد إلى إجراء تحقيقات جديدة مع فريق آخر. شعر كاتالا بالإهانة وغرق في حالة من الاكتئاب منتظرًا تقاعده. وغادر بيت الشرطة منهزمًا. نُسفت القضيّة التي كان من الممكن

أن تُدخله معبد رجال الشرطة العظماء في حياته المهنيّة. بعد ثلاثة أشهر، أصيب بسكتة دماغيّة أضعفته وجعلته يكبر عشر سنوات إضافية من عمره. وها هو اليوم أشبه بجدٍّ عجوزٍ من كتاب مارسيل بانيول، بعيدًا عن الملعب وحتمًا خارج اللّعبة.

– لمَ جئت لرؤيتي باتاييه؟ سألني وهو يجدّد مشروبي. بما أنّك هنا اليوم، فلا بدّ أنّك اكتشفتَ شيئًا جديدًا.

– أعرف لمن تعود إحدى البصمات الموجودة على الحاوية.

– اللعنة... لمن؟

– لممثّلة من الدرجة الثانية، غارانس دو كاراديك. أيوحي لك الاسم بشيء؟

هزّ الشرطي رأسه بخيبة أمل قبل أن يجيب: «لا، إطلاقًا. لم يظهر هذا الاسم يومًا في التحقيق».

– تنتمي إلى فرقة «بهلوانات ديونيسوس».

– الفرق المسرحيّة في أفينيون، نرى الكثير منها.

– سوف أتعمّق في هذا المسار. وسأبقيك على اطّلاع، لكن أودّ لو تسهّل وصولي إلى ملف التحقيق.

– الملف ليس الشيء الأهمّ في هذه القصّة، ضحك كاتالا هازئًا. هذه القضيّة هي قنبلة. أنا على اقتناع بأنّ الأمر يتجاوز إلى حدّ كبير جريمة قتل كريميو.

– لماذا؟

– أتعلم من اكتشف الجثّة؟

– رجلٌ متشرّدٌ، الساعة السادسة صباحًا. هذا ما قرأته في كلّ مكان.

– بالضبط. وصل رجالي إلى هناك بعد عشر دقائق. كان جسد الجنديّ منقوعًا في النبيذ إلى جانب الثعابين الثلاثة. إلى جانب تلك

الزواحف، كان هذا ما أثار فضولي: وجود النبيذ فيما لم تكن هناك نفاياتٌ أخرى.

– ألقاه المتشرّد؟

– لا، سُكب منذ فترة طويلة إذ كانت الجثّة متشبّعة حقًّا. لهذا السبب قمت بتحليله.

– ماذا؟ النبيذ؟ ما الذي كنت تبحث عنه؟ مخدّر؟ سمّ؟

– أردت معرفة من أين أتى مشروب الخمر هذا. أصبح ذلك هاجسًا. حتّى إنّني ذهبت إلى حدّ عرض العيّنات على مختصّين في صناعة الخمور، في اختبار تذوّق أعمى، دون ذكر مصدر العيّنات بالطبع.

– كان بيكيت، أليس كذلك؟

– أبدًا. كان نبيذ بوياك ممتاز. حتّى إنّ اثنين من المختصّين في النبيذ اعتقدا أنّهما تعرّفا عليه بدقّة: شاتو-موتون-روتشيلد من العام 1973.

– مسألتك لا تبدو منطقيّة. لمَ قد يُفرَّط بنبيذٍ باهظ الثمن؟

– يؤكّد هذا أنّ جريمة كريميو ترتبط بطقوس التضحية بالبشر. إعدادٌ مسرحيٌّ دقيقٌ ومدروس للغاية. النقيض التام للقتل غير العقلاني. وبما أنّنا لم نقبض على الجاني...

– ... تعتقد أنّ جرائم أخرى قد حصلت حتمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

.4

الساعة السادسة مساء. في القطار السريع الذي أعادني إلى باريس، حاولت أن أربط بين معلومات كاتالا وغارانس دو كاراديك.

– أيمكنني استعارة جهازك اللوحيّ لخمس دقائق؟

بدا الطالب الجالس بجواري طيّبًا. سلّمني جهاز الآيباد ببعض الرّيبة التي سرعان ما تلاشت عندما أريته بطاقتي. كتبتُ بعض الكلمات الرئيسية فوقعت على مقال لفت انتباهي:

أخبار لو باريزيان

مخالفون يسرقون محلّ نبيذٍ فاخر

تذكّرنا القصّة بعض الشيء بفيلم «مجاري الجنة»[1] الذي يصوّر سرقة ألبرت سباجياري لبنك سوسيتيه جنرال في نيس. لا من حيث البضائع المسروقة، ولكن من حيث طريقة تنفيذ عمليّة السطو.

تفيد معلوماتنا أنّ لصًّا واحدًا أو أكثر قاموا بسرقة لي كاف دو مونسو، شارع كورسيل، وهو متجر نبيذٍ مرموقٍ في الدائرة السابعة عشرة من باريس.

استغلّ السارقون عطلة عيد الفصح لاقتحام المبنى المجاور الذي يضمّ ورشةً صغيرةً للخياطة غير مجهّزةٍ بنظام إنذار. وعندما وصلوا إلى الساحة، حفروا فتحةً قطرها حوالي ثلاثين سنتيمترًا في الجدار المشترك، ثمّ انزلقوا عبرها على عمود للوصول إلى الزجاجات.

وبينما لم تُقدّر كميّة المسروقات بالضخمة إلّا أنّ تاجر النبيذ لا يزال يأسف لسرقة خمس زجاجات من نبيذ شاتو-موتون-روتشيلد، وقد قال مواسيًا نفسه: «لم يسرقوا سوى زجاجات العام 1973، وهي ليست الأفضل من هذا النوع».

[1] Égouts du paradis.

كانت كاميرات المراقبة قد سجّلت المشهد جيّدًا لكن لم تُظهر الصّور لا عدد رجال العصابة ولا وجوههم. أوكل التحقيق إلى الدائرة الأولى للشرطة القضائية في باريس.

تعمّقت في البحث واكتشفت أنّ النبيذ الذي أخبرني عنه كاتالا له ميزةٌ خاصّة. في كلّ عام منذ العام 1945، يطلب شاتو-موتون-روتشيلد، قصر النبيذ الفاخر المصنّف في فئة «بروميِيه كرو كلاسيه»، من فنّانٍ معيّنٍ رسم ملصق النبيذ الخاصّ به. استُدعي لذلك معظم الرسّامين النجوم في القرن العشرين: خوان ميرو، مارك شاغال، آندي وارهول، فرانسيس بيكون، ديفيد هوكني...

يحمل ملصق النبيذ المعتّق من العام 1973، الموقّع من بيكاسو، سمةً إضافيّةً تتمثّل في إنتاجه في العام نفسه من وفاة الرسّام الإسباني. ولتكريمه، اختار البارون فيليب دو روتشيلد، صاحب القصر، لوحةً من مجموعته الخاصّة أعيد نسخها على الملصق.

قمت بالنّزول حتّى أسفل الموقع وضغطتُ على الصورة لتكبيرها. حملتْ لوحة بابلو بيكاسو عنوان باخاناليا. استحضرَت العصور اليونانية القديمة وصوّرت إحدى رقصات السُّكر التي كانت تمارسها معبودات ديونيسوس، إله النبيذ والمسرح.

ديونيسوس؟

كان اسم الفرقة المسرحيّة لغارانس دو كاراديك «بهلوانات ديونيسوس»! لا وجود للصدفة البحتة في أيّ تحقيق. كان كلّ اكتشافٍ بمثابة ضربة فرشاةٍ على لوحة انطباعية. نحو ويكيبيديا لإنعاش ذاكرتي. قراءةٌ سريعةٌ كانت كافيةً لإعلامي بأنّني وجدت الرابط الذي كنت أبحث عنه. من بين سمات ديونيسوس العديدة وردت الأفاعي وجلد الشادن. كانت غالبًا ما تُتوّج الميناداتُ،

معبودات الإله، بأكاليل اللبلاب، وتتبعنه دائمًا عبر الغابة والتلال، حاملات الأفاعي حول أعناقهنّ. رافقنه، في حالة سُكر، مسلّحات، شرسات، يلتهمن ويقتلن في طريقهنّ.

عندما أغلقت الجهاز اللوحي، شعرت بوخزٍ في جميع أنحاء جسدي. شعورٌ لم أحسّه منذ سنوات. أمرٌ مؤكّد عبَر ذهني: سوف لن أغادر خالي اليدين. بعد ثلاثين عامًا من قضيّة «البستانيّ»، ها هي الحياة تضع في طريقي عدوًّا جديدًا.

وما الذي يمكن أن يكون مُسكرًا أكثر من تعقّب إلهٍ أولمبيٍّ يخوض معركته الأخيرة؟

رافاييل

.5

– تفضّل سيّدي، الشاي الأخضر الذي طلبته.

أمسكتُ بالمشروب الساخن الذي أدفأ يدي. كان المشهد الثلجي قد تلاشى وشمس الشتاء الشاحبة والمنخفضة تروي حديقة لوكسمبورغ. الساعة الرابعة من بعد الظهر. أتيت لاستنشاق بعض الهواء النقيّ في الحديقة لئلّا أبقى وحدي مكتئبًا في المنزل. اتصلت بالمستشفى للاطمئنان على والدي. كانت حالته الصحيّة لا تزال غير مستقرّة، والتوقّعات قاتمة. تخلّى الأطباء عن فكرة إخراجه تدريجيًّا من الغيبوبة بعد ظهور التهابٍ في الوريد. أمّا أنا، فقد كان قلبي محطّمًا، رأسي على وشك الانفجار ومعنويّاتي معدومة.

لا تزال صور الحادث تلقي بثقلها عليّ. تحوّلتُ إلى قاتلٍ، قاتلٍ حقيقيٍّ بسبب أكاذيبي، فقدت يوكيكو تاكاهاشي عقلها وفي

محاولتها لقتلي، سلبت حياة أمٍّ شابّة في الثامنة والعشرين من العمر ذنبها الوحيد أنّها كانت في المكان الخطأ في اللحظة الخطأ. وغارانس دو كاراديك؟ أين هي الآن؟ في براثن أيّ مفترسٍ سقطت هذه الفتاة الغريبة؟

حاملًا كوبي بيدٍ، أمسكت بيدي الأخرى أحد الكراسي المعدنيّة ذات اللون الأخضر البحريّ وأزحتها لالتقاط شعاعٍ من أشعّة الشمس المتسلّلة عبر الأغصان. تهالكتُ على المقعد وأغمضتُ عينيّ. حاولتُ أن أجمع أفكاري، تحاصرني الأصوات في خلفيّة حديقة لوكسمبورغ: صرخات الأطفال الذين يلعبون حول نافورة ميديشي، الهواء في الأشجار العالية، رفرفة أجنحة الحمام الطائر.

لم تقدني خطواتي إلى هنا بالصدفة. ففي هذا المكان، رأيت غارانس دو كاراديك آخر مرّة، منذ أكثر من عام بقليل. كنّا قد اتفقنا على اللّقاء في بافيون دو لا فونتان، الحانة التاريخيّة في لوكسمبورغ، وكان تعاوننا على وشك الانتهاء. لقد حرّرني موت ميلينا بيرغمان من كذبتي ولم أعد بحاجةٍ إليها. تعهّدتُ بتسديد مبلغ من المال إليها كتسويةٍ كاملةٍ ونهائيّةٍ لكافة الحسابات. بعد أن جلسنا، طلبنا كأسين من النبيذ الساخن. كانت ألوان الخريف مهيمنةً على المنظر فصبغت السماء بلون الكراميل. راحت فرقة موسيقية مدرسية تعزف تحت كشك الموسيقى. لا زلت أتذكّر مظهر غارانس جيدًا في الوقت المتأخّر من بعد ظهر ذاك اليوم. كانت قد بدأت تخلع عنها تدريجيًا دور عازفة البيانو الألمانية. استعاد شعرها بعضًا من تموّجاته وبدأ يعود إلى لونه الداكن، كما أفرجتْ عن ملامح وجهها. ظهر بريقٌ في عينيها وباتت هيئتها أقلّ جرمانيةً كما أصبحت ابتسامتها أكثر صدقًا.

أمّا أنا، فقد كنت هناك ولم أكن. كان ذهني يجول في مكان آخر كما يحدث غالبًا. كنت أفكّر بمرض والدي، بأختي الجالسة معنا والتي لم تبعد نظرها عنّي وهي تشرب الشوكولاتة الساخنة. برغبتي المتعطّشة لجعل والدتي تدفع ثمن عقودٍ من المعاناة التي ألحقتها بنا. بانطباعي الدائم بأنّ حياتي الراشدة لم تبدأ قطّ وأنّ النّور الذي كان بداخلي انطفأ بموت فيرا.

كانت غارانس مفعمةً بالمرح، منطلقة اللسان. اعترفت لي أنّ هذا الدور كان من أكثر الأدوار التي تأثّرت بها في حياتها كلّها، وأنّها ستحزن لعدم رؤيتي بعد الآن. أخبرتني أنّها قرأت كتبي. وأنّنا نشبه بعضنا البعض في جنوننا. وأنّه لا يمكن إلّا لشخص مجنونٍ أن ينقذ مجنونًا آخر. وأنّنا نتشارك نفس الرغبة في الهروب من الواقع.

كانت واحدةً من تلك اللحظات التي يمكن أن تتأرجح فيها الحياة بطريقة أو بأخرى. لقد أهدتني فرصًا لم أحسن استغلالها. بقيتْ في داخلي مساحاتٌ شاسعةٌ مظلمة. كانت حقائبي ثقيلةً للغاية. تعبتُ من كلّ شيء. من أن أتسكّع باضطراباتي في كلّ مكان.

لاسيما أنّني، وعندما نظرت إلى عينيها اللّتين تحوّلتا تحت تأثير الشمس من الأخضر إلى البنيّ، قلت لنفسي إنّه يجب ألّا أتعلّق بتلك الفتاة. ولو أنّ جاذبيةً واضحةً انبعثت منها، فقد رنّ جرس الإنـذار في رأسي لينبّهني إلى أنّ غارانس دو كاراديك ستعذّبني في حال لم أتوقّف عن رؤيتها، وأنّها ستجرّني إلى نفقها المظلم، بل وسوف تعرِّض كلّ شخص من حولي أيضًا للخطر.

طلبت مني الاحتفاظ بالساعة «كهديّة فراق» فقبلتُ، على الرغم من قيمة القطعة.

بقيتُ أتأمّل ضحكتها مكافحًا في مقاومةٍ السحر المتدفّق من تلك المرأة الحالمة وبعيدة المنال التي امتلكت القدرة على إشعال

النار بداخلها بغية حرق شخصيّتها ولبس شخصيّة جديدة. تساءلتُ في نفسي، كيف يمكن توجيه هذه القوّة، وكيف نقوم باختيار الأسباب التي سنسخّرها لخدمتها ؟ لكنّني لم أسألها أيًّا من تلك الأسئلة. فغارانس دو كاراديك أخافتني. تخيّلت لها ماضيًا كماضي شخصيّة ألكسندر دوماس، ميلادي دي وينتر. سلسلة أدوار وهويّات، حياةٌ مفعمةٌ بالتّلاعب والمظاهر الكاذبة.

بينما كنت أستعيد ذاك اللقاء المحبط، رنّ هاتفي وأعادني إلى اللحظة الآنيّة. لا أردّ عادةً على المكالمات ذات الرقم المجهول، لكنّ حدسي دفعني إلى الإجابة هذه المرّة.

– ...فاييل؟ رافاييل، هذا أنت؟

جعلني الصوت أجفل. كانت نبرةً مألوفةً، مضخّمةً بفعل الصدى. انتفضت عن مقعدي مذعورًا.

– غارانس؟ أين أنتِ؟

– في... صندوق سيّارة!... حبسني فيها.

– من؟ من حبسك؟

– أمياس.

كان الاتّصال سيّئًا. اخترقت المحادثة خشخشات وضوضاء مشوّشة. لكنّي سمعت في الخلفيّة بشكلٍ واضح قرقرة محرّك السيارة.

– أتعرفين أين أنتِ؟ بالقرب من أيّ مدينة؟

– لا... لقد سرقتُ هاتفه على... الطريق السريع، لكنّه سيكتشف ذلك! افعل شيئًا!

فركت جفنَيّ محاولًا التفكير.

– قولي لي... ما... ما نوع السيّارة؟

– ...4 × 4... لونها أزرق شرشيري معدني... الصندوق... نقش Q7.

– أودي Q7، حسنًا.

– ساعدني رافاييل... أرجوك!

– اهدئي. سوف أبلغ الشرطة. سيجدون موقعك، هذا مؤكّد. أتعرفين إلى أين يأخذكِ؟

– نعم، أعتقد أنّه... الحدود... من أجل...

ازدادت الخشخشة على الخط أكثر فأكثر. تلاشى صوتها حتّى اختفى.

– لم أعد أسمعكِ.

ساد صمتٌ طويلٌ ترافق بكثير من التشويش. ثمّ سمعتُ صوت إشارة قبل أن يختفي صوت المحرّك بدوره ليفسح المجال، بعد ثوانٍ قليلة، لقرقعة فتح صندوق السيّارة.

– أيّتها العاهرة اللعينة، سرقتِ هاتفي! زعق أمياس باللّغة الإنجليزية. يا لكِ من عاهرة!

أطلقت غارانس نحيبًا طويلًا.

وانقطع الاتّصال.

15

حافّة الجنون

السحر الحقيقي للناس هو الجانب الذي يفقدون فيه توازنهم بشكلٍ ما، الجانب الذي يجهلون عنده أين يوجدون. [...] وأخشى، لا بل أنا سعيد تمامًا، بأن تكون حافّة الجنون لأحدهم هي منبع سحره بالذات.

جيل دولوز

روكسان

1.

إيفلين. اجتازت سيّارة البيجو 5008 الخاصّة بسوربييه القاعدة 107 في فيلاكوبلاي. على مقعد الراكب الأمامي، كانت روكسان في اتّصال مع ممثّل المجموعة الجويّة لقوّات الدرك الذي كان يدلّها على الطريق لولوج المنطقة المخصّصة. كانت مروحيّة بانتظارهما أمام إحدى الحظائر العسكرية. عرّف الطاقم عن أنفسهم: العقيد ستيفان

جارديل القبطان، الدركيّة أودري هوغون قائدة الهليكوبتر، والدركي آلان لو بروسك مهندس الطيران.

دعاهم جارديل بإيماءةٍ من رأسه للدخول إلى المروحيّة H160 ثمّ شغّلت هوغون التوربين. اعتمرت روكسان خوذةً على رأسها قبل أن تستقر في مؤخّر المروحية. وجّهت القائدة الهليكوبتر باتّجاه الريح وسحبت أدوات التوجيه للإقلاع. كانت روكسان قد حلّقت سابقًا على متن مروحيّات يوروكوبتر القديمة المستخدمة في عمليّات تدخّل قوّات الدرك، لكن هذه المرّة الأولى التي تصعد فيها على متن طائرة إيرباص الجديدة. بدا الجهاز، بشفراته التي تشبه البومرانج، صامتًا أكثر بكثير. استمعت لمدّة دقيقة إلى الميكانيكي الذي راح يشيد بخصائص اللعبة الجديدة – سرعة إبحار من 280 كيلومتر في الساعة، مدى تحليق يصل إلى تسعمئة كيلومتر، سعة ثمانية أشخاص – قبل أن تتقوقع وتعزل تفكيرها تمهيدًا لإجراء تقييمٍ لمسار قضيّتها.

تبدأ الاكتشافات والاسكتشافات – كما هي الحال عادة، وبعد فترة من شحّ المعلومات – بالظهور بصورةٍ متزامنة، متجمّعةً في أسراب، بوتيرة سريعة لدرجة يصعب تحليلها. أتاحت المكالمة الهاتفية التي أجرتها غارانس دو كاراديك مع رافاييل تحديد موقع الهاتف الخلوي بين فيان وكوندريو. كان رقمًا من شركة بريطانية باسم أمياس لانغفورد. بعد توقّفه في أورليان، واصل الشاب الإنكليزي طريقه شرقًا نحو ليون. من المرجّح أنّه استلم طريق الشمس السريع ليكتشف بعد وقتٍ قصير من دخوله عاصمة بلاد الغال أنّ غارانس قد سرقتْ هاتفه. ثمّ انطفأ الجهاز، لكنّ سائق درّاجة ناريّة من فرقة البحث والتدخّل اكتشف سيارة الأودي وأبقاها في مرمى النظر من تورنون-سور-رون. نزلت سيّارة الدفع الرباعيّ جنوبًا من طريق العطلات السريع: فالانس، مونتيليمار، كاربنترا. ولمنعه من

الفرار إلى إيطاليا، وافق القاضي على نشر فرقة البحث والتدخّل التي ستوقف الهارب وتطلق سراح أسيرته.

كان الهجوم محفوفًا بالمخاطر. قبل ساعات قليلة من ليلة عيد الميلاد، وفي منتصف العطل المدرسية، عجّ الطريق السريع بزحمة خانقة في الاتّجاهين. كان لانغفورد مسلّحًا، هذا أكيد. ولا يُستبعد أن يكون معه شركاء، كما من المحتمل أن يدرك في مرحلةٍ ما أنّه معرّض لخطر الاعتقال. فيما عيناها لا تزالان مغمضتين، تركت روكسان نفسها تتهادى مع ترنّح المروحية. كانت القضيّة ظاهريًا على وشك أن تُحسم، لكنّها لم تفقه بعد الأسباب الرئيسية لأبطال القصّة. ما كانت دوافع الأطراف فيها؟ أكان مجرّد عملٍ من أمياس لانغفورد مدفوعٍ بالعاطفة؟ لم تصدّق ذلك لثانية. كانت مسرحيّة «مجهولة نهر السين» معقّدةً للغاية وتتطلّب مشاركةً شخصيّةً من غارانس دو كاراديك نفسها. ثمة عنصر آخر بلبلها. حقيقة حمل غارانس. بقدر ما اعترفتْ بأنّها خُدعت تمامًا بحيلة جينات الشَّعر، واجهت صعوبةً في التصديق بأنّ الحمل كان مزيّفًا.

مدّت يدها إلى حقيبتها بحثًا عن علبة البسكويت التي سحبتها من مطبخ مديرة الكاستينغ. أخرجت أيضًا الكتاب الذي أخذته من المكتبة. الكتاب الذي طلبه باتاييه والذي، بحكم الظروف، لم يحضر للحصول عليه. احتفالات الديونيسيا الكبرى. ولادة المسرح الكلاسيكي في اليونان.

غاصت في العمل وفي يدها قلم. كانت المقدّمة والخاتمة مكثّفتين وسمحت قراءتهما، شأن الأعمال الجامعيّة، بتكوين رؤيةٍ مركبّةٍ للأطروحة التي أيّدها المؤلف.

أظهر الكتاب كيف انبثق المسرح الكلاسيكي مباشرةً من عبادة ديونيسوس نهاية القرن السادس قبل الميلاد في أثينا.

كافحت السّلطة لاحتواء الفوضى الناجمة عن عبادة ديونيسوس، والتي تجلّت في ازدياد الفجور الجنسيّ والعنف، إلى حدّ تعريض المدينة للخطر. حفاظًا على النظام الاجتماعي، حاولت أثينا استعادة العبادة لمصلحتها الخاصّة بإضفاء الطابع المؤسّسي عليها على شكل حفلاتٍ كبيرةٍ مقرونةٍ بعروض مسرحيّة. شيئًا فشيئًا، أفسح البُعد الديني للعبادة المجال أمام بُعدٍ مدنيّ هدف إلى تثقيف المواطن من خلال تنظيم مسابقات الفنون المسرحية. أي استخدام المسرح أداةً للرقابة الاجتماعية.

قلبت روكسان الصفحات باهتمام كبيرٍ وسطّرت المقاطع التي قد يتردّد صداها البعيد في قضيّتها. مرّة واحدة في السنة، تُدخل احتفالات الديونيسيا الكبرى في أثينا أشهر الكتّاب المسرحيين في المدينة في منافسة (كانت حقبة إسخيلوس، سوفوكليس، يوريبيديس...). يتواجه المشاركون على خشبة المسرح في الساحة المقدّسة. في نهاية العروض، تختار لجنة التحكيم المؤلّفة من عشرة حكّام الأداء الأفضل ويُتوّج الفائز بإكليلٍ من زهور اللبلاب.

كان ذلك الحدث الاستثنائي يمتدّ على مدار خمسة أيام، أمام أكثر من عشرين ألف متفرّج. لم يكن يُستبعد أحد. رجالٌ، نساءٌ، أغنياء، فقراء، عبيد. تمكّن الجميع – لا بل وجب عليهم أيضًا – المشاركة في العرض. فالمسرح ليس إلّا وسيلة لتطهير المشاعر والعواطف. وفي وقت العرض، كان يختلط المسرح بالواقع. عبر ارتدائه، بالوكالة، ثوب الشخصيّات الخاضعة لعواطفها، كان المتفرّج يشهد على النتائج المدمّرة الناجمة عن مثل هذا السلوك. كانت التراجيديا تتيح له أن يخيف نفسه من دون أثمان.

أدخلت روكسان يدها في حقيبتها متمنيّةً، دون آمالٍ كبيرة، أن تعثر على علبة أخرى من البسكويت. لكن، ما كان هذا الجوع الذي

ينهشها؟ جوعٌ لا يشبع. لم تكن ترغب في سلطة خيار ديتوكس أو سمكةٍ بيضاء بالفاصوليا الخضراء. كانت تشتهي قنابل من السّعرات الحرارية. دهونٌ، نشويّاتٌ، مقالي، طعامٌ يسدّ الشرايين ويفجّر مستويات الكوليسترول الضارّ. أغمضت عينيها محاولةً التركيز على التحقيق، ولكن بدلًا من ذلك، قفزت صور الطعام إلى ذهنها. الكباب الطريّ الذي يُلتهم على عجل في الشارع. ستيك هاوس وبطاطا مقليّة من برجر كينج، في كيسها الفاتر، من تلك التي نلتهمها في السيّارة ونحن في عمليّة مراقبة تكاد لا تنتهي. فطيرة المشمش الإنكليزية التي نبتاعها أحيانًا في الصباح من مقهى بول، شريحة لحم بقريّ مع الفلفل، فطيرة تفّاحٍ فاخرة، دونات بالتوت، أجنحة دجاج، هوت-دوغ مع بصلٍ مقليّ...

2.

– روكسان!

فتحت عينيها لترى سوربييه يهزّ كتفها. اللعنة! لقد نامت. نظرتْ إلى ساعتها. غفتْ لأكثر من ساعتين! أصبح الظلام دامسًا الآن. استعدّت المروحية للهبوط رغم المطر وهبوب الرياح.

– هل من أخبار؟ سألتْ وقد اعتراها بعض الخجل.

سلّمها سوربييه الجهاز اللّوحي الذي تتبّع من خلاله تقدّم أمياس لانغفورد. واصلت سيّارة الأودي طريقها: سالون-دو-بروفانس، آكس أون بروفانس، برينيول، فريجوس، كان، نيس... وصلت الآن إلى كاب-داي، على مسافةٍ قصيرةٍ من موناكو، على بعد ثلاثين كيلومترًا من الحدود الإيطاليّة.

– ستتدخّل الفرقة! صرخ سوربييه ليغطّي على صوت المحرّك.

أشار في الخريطة إلى مفترق لا توربي الذي تهبط باتجاهه المروحيّة. ألصقت روكسان رأسها بالنافذة. رسمتْ أضواء السيّارات من خلال الضباب نهرًا برتقاليًا طويلًا تعرّج عبر الأحراش.

– أين نحطّ؟

أومأت قائدة الهليكوبتر التي سمعت سؤالها برأسها نحو ما بدا أنّه موقف، بُني بعد مسارات نقطة الدفع مباشرة.

بعد ثلاث دقائق، عندما قفزوا من الطائرة، لم تتمكّن روكسان من الرؤية بشكلٍ جيّدٍ بفعل العاصفة التي اندلعت للتوّ في سماء البحر الأبيض المتوسط. تبعت سوربييه في الليل، محتميةً من المطر بسترتها التي رفعتها فوق رأسها. سطعتْ أضواء الشرطة في كلّ مكان، ما جعلهم يعتقدون أنّهم بلغوا المكان بعد انتهاء المعركة. حضر شرطيّ شاب في ردائه البرتقالي لمقابلتهم عند صفّ أجهزة الدفع الآليّة.

قدّم قائد الفرقة لويجي موراتوري نفسه قبل أن يدعوهم لعبور سلسلةٍ من الحواجز حجبت الرؤية عنهم. ما أن بلغوا الجانب الآخر حتّى فهموا الوضع. حُظرت حركة المرور في اتجاه فرنسا-إيطاليا وصعدت عشرات سيارات الشرطة والدرك إلى ممرّ الطوارئ للانضمام إلى زملائهم من فرقة البحث والتدخّل.

– هل أُلقي القبض على المشتبه به؟

– نعم، أجاب موراتوري. اختلق رجال الفرقة ازدحامًا مروريًا مزيّفًا على الطريق السريع ليتمكّنوا من محاصرة سيّارته.

وضعت روكسان يدها فوق عينيها لحماية نفسها من المطر. على بعد حوالي خمسين مترًا، ميّزت سيارة الأودي Q7 التي تلألأت تحت الأضواء بطلائها المعدني الأزرق.

– هل سمح باعتقاله دون مقاومة؟ سأل سوربييه.

– لا. حاول الفرار بعد تبادل لإطلاق النار، أوضح الدركي، لكنّنا قبضنا عليه على الفور وسط العشب الطويل الذي يحيط بالطريق السريع.

– هل من إصابات؟

– أصابت رصاصة كتف المشتبه به. نُقل إلى مستشفى لارشيه كإجراء احترازيّ.

– والفتاة؟ سألت روكسان.

– أيّ فتاة؟ سأل موراتوري.

تركت روكسان الرّجلين اللّذين كانا يحتميان تحت ظُلّة وشرعت في الركض تحت المطر نحو السيّارة الرباعية الدفع. التفّت حول السيّارة. كان صندوقها مفتوحًا وفارغًا.

وقفت مجموعةٌ صغيرةٌ من رجال فرقة البحث والتدخّل، على مقربة من هنا، وراحوا يتراشقون بالنّكات بقصد تخفيف الضغط.

– النقيب مونكريستيين، قدّمت نفسها مع الوصول إلى جانبهم. هل أنتم من حاصرتم الرجل؟

– نعم، نقيب.

– و... في الصندوق، ألم يكن من أحد؟

– لا أحد. فقط الكثير من بقع الدّم.

مارك

.3

كنت بحاجة إلى المساعدة للمضي قدمًا في تحقيقي، لكنّني كنت مقصيًّا من المهنة. الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه مساعدتي دون أن يسألني الكثير من الأسئلة كانت فاليري جانفييه، شرطيّة درّبتها لتشقّ طريقها. مهّدت لي الوصول إلى شخص بارز، بيير-إيف لو إيناف، أحد المحنّكين في دائرة المخابرات الجنائية المركزية. أمضيت برفقته ثلاثة أيام في سيرجي-بونتواز في مكاتب العلوم السلوكية، أتفحّص قواعد البيانات الجنائية. قبل ثلاث سنوات، كانت المدّعية العامة في أفينيون قد استعانت أيضًا بقسم العلوم السلوكية في قضية العسكري المقتول، غير أنّني حملت معي عناصر جديدة دفعت لو إيناف إلى استئناف المهمّة.

ما الذي كنّا نبحث عنه؟ احتمال وجود جرائم قتل أخرى نُفّذت بطريقة تشبه جريمة أفينيون. جرائم قتل ترتبط بعبادة ديونيسوس. بدا من السهل التحقّق من ذلك من الناحية النظرية، لكنّ الكشف عن جرائم قتل متسلسلة يصطدم بالكثير من المشاكل. الاختصاص الإقليمي وصعوبة الوصول إلى قواعد البيانات الأجنبية، إضافة إلى الاستخفاف الذي يبديه المحقّقون، بذريعة ضيق الوقت غالبًا، عند ملء الاستبيانات الداعمة للبرمجيّات.

أجرينا، أنا ولو إيناف، في كلّ مرّة حصلنا فيها على دليل، أو ساورنا شكّ أو حدس، مجموعة مكالمات هاتفيّة للتأكّد. وصلنا إلى نفق مسدود على النطاق الفرنسي، إلى أن لفتت انتباهنا جريمة قتل في المملكة المتحدة. فقد عُثر على تيرينس بومان، قاضٍ شابّ في مقاطعة وارويكشاير، محطّم الوجه ومهمّش الجمجمة، في حدائق كنيسة الثالوث المقدّس في ستراتفورد-أبون-آفون.

وُجِدَت في غرفة يستخدمها البستانيّون ساعة القاضي ومحفظته، إضافة إلى عصا خشبيّة صلبة استُعملت كسلاح في الجريمة. إلّا أنّ هذه العصا لم تكن مجرّد عصا. تبيّن بعد التدقيق أنّها رمح مصنوع من خشب القرانيا منحوت بأوراق اللبلاب ويعلوه مخروط صنوبري. ثيرسوس! الاسم الذي يطلق على صولجان ديونيسوس. لم تتوكّأ التحقيقات على هذا العنصر. فما إن وضع المحققون أيديهم على متّهم محتمل – مدمنٌ عشرينيّ غارق في مستنقع المخدّرات – حتّى أغلقوا ملف التحقيق مرتاحين. في نفس الوقت – وهو ما أكّدته المدوّنة والموقع الإلكتروني الرسمي للحدث – صادف وجود أمياس لانغفورد وغارانس دو كاراديك في ستراتفورد لحضور مهرجان مسرحيّ. فهمت عندئذٍ أنّني كشفت عن قتلة الجندي والقاضي.

قرّرت الاحتفاظ بالمعلومات لنفسي لبضعة أيام واستأنفت تعقّب «بهلوانات ديونيسوس». في هذا الوقت، طالعت الكتب وأجريت الأبحاث للتعرّف على تلك الحقبة من الأساطير اليونانية. ما كانت دوافع ذاك الثنائي الشيطاني؟ ما الذي كان يحرّكهما؟ أشار مراقبو ظواهر الجمعيّات العقائدية إلى إحياءٍ معاصر للعبادة الديونيسية دفع بعض الجماعات، التي نُظّمت في حاشيات، إلى المطالبة بها علانية. استهواهم ديونيسوس كونه جسّد الانقلاب على القيم، والتخريب والفوضى. خطابٌ يتوافق بما يكفي مع جريمتَي قتل الجندي والقاضي اللذين يعكسان رمزين لعالمٍ معياريّ ونظاميّ.

بانتظار أن أفهم أكثر، طاردتهما وتعقّبت كلّ خطوة قاما بها. دخل أمياس متجر طائرات لشراء طائرات بدون طيّار وأمضى وقتًا طويلًا في التدرّب على طيرانها وبرمجتها. مرّ لجلب غرضٍ ما من تاجرة تحف في ممرّ بانوراما، لكنّ العجوز الشّمطاء التي تدير المتجر رفضت أن تفصح لي عمّا كان. عندما لا يكونان في باريس، يبيت غارانس وأمياس في مزرعة بالقرب من فيتري-لو-فرانسوا. نهار 15 كانون الأوّل/ديسمبر، خرج أمياس لصيد وعلٍ بشكل غير مشروع في جبال الألب السويسرية ثمّ عاد بالحيوان إلى المارن. سلخه في فناء المزرعة وشرع يصبغ جلده باستخدام دماغ الحيوان نفسه. تابعت المشهد بالمنظار واعترتني رغبةٌ في التقيّؤ. أزعجتني المراسم برائحتها الكريهة، ولو على بعد أكثر من خمسين مترًا. كان الثنائي يحضّر لأمر ما، هذا أكيد. أكانت جريمة ذبح أضحيةٍ جديدة؟ تُرى من ستكون الضحيّة هذه المرّة؟

يوم الاثنين، 21 كانون الأوّل/ديسمبر، وصلتُ إلى المكتب مبكرًا. اقتنعتُ، بعد التفكير المطوّل في عطلة نهاية الأسبوع، بأنّ خطر التنفيذ قد بات قريبًا، وقرّرت الاتصال بفاليري جانفييه

لتحذيرها. كنت على وشك الاتصال برقمها عندما لاحظت أنّ الضوء الأحمر الصغير يومض على قاعدة الهاتف. شغّلت الرسالة وتعرّفت على صوتٍ من الماضي:

مرحبًا مارك، أنا كاترين أومونييه، نائبة مدير مستوصف مديرية الشرطة. أتصل بك لسماع رأيك بشأن حالة غريبة نوعًا ما. لقد تولّينا صباح أمس قضية شابّة، فاقدة للذاكرة تمامًا، سحبها فريق الإنقاذ النّهري عاريةً من نهر السين. بما أنّني لا أملك عنوان بريدك الإلكتروني، سأرسل لك ملفّها بواسطة الفاكس. اتصل بي لتخبرني إن كنت تعرفها. أراك لاحقًا.

غمرني الفضول ولم أستطع ردع نفسي عن إلقاء نظرةٍ على الطابق الأوّل.

– لا!

عندما اكتشفتُ الوثيقة التي أرسلتها أومونييه، أدركت أنّ الخطر كان أقرب مما تخيّلت.

عليّ أن أنبّه جانفييه على الفور! فكّرت قبل أن أسقط عن الدرج وأفقد الوعي...

روكسان

.4

نيس. 24 كانون الأوّل/ديسمبر. الساعة الحادية عشرة مساءً.

بدت روكسان هادئة جدًّا رغم أنّها كانت تتّقد غيظًا. خالفت سوربييه الرأي بشدّة. بعد إلقاء القبض على أمياس لانغفورد، استغلّ القائد وجود المروحيّة لمغادرة لا توربي على وجه السرعة ومرافقة القيادة إلى مقرّ التحقيق الرئيسي في مركز شرطة نيس. وجدت نفسها متروكةً عند نقطة تحصيل الرسوم واضطرّت إلى الانتظار فترةً طويلةً حتّى ينتهي موراتوري من التزاماته قبل إعادتها إلى وسط مدينة إقليم ألب-ماريتيم.

غادرت سيّارة الرينو ميغان التابعة لقوّات الدرك شارع بروميناد ديزونغليه منذ بضع دقائق، ولكن بدلًا من الصعود شمالًا نحو مقرّ الأمن الإداري، راحت تتوغّل في البلدة القديمة.

– ألن نذهب إلى ثكنة أوفار؟ استغربت روكسان.

– ألم يُعْلمك أحد؟ سألها موراتوري متعجّبًا. نُقل لانغفورد إلى مبنى الشرطة الجديد في منطقة كاراباسيل، إلى مستشفى سان-روك السابق.

غاص الدّركي في شرحٍ طويل. منذ سنوات وبلديّة الدائرة التي نصّبت نفسها «المدينة الأكثر أمانًا في فرنسا» تكافح لتحويل مشروعٍ مبتكر إلى حقيقةٍ واقعة: الجمع في مكان واحد بين كافة أجهزة الأمن في المدينة: الشرطة الوطنية، الشرطة البلديّة، مركز المراقبة الحضري. «نسخة القرن الحادي والعشرين لمخفر الشرطة»، تفاخر رئيس البلدية.

– ستحصل التحويلات في بداية العام بعد الأعياد، تابع الدركي. سينضمّ ألفا شرطيّ بشكل تدريجيّ إلى المركز الجديد.

– ولمَ اقتيد لانغفورد إلى هناك؟

– لا مكان شاغرٌ في أوفار وهناك نقصٌ في الموظّفين أيضًا.

توقّفت السيارة في شارع لوتيل-دي-بوست أمام مبنى حجري كبير بلون المغرة، ذي واجهةٍ ضخمة. استحضر البِناء بجبهته وتماثله ونقوشه الغائرة الطراز النيوكلاسيكي الموزّع في كافة أنحاء المدينة، من ساحة غاريبالدي إلى فناء ساليا.

غطّت روكسان رأسها بسترتها وتبعت الدّركي إلى الدّرج. بدا لها ليل نيس عدائيًا. تعزّز لون السماء الرماديّ بصبغةٍ سوداء كالفحم وهاجمت عصفاتٌ جليديّة العدد القليل من المارّة، حاملةً صواعق ورعودًا مدويّة. الريفييرا الفرنسية بنسخة فينيستير.

كان التصميم الداخلي للمبنى مبهرًا، لا يشبه بأيّ شكل مركزًا للشرطة. منذ لحظة الدخول، يغوص الزائر في فناء شاسع مغطّى

بالنباتات تحيط به أروقة بأقواس وأعمدة تحاكي أروقة الأديرة أو بعض الفنادق الإسبانية التاريخية.

كان المبنى مضاءً بالكامل بواسطة المشاعل أو كشّافات ورش البناء.

– أثمّة مشكلة في الكهرباء؟

– عطّلت العاصفة جزءًا من الشبكة فلم تشتغل التدفئة وتجمّد المكان...

نظرت روكسان إلى النوافذ العالية. وفّرت الأحجام الضخمة والفراغ الشاسع مساحةً نقيّةً ضخّمت أدنى كلمة وردّدتها في أصداء متعددة.

– في الأعلى، أعلن موراتوري.

تسلّقا السلّم المركزيّ. في الطابق العلوي، امتدّت ممراتٌ طويلة في اتجاهات متعاكسة لربط أجنحة المبنى الأربعة.

– من هنا، أشار الدّركي. نُقل لانغفورد إلى الجناح القديم للمصابين باضطرابٍ في الشخصية.

رغم أنّ مركز الشرطة كان غارقًا في الظلام، إلّا أنّه سهُل التكهّن بأنّ الأشغال ما زالت قائمة. أبوابٌ بدون مقابض، أسلاكٌ كهربائية متدليّة بلا مقابس من السقف، أغطيةٌ من البلاستيك المشمّع تحجب مناطق قيد الإنشاء. ضلّ الدركي طريقه مرّتين عبر ممرّات المتاهة قبل أن يبلغ صفًّا من المكاتب ارتفعت منها أصواتٌ مدويّة. كان المفوّض من المديريّة الثالثة للشرطة القضائية قد أرسل عددًا من رجاله ليتولّوا، كما هو واضح، استجواب أمياس لانغفورد. تعرّفت روكسان إلى بعض الوجوه، من بينهم وجه سيرج كابريرا الذي كانت

تكنّ له كلّ الكره والذي لن يمكث في منصبه طويلًا يوم يتفشّى هاشتاغ #أنا أيضًا[1] في الشرطة أيضًا.

على مسافةٍ قريبةٍ بعض الشيء، لمحت سوربييه وحده على الهاتف. أومأ إليها للاقتراب.

– غادر القاضي ولا أثر له، اشتكى وهو يقفل الخط.

نفس الطريقة الدنيئة التي تركتني فيها.

اقتادها إلى غرفة الحجز واستدار في طريقه للإشارة إلى مجموعةٍ تقف خلفه.

– ندوس على بعضنا البعض لأنّ الجميع يريدون أن يكونوا في الصورة بينما لم يُستكمل التحقيق بعد: سكّان نيس، مديرية الشرطة القضائية في الضفّة اليسرى، نحن...

– أعطني ملخّصًا، رئيس. أين وصلنا في البحث؟

– تعذّر العثور على الفتاة في أيّ مكان. كان السائق الذي رصد سيّارة الأودي في تورنون-سور-رون حاسمًا: لم يتوقف لانغفورد لمرّة واحدة طوال الوقت الذي بقي فيه على مرمى بصره.

– وتسجيلات كاميرات المراقبة على الطريق السريع؟

– تفحّصناها كلّها. تزوّد لانغفورد بالوقود في دروم، في نقطة الانتظار لسان-رامبرت-دالبون. مكث هناك لمدّة خمس عشرة دقيقة. قمنا ببحثٍ دقيق، استجوبنا العاملين في محطّة الوقود، والموظّفين في المتاجر، ورجال الصيانة. لا شيء.

– وماذا عن المحطات الأخرى قبل تورنون؟

– وجّهنا إنذارات، لكن لأنّنا في منتصف ليلة عيد الميلاد...

1 هاشتاغ MeToo# أطلقته الممثلة الأميركية أليسا ميلانو عبر حسابها الشخصي على موقع تويتر لتشجيع النساء على مشاركة قصص التحرّش والاغتصاب والاعتداء التي تعرّضن لها في حياتهنّ بهدف تسليط الضوء على معاناتهن.

– أين لانغفورد الآن؟

– هنا، أجاب سوربييه مشيرًا إلى غرفة الحجز.

– ألن نعيده إلى باريس؟

– بلى، هذا ما كان مخطّطًا له. لكن تعقّدت الأمور كلّها بسبب سوء الأحوال الجويّة وعيد الميلاد وخطورة الموقف. تقرّر أخيرًا استجوابه هنا. تعالي وألقي نظرة.

استدار حتّى نهاية الرّواق وفتح بابًا يفضي إلى غرفةٍ صغيرة بإضاءة خافتةٍ مجهّزةٍ فقط بمرآةٍ كبيرة تعكس من جهةٍ واحدة بينما تتيح مراقبة غرفة الاستجواب بشفافيّتها من الجهة المقابلة.

– هذا أمياس لانغفورد؟ تعجّبت وهي تقترب من المرآة.

وجدته مختلفًا عن الصور التي تسنّى لها رؤيتها. كان جالسًا خلف طاولةٍ طويلة، أمام اثنين من المحقّقين، لا يُظهر محيّاه أيّ اكتراث، كان مرفقه على المنضدة ورأسه ملقى على قبضته المشدودة، كأنّه لا يبالي البتّة بما يدور حوله.

– ألديه محامٍ؟

– لم يطلب محاميًا.

– إصابته؟

– خدش بسيط.

– ماذا قال؟

– لم ينطق بالكثير حتّى الآن.

– أيمكنني محاولة استجوابه؟

– لا يمكنك ذلك، تعلمين جيّدًا. أنت رسميًّا لا تعملين على هذه القضيّة، ردّ سوربييه.

خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه. تنهّدت روكسان، ثمّ وضعت حقيبتها على المكتب الصغير واستقرّت على أحد المقعدين.

أمعنت النظر لتفحّصه بأدقّ تفاصيله. كان أمياس في الأربعينيّات من عمره بيد أنّه احتفظ بملامح أكثر شبابًا. كان يرتدي سترةً مخملية خضراء وقميصًا أبيض بياقة ماندرين، فيما صُفّف شعره الذي يصل حتّى كتفيه بأناقةٍ تامّة. ذكّرها بهيئته الرومانسية نوعًا ما ببعض صور أوسكار وايلد أو، على مستوى آخر، بغلاف ألبوم أبسنت فرندز لفرقة ذا ديفاين كوميدي.

حاول الرجلان اللّذان يستجوبانه إقناعه بالإفصاح عن كلمة المرور على هاتفه وحاسوبه الموضوعين على الطاولة الكبيرة أمامه، لكنّ أمياس بدا وكأنّه لا يسمع. دلّكت روكسان صدغيها. أحسّت بصداع نصفي، ينقر شيئًا فشيئًا، على وشك أن ينطلق في أسوأ وقتٍ ممكن. مدّت يدها إلى حقيبتها بحثًا عن بعض الأدوية، التي ابتلعتها بدون ماء، ثمّ ألقت نظرةً تلقائيّةً على هاتفها الذي بقي مضبوطًا على وضع الطيران منذ رحلة الهليكوبتر. حاول نفس الرقم الوصول إليها ثلاث مرّات من دون ترك رسالة صوتيّة، إنّما رسالةٌ نصيّةٌ قصيرةٌ وبسيطةٌ تقول: مساء الخير، اتّصلي بي من فضلك، الأمر عاجل. ب.-إ. لو إيناف (دائرة المخابرات الجنائية المركزية).

لم يكن الاسم غريبًا على مسمعها. كان لو إيناف بالتأكيد محلّلًا أو مستشارًا قضائيًّا لجهاز المخابرات المركزية. عاودت الاتّصال به على الفور.

– روكسان مونكريستيين. كنتَ قد اتّصلتَ...

– نعم، قاطعها بلهجة فظّة بعض الشيء. أعطتني رقمكِ فاليري جانفييه. لديّ بعض المعلومات لك.

كان الرجل على ما يبدو في ليلة عيد ميلاد بروتانيّة. صدحت في الخلفيّة معزوفةٌ مبتدعةٌ لأغنية «كل ما أريده لعيد الميلاد»[2] على آلة مزمار القِربة. يا للفظاعة!

– تعاونتُ منذ حوالي عشرة أيّام مع مارك باتاييه على التدقيق في قواعد بيانات متعلّقة بجرائم قد تكون مستوحاة من عالم الأساطير، أوضح الرجل البروتاني.

وضعت روكسان في ذهنها التسلسل في إطاره الصحيح، وسألته: «جريمتا أفينيون وستراتفورد، صحيح؟»

– مع صورة ديونيسوس في الخلفيّة، أضاف المحلّل. كنت قد أخبرت مارك أنّني سأواصل العمل للتمكّن من العودة إلى زمنٍ أبعد في الماضي ومحاولة جمع معلومات من خارج البلاد.

– إذًا؟ هل حدّدت حالةً ثالثة؟

– ليست واحدةً فقط، أجاب لو إيناف. رصدت على الأقلّ ستًّا منها.

رفعت روكسان عينيها إلى السماء. ها هو شخص جديد يطمع بقاتل«ها» المتسلسل.

– ألست تتسرّع قليلًا؟

– فكّري كما تشائين، حصلتْ ستّ جرائم قتل أخرى مرتبطة بعبادة ديونيسوس في السنوات الثلاث الماضية.

– كيف يمكن أن تكون قد مرّت مرور الكرام؟

– وقعت هذه الجرائم في الخارج. في البلقان، اليونان، إيطاليا، الهند والولايات المتحدة. وأنا متأكّد من وجود غيرها.

متشكّكةً، لم تنبس روكسان ببنت شفة. كان لو إيناف محنّكًا.

[2] All I want for Christmas.

– في جرائم القتل التي حدّثتكِ عنها، لم تفسح الإشارات إلى ديونيسوس مجالًا للشكّ: تاج اللبلاب، وجلد الماعز، والثيرسوس، والكرمة... وكان الضحايا في كلّ مرّةٍ ممثّلين للنظام القائم أو السلطة: رجال شرطة، قضاة، جنود، إلخ.

– ما الذي يدور في رأسك؟ هل تعتقد أنّه القاتل نفسه في دول مختلفة؟

– طبعًا لا. هي بالأحرى مجموعات مختلفةٌ أو أفرادٌ تعلّلوا بأوهام المعتقدات الوثنيّة وسقطوا في نهاية المطاف في منجرفٍ راديكالي. ديونيسوس هو أحد الآلهة الأولمبية القليلة التي قدّمت الأضاحي البشرية. أراد أولئك المختلّون إعادة تمثيل طقوس العربدة التي انتهت أحيانًا بما يشبه العشاء الإلهي. إشراك الإله من خلال وجبةٍ من اللحم البشريّ.

انتهى الأمر، لقد ضاع لو إيناف من بين يديها. تحوّل الرجل كليًّا إلى مدافعٍ عن نظريّة المؤامرة. بالنظر إلى الساعة المتأخرة، كان الأجدر به ألّا يشرب سوى عصير التفاح. ولأنّها أحسّته سريع الغضب، حاولت إخماده بسلاسة.

– وهل تعتقد أنّهم على تواصل مع بعضهم البعض؟

أطلق الرجل البروتاني تنهيدة امتعاضٍ طويلةً قبل أن يواصل بنفس الزّخم.

– قُبض على فابيو دامياني، أستاذ إيطالي في جامعة بيروجيا، مع بداية هذا الأسبوع على أثر مقتل شرطيّ في طقوس تذكّر في بعض النواحي بجريمة ستراتفورد.

بقيت روكسان صامتةً.

– أثارت جريمة القتل ضجّة كبيرة في إيطاليا. هل سمعتِ بها؟

– لا، اعترفت روكسان.

أظهر لو إيناف استياءه.

– منحتني إحدى مصادري الإيطالية إمكانيّة الوصول إلى ملخّص لتصريحات داميانى. فرّغ تمامًا ما في داخله خلال الاعتقال قبل أن يحاول الانتحار.

– وما الذي تكشّف منها؟

هذه المرة كان لو إيناف هو من لاذ بالصمت قبل أن يلاحظ: «رأيت في الأخبار أنّكم ألقيتم القبض على أمياس لانغفورد...».

– بالفعل. أكان باتاييه من أخبرك عن ذلك؟

تنحنح الرجل.

– استولى فريق مكافحة الجريمة على جهاز داميانى. يظهر اسم أمياس لانغفورد عدّة مرات. كانا يتواصلان عبر المنتديات.

– ألديكم نسخات عن...؟

– ألا ترين أنّي سهّلت عليك عملك بما فيه الكفاية، بحقّ الجحيم! سيحدث أمر خطير للغاية هذا الأسبوع. لذا تحرّكوا!

– ماذا سيحدث؟ عملية منسّقة؟

– أنصحك بتسليم الشابّ منذ الآن إلى فرقة مكافحة الجرائم. لقد نُزع فتيل القنبلة وهي على وشك الانفجار في وجهكم. بائسون، مساكين!

أقفل المحلّل الخط بمجرّد أن أنهى عباراته المهينة. استدارت روكسان فرأت أنّ سوربييه قد عاد إلى الغرفة. كان الرجل البروتاني يصرخ بصوتٍ عالٍ على الهاتف لدرجة أنّها لم تسمعه يدخل.

– من كان على الهاتف؟ سأل القائد.

– بيير-إيف لو إيناف، أتعرفه؟

– الذي يُسمّى بـ«ذاكرة حصن روسني»؟ وغدٌ كبير، لكن شرطيّ جيّد.

– «وغد كبير»: يجب أن يكون نفس...

– ماذا يريد؟

أطلعته على محادثتها مع المحلّل. وكلّما زادت التفاصيل وضوحًا، زاد وجه سوربييه قتامةً.

– إن لم يكن إيناف مخطئًا. باتت هذه القضية قذرة حقًّا، قال أخيرًا بعدما أنهت كلامها. عليّ أن أصل إلى القاضي.

– اسمح لي قبل ذلك باستجواب لانغفورد. لا أحد يعرف القضيّة أفضل منّي.

حكّ سوربييه عظام وجنته اليمنى بعصبيّة، كما لو كان يحاول قطع أجزاء من جلده.

– عشر دقائق لا أكثر.

رافاييل

5.

هو! هو! هو! هو!

هو! هو! هو! هو!

باريس. أقلّ من ساعة على منتصف الليل.

كان المنزل غارقًا في الظلام، فاترًا حزينًا مقلقًا إلى حدّ ما. لا يزال شريط الفلورسنت والقماش البلاستيكي المشمّع يصدّان المدخل إلى الجزء الجنوبي. غلبني النعاس على الأريكة، وبقي هاتفي في يدي، في انتظار الأخبار. من والدي أو من غارانس.

هو! هو! هو! هو!

هو! هو! هو! هو!

دفعني الصراخ المتكرّر إلى فتح عينيّ. رأيت بابا نويل يعبر حديقتي ويرنّ جرسًا.

على أمل أن ينتهي هذا اليوم...

أكان شخصًا يمزح معي؟ أم محبًّا للحفلات؟ في كلّ الأحوال، كان الرجل يقترب ويهزّ جرسه فرحًا.

– عيد ميلاد مجيد!

في يده الأخرى، حمل بابا نويل علبة هديّةٍ صغيرةٍ. التفّ حول المنزل ثمّ وقف أمام الباب الزجاجيّ مباشرة.

– كرونوبوست! بريدٌ لك، سيد باتاييه!

تغطّت لحيته بقناعٍ مخيفٍ هو نسخةٌ طبق الأصل من قناع ألكس دولارج في فيلم أورانج ميكانيك: ذئبٌ قاتم ينتهي بأنفٍ ضخمٍ ضاربٍ إلى الحمرة على شكل قضيب.

– كرونوبوست! ردّد كلامه كما يردّد علي بابا «افتح يا سمسم!».

هذا هراء، كنّا لنعلم لو أنّ مكتب البريد يسلّم الطرود في الساعة الحادية عشرة مساءً من ليلة 24 كانون الأوّل/ديسمبر.

لم تكن لديّ رغبة في جلب الذئب إلى الحظيرة.

– اترك الطرد أمام الباب، طلبت منه.

– كما تشاء، سيد باتاييه.

وضع الرّزمة على الأرض، غير أنّ ارتياحي لم يدم طويلًا.

– أحتاج إلى توقيعٍ صغير، ضحك ساخرًا وهو يلوّح بحامل ورقٍ وقلمٍ أخرجهما من جيبه.

اغرب عن وجهي يا رجل...

فاحت رائحة خداع من هذه المناورة، غير أنّ فضولي دفعني إلى معرفة المزيد.

– ألديك اسم المُرسل؟

دون أن يخلع قناعه السّخيف، قرّب ساعي البريد العبوة من عينيه لقراءة الكتابة مبالغًا في نطق كلّ مقطعٍ لفظيّ:

– مد-ام-غا-را-نس-كا-را-ديك.

قد يكون فتى توصيل حقيقيًا، في الواقع.

– حسنًا، سأوقّع على ورقتك.

فتحت الباب نصف فتحةٍ، حذرًا ومتأهبًا لإغلاقه عند أدنى حركةٍ مشبوهة.

حطّ الرجل كيسه عند قدميه وسلّمني الطرد.

– كرونوبوست تشكرك وتتمنّى لك عيد ميلادٍ مجيد.

– من يجبرك على ارتداء هذا الزيِّ الغريب؟ سألته وأنا أوقّع على الإيصال.

خلع الرجل أخيرًا قناعه ليمسح عرقه الذي سال على جبهته. بدا منهكًا، هزيل الوجه، وشعرتُ ببعض الخجل من توجّسي وموقفي العدائي.

– الرؤساء الأوغاد، من غيرهم؟ قال متجهّمًا. يزعمون أنّ العملاء يحبّون ذلك. خاصّة الشباب الصغار. يفعلون أيّ شيءٍ بهدف الربح. على حساب كرامة الإنسان. ها هو إيصالك، سيّدي.

– شكرًا. أتريد قهوةً أم مرطّبات؟

– لن أرفض رشفةً من المشروب. إذا كان لديك، بالطبع.

تركت الباب مفتوحًا وتوجّهت إلى الطرف الآخر من الصالون. على البار الصغير من جلد السّمك الخاص بأبي، وجدت زجاجةً مفتوحةً من ليكور شارتروز. قدّمت كأسًا إلى ساعي البريد، وناولته بقشيشًا من عشرة يورو.

– شكرًا لك، هذا لطفٌ منك.

وضع الورقة النقديّة في جيبه وابتلع اللّيكور جرعةً واحدة.

– آههههه! هذا يفتح الأنف! أتسمح لي؟ سأل مشيرًا إلى الزجاجة لإعادة ملء الكأس.

– تفضّل.

– أتقضي ليلة عيد الميلاد وحدك يا سيد باتاييه؟

– لا يهمّ. أنهي كتابة رواية. أجلس مع شخصيّاتي. داخل رأسي.

– أنا أيضًا أسمع في كثيرٍ من الأحيان أصواتًا في رأسي، اعترف لي الرجل. أتمنى أن تستمتع بهديّتك. حسنًا، لن أزعجك أكثر. عليّ أن أنهي جولتي!

– حظًّا موفقًا.

لبس قناعه ولحيته المستعارة وانحنى لالتقاط كيسه ثمّ قال...

«وهذه، هديّة من البيت».

في ومضةٍ، كان قد سحب نوعًا من هراوةٍ طويلةٍ من سلّته. وجّه إليّ ضربةً على بطني وصلت حتّى الكبد. الضربة الثانية أصابتني في رقبتي، على مستوى الجرح من اليوم السابق.

– مع تحيّات «بهلوانات ديونيسوس»! قال وهو يرميني بلكمةٍ طرحتني أرضًا.

تبعتْها ركلةٌ أخيرة مباشرةً على وجهي أفقدتني الوعي.

هو! هو! هو! هو!

هو! هو! هو! هو!

مكتبة
t.me/soramnqraa

6.

بقيت ممدّدًا على الأرض لعشر دقائق، أشعر بجسدي مشلولًا من الألم، وذهني مشوّش وأفكاري ضبابيّة.

بابا نويل الحقير.

نهضت في حالة مزرية. كان الشاب قد غادر. تردّدت في الاتّصال بالشرطة، لكن لأجل ماذا؟ ندمتُ لأنّني لم أكن حذرًا. كان

عليّ أن آخذ مسدّس والدي الذي عثرت على ذخيرته في نهاية فترة ما بعد الظهر.

التقطت الرّزمة التي بقيت على الأرض. قمت بخضّها بالقرب من أذني في محاولة لتخمين محتوياتها.

في هذه المرحلة من حياتي...

قرّرت فتحها. لم يقفز منها شيءٌ ليفاجئني. كانت علبةً بسيطةً من الورق المقوّى من ماركة بون بوان لملابس الأطفال. في الداخل، ظرفٌ باللون الورديّ الفاتح وجوربَان صغيرَان من الكشمير لحديثي الولادة. باللون الأبيض القشدي.

لماذا؟

فتحت المغلّف فرأيتُ صورة لغارانس دو كاراديك. كانت تطفو على وجهها ابتسامةٌ مشرقةٌ بينما تنظر نحو الكاميرا ويدها على بطنها العاري. ساورتني بعض المخاوف فقلبت الصورة لأكتشف جملةً مكتوبةً بخطّ اليد: «رافاييل، ستصبح أبًا!»

بقيتُ بلا حراك، محاولًا إبقاء الواقعة على مسافةٍ بعيدة، دون أن أتأثّر بهذه الدعابة السيّئة. لكنّني كنت أعلم أنّ الأمر أكثر خطورة من ذلك. أخرجتُ الأوراق المجعّدة في العلبة بحثًا عن دليل آخر. لا شيء. ثمّ وجدته أخيرًا داخل أحد الجوربَين على شكل جهاز يو أس بي معدني.

جلست أمام الكمبيوتر وقمت بتوصيل الجهاز ثمّ ضغطتُ مرّتين على الرمز الذي فتح ملفّ كويك تايم. شغّلت الفيلم رغم إحساس التشّنج في معدتي والغصّة في حلقي.

7.

تعرّفتُ من الصّور الأولى على فندق لا فيل أزور، عند طرف كاب أنتيب.

كنت قد زرت هذا المكان مرّةً واحدةً فقط: في أيلول/سبتمبر الماضي. دعاني منتجٌ يصوّر في المنطقة ترجمةً لإحدى رواياتي إلى حفلة خاصّةٍ صغيرة للاحتفال بنهاية التصوير. حُجز بار الفندق البانورامي بأكمله لهذه المناسبة. أنا عادةً لا أحبّ الحفلات، لا أعرف كيف أتصرف فيها، لا أعرف كيف أستمتع فيها، ولا ذكريات جميلة لي من أيٍّ منها. وهذه الحفلة لم تكن استثناء. مكتبة .. سُر مَن قرأ

انحنيت نحو الشاشة لأدقّق في الصور بالتفصيل. من صوّرها؟ ظهرتُ فيها أتنقّل بلا حماسٍ من مجموعة إلى أخرى، أجرع كؤوس الشامبانيا الواحدةَ تلو الأخرى على نغمات الموسيقى الرديئة لـ«دي جي» على الموضة ادّعى الجميع أنّه «رائع جدًّا».

رغم أنّني لم أكن حاضرًا بذهني، إلّا أنّ المكان كان مذهلًا، بإطلالته على البحر الأبيض المتوسّط، في مواجهة جزر ليران.

– أتأتي لنسبح معًا؟

كانت أختي فيرا قد اقتحمت رأسي. كانت واقفةً في منتصف التيراس. كانت ترتدي لباس السباحة وقبّعة سباحةٍ مرحةً، ونظّارات غوص، وعوّامةً على شكل بطّة. أصرّت مشيرةً إلى الأسفل إلى حوض السباحة المحفور في الصخرة: «هيّا رافا! إنّه أفضل وقت: لقد غادر الجميع والمياه لا تزال دافئة».

غير أنّني رفضت كالعادة.

– لا، شكرًا فيرا.

– لماذا؟

– لأنّك لست موجودةً سوى في رأسي وسأبدو غبيًّا بعض الشيء إذا ما كلّمت نفسي في المسبح.

– لا يهّمنا الآخرون، أليس كذلك؟

– المشكلة ليست في الآخرين. المشكلة هي أنّك ميّتة.

– وأنت أيضًا ستموت في يوم من الأيام، أجابت وهزّت كتفيها قبل أن تندفع مسرعة.

بقيت وحيدًا، شاحبًا كقبطان سفينةٍ خرجت عن مسارها، خائر القوى فجأة. رغبت في أن يأتي والدي ويأخذني. يحملني إلى غرفتي، ويضعني في فراشي، ويقبّلني قائلًا: «تصبح على خير أيّها البطل».

بدلًا من ذلك، ظهرتْ يومها امرأةٌ من العدم، مثقّفةٌ روحانيّةٌ، ممثّلةٌ من طاقم الفيلم على الأرجح رغم أنّني لم ألاحظ وجودها من قبل.

في داري في شارع داساس، بعيدًا مسافة عشرين سنتيمترًا من شاشتي، أحرقتُ شبكيّة عينيّ وأنا أشاهد الصور المختلسة على حاسوبي والتي أعادت إحياء ذاكرتي المؤلمة.

كيف بدأنا الحديث؟ كانت الصورة ضبابيّةً للغاية. مروحةٌ من شذرات أحاديث، قصيدةٌ لبول فاليري «لأنّني عشت على انتظارك / وقلبي لم يكن إلّا خطاك»[1]، بعض الحكايات عن النزلاء المرموقين الذين زاروا الفندق، تفاهات عن تلوّن غروب الشمس بصبغاتٍ لامتناهية.

كنت لا أزال طافيًا في السديم الفوّار للشمبانيا فيما استحوذت مشاعري على أفكاري. مهدهَدًا على صوت الأمواج اللّطيف، غرقت في النظرة الخضراء-الزرقاء لصديقتي الجديدة. وفي اللحظة التي

[1] « Car j’ai vécu de vous attendre / Et mon cœur n’était que vos pas ».

تـوارت فيها الشمس عند الأصيل، كنت قد هلكت. فاقدًا الوعي، تبعت الفتاة إلى غرفتها. أرعبتني صور الشريط الجنسيّ التي تتوالى الآن على شاشتي. لا شيء هنا جسّدني: الثمالة، فقدان السيطرة. لم أعد أنتمي إلى نفسي. كنت دميةً تمّ التلاعب بها وتنازلت عن إرادتها الحرّة.

عندما استيقظت في اليوم التّالي، كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحًا والغرفة مغمورة بأشعّة الشمس. لم أتذكّر شيئًا عن الليلة الماضية. حالة فـراغ. بقيت وحـدي مع خجلي. خرجت من الفندق على وجه السرعة وقرّرت العودة إلى باريس على الفور.

في طريقي إلى المطار، توقّفت للتقيّؤ. كانت أطرافي كلّها ترتجف. لم تُسرق أموالي. لم أكن مصابًا ولـم أتـعرّض للهجوم أو الضرب. لكنّني لم أستطع تحمّل عدم تذكّر أيّ شيء. للتأكّد، عرّجت على طوارئ مستشفى فونتون، رويت قصّتي بشكلٍ موجزٍ ثمّ طلبت إجـراء التحاليل. انتظرت حتّى وقتٍ مبكّرٍ من بعد الظهر للحصول على النتائج.

– تعرّضتَ إلى ما يُعرف بـ«جي-هـول»، شرحت لي ممرّضةٌ متدرّبة.

– أهو نوع من الغيبوبة؟

– نعم، بعد تناول مادة غاما-بوتيرولاكتون أو جاما هيدروكسي بيوتيريت.

– لم أتعاطَ المخدّرات أو الأدوية.

هزّت كتفيها.

– أحدهم وضعها في مشروبك. تتحوّل المادة إلى مخدّر عند خلطها مع الكحول ما يمكن أن يسبّب فقدان الوعي. أصبح هذا شائعًا، لسوء الحظ.

في موقف المستشفى، شعرت بنفسي أترنّح، لكن كما يحدث غالبًا في حياتي، استعدتُ السّيطرة قبل الوقوع في الهاوية. دفنت تلك الواقعة في أعماق ذاكرتي وصمّمت ببساطة على أنّها لم تحصل. غير أنّ هذا الماضي الذي لم أستوعبه يعود اليوم ليرتطم بوجهي بقوّة أكبر بعشر مرّات.

عودة إلى الفيلم. سجّل الوقت على الشاشة الساعة السابعة صباحًا. فتح أحدهم ستائر غرفة الفندق وأنا لا أزال هاجعًا على السرير، ثمّ سار باتّجاه منضدة الزينة التي تعلوها مرآة بيضاويّة. صُوّر المشهد من الهاتف المحمول الموضوع على طاولة التبرّج الصغيرة. خلعتِ المرأة شعرها المستعار، مكياجها، رموشها الاصطناعية، عدساتها اللاصقة. منديل ثمّ قطنة مشبّعة بماء ميسيلار: بلمساتٍ صغيرة، توضّح وجه غارانس دو كاراديك العاري لتظهر لي في انعكاس المرآة وترسل إليّ غمزةً وقبلة.

في هذه اللحظة، أدركت أنّ الطفل الذي تحمله غارانس قد يكون منّي.

الجمعة 25 كانون الأوّل/ديسمبر

16

العالم مسرح

ننخرط في المسرح لأنّ لدينا انطباعًا بأنّنا لم
نكن يومًا أنفسنا وأنّنا في النهاية سنتمكّن
من أن نكون.

لويس جوفيه

روكسان

1.

مركز الشرطة في نيس.

انفجر دويّ رعدٍ عنيفٍ فاهتزّ الشُّبّاك الوحيد في غرفة الاستجواب. كان المطر قد سال مدرارًا طوال الليل. أنبأت العاصفة التي ضربت المدينة بنهاية العالم، فأغرقت الشوارع، واقتلعت جذور أشجار النخيل، وحطّمت القرميد. كانت الساعة السابعة صباحًا، لكنّ الظلام لا زال دامسًا حتّى الآن. عند منتصف الليل، وبعد أن تأكّدتْ روكسان من قدرتها على استجواب أمياس لانغفورد، بدأ الممثّل

يشتكي من آلام في المعدة فغُلّق حجزه ونُقل من جديد إلى مستشفى لارشيه حيث أمضى معظم الليل قبل إعادته إلى مركز الشرطة.

كانت حدّة التوتّر قد تفاقمت بعض الشيء بين رجال الشرطة. على الرغم من تكثيف عمليّات البحث بالقرب من ممرّات الطريق السريع وفي محطات الوقود، لم يأتِ أحد ولو بمعلومةٍ واحدةٍ عن اختفاء غارانس دو كاراديك.

معتمدةً على جرعة الكافيين التي أخذتها، أمضت روكسان الساعات القليلة الماضية في قراءة كتب الأساطير التي بحوزتها. وبينما تلكّأ النهار عن الانبلاج وكان التعب على وشك أن يجتاحها، فُتح الباب أخيرًا. دخل الرجل الإنكليزي مكبّل اليدين برفقة سيرج كابريرا. مفتول العضلات، قويّ البنية، شعرٌ طويلٌ أسود وأجعد. كان الشرطيّ الباريسي أحد الرؤوس الكبيرة في المديرية الثالثة للشرطة القضائية وكان يتصرّف هنا كما لو كان في المنزل.

– راقبيه عنّي لعشر دقائق، حسنًا يا حلوة؟ بعد ذلك، دعينا نتولّى زمام الأمور، قال بلهجة الفرنسي-الجزائري.

نظرت روكسان إلى الوحش بصمت. كان كابريرا فخورًا بنفسه، ينتعل جزمة رعاة بقرٍ مشمّعةً وقميصًا ورديًّا باهتًا يكشف عن صدره المشعّر. ضغط على كتف لانغفورد لإجباره على الجلوس، وما لبث أخيرًا أن قال منزعجًا:

– ما بكِ، عزيزتي؟ أتريدين صورتي؟ سألها قبل أن يغادر الغرفة بسلوكه التافه وسواره المعدني.

بعد أن أصبحت وحدها مع أمياس، بقيت روكسان واقفةً أمامه لحظةً تضغط على شاشة الكمبيوتر – على الطاولة المعدنية الطويلة – الذي كان رجال فرقة البحث والتدخّل قد عثروا عليه على مقعد الراكب في سيارة الأودي. بدلًا من إرساله إلى خبراء يستغرقون

بكلّ الأحوال عدّة أيام للبحث فيه، اختار فريق التحقيق طريقةً أكثر عقلانيّة واحتفظوا به بين أيديهم على أمل أن ينطق الرجل الإنكليزي بكلمة المرور أثناء اعتقاله.

– أنتِ أيضًا تتوقعين أن أعطيك كلمة المرور؟ أتظنّين حقًّا أنّها ستسمح لكِ بالعثور على الفتاة؟

بيديه المقيّدتين، سحب الممثّل السترة المخمليّة التي كان يلبسها كرداءٍ فوق كتفيه. لمحت روكسان قطعة بروش مخيف مخيّطة على عروتها، ذكّرتها بعنكبوت لويز بورجوا بجسمه الضامر وأقدامه الشنيعة.

– لا، لا آبه بكلمة المرور الخاصة بك، أجابت روكسان. أريد فقط أن أفهم، هذا كلّ شيء.

– تفهمين ماذا؟

كان لأمياس لانغفورد صوتٌ غريب. عذبٌ لكن مصبوغٌ بلكنة إنكليزيّة تميل بشدّة إلى اللغة الألمانيّة، ما بين جين بيركين وكريستوف والتز.

– لا أستطيع أن أفهم تمامًا ما الذي يستهويك في الأمر، قالت وهي تضع كتابها على الطاولة وتجلس قبالته.

اختلس أمياس النظر إلى عنوان الكتاب: احتفالات الديونيسيا الكبرى. ولادة المسرح الكلاسيكي في اليونان.

– سوف أريحكَ، أمياس. أعلم أنّك متورّط في جريمتَي القتل في أفينيون وستراتفورد. لديّ الأدلّة لتوجيه الاتّهام إليك، حتّى في فرنسا ستُحكم بعشرين عامًا في السجن. لقد انتهت اللعبة.

– نعم، أنت محقّة. لقد أوشكت اللعبة على الانتهاء، أجاب بالإنكليزية قبل أن يضيف: «لكنّني تركت الجزء الأفضل للنهاية».

– إذًا، قصّة عبادة ديونيسوس هذه هي التي تثير نشوتك؟

بسط لانغفورد ذراعيه أمامه حتّى طقطقت أصابعه. كان موشومًا على معصمه الأيسر بأحرف قوطيّة: Totus mundus agit Histrionem. «الجميع يؤدّون دور الممثل». بمعنى آخر: العالم كلّه مسرح. شعار جلوب، مسرح شكسبير. وإذ تتّبع نظرة روكسان، سألها:

– أتحبّين المسرح؟

– ليس تمامًا، فالمسرحيّات الكلاسيكية تجعلني أنام من الملل، أما الحديثة فتفزعني. أحيانًا طويلةٌ جدًّا وأحيانًا غبيّةٌ جدًّا.

ابتسم أمياس مؤيّدًا.

– الجزء الأسوأ هو أنّكِ لست بعيدة عن الحقيقة!

– وأنتَ، ما الذي يعجبك في المسرح؟

وفيًّا لعادته الجديدة، ردّ على السؤال بسؤال آخر.

– هل أنت راضيةٌ عن حياتك؟ عن علاقاتك؟ عن عملك؟

هزّت روكسان رأسها.

– مطلقًا. حظّي سيّءٌ في كلّ شيء.

– وكيف تفعلين لعدم الشعور بالضيق؟

– أمممم... ليكزو، سيجارة حشيش، كايبيرينيا، شاردونيه...

– آها! آها! وهل تجدي نفعًا؟

– تقوم بالمهمّة. لبضع ساعات... وأنت؟

لمعت عينا لانغفورد كما لو أنّه غرز نفسه للتوّ بحقنة مخدّرات.

– أنا؟ يشعرني بالسعادة الدّور والمسرحية، لأنّهما يتيحان إنشاء واقعٍ بديل. هي القوّة الحقيقية لديونيسوس: يقودكِ إلى الطريق لإلغاء الواقع وتحريركِ منه.

أسندت ظهرها إلى كرسيّها، متعبةً.

– لكن ما الذي تريد أن تحرّر نفسك منه حقًّا؟

– الدولة، السلطة، الرأسمالية المفرطة، هذا العالم الذي يقيّدنا.

– تعليمك الماركسي التافه، ليس مبتكرًا البتّة.

ثمّ قالت وهي تقلّد لهجته الألمانية: «حسنًا، ولكي تتحرّر من الدولة والرأسمالية المفرطة، تتسلّى بقتل الناس؟ هل تجد هذا كلّه منطقيًا؟».

تظاهر لانغفورد هذه المرّة بالضحك معها عن طيب خاطر.

– أتعرفين أصل كلمة «تراجيديا»؟

– نعم، قرأت عنها في هذا الكتاب أثناء انتظارك. قمت بواجباتي جيدًا، أترى؟ تراجيديا تعني حرفيًّا «أغنية الماعز».

أومأ برأسه متظاهرًا بإعجابه.

– بالضبط. تشير إلى الحيوان الذي قُدّم كتضحيةٍ على مرّ العصور القديمة خلال الاحتفالات الممجدّة لديونيسوس.

– اعذرني، لكنّي أجد صعوبةً في فهم الهدف من ذبح ماعز. ما عدا أكله.

– هي تضحية رمزيّة. يرمز قتل الماعز في نهاية العرض إلى تجديد المسرح. إحياءٌ لثمالة المشهد، التطهير الوحيد من آلام وجودنا.

أطلقت روكسان تنهيدة.

– إذًا، هذه هي نشوتك: تقديم تضحياتٍ صغيرةٍ لنفسك كلّ عام؟ جريمة قتلٍ صغيرة لتكريم ديونيسوس، لتجديد المسرح...؟

مقتنعًا بأنّه سيّد اللعبة، لم يتوقف أمياس عن التبسّم. من الواضح أنّه كان في المكان الذي أراد أن يكون فيه، في الوقت المحدّد لموعده مع القدر. وهذا الانطباع أغاظ روكسان.

– هل قتلتِ رجلًا من قبل؟ سأل فجأةً.

– لا، كذبت الشرطيّة.

– عليكِ حقًّا أن تحاولي.

– سأفكّر في الأمر حين تُتاح لي الفرصة.

– سلبُ حياة شخصٍ لتقديمها كذبيحة، لا شيء أكثر إثارةً وإرضاءً في الوقت نفسه.

رفعت روكسان سحّاب سترتها. كان البرد يخترقها حتّى العظام. في الغرفة سخّانٌ محمولٌ أكل الدهر عليه وشرب، رُكّبَ تداركًا لنقص التدفئة، لكنّه لم ينفث سوى الهواء الفاتر. في ضوء الضُّحى الأزرق الغامق، حملقت في الابتسامة الذئبيّة لأمياس لانغفورد. لم تكتشف شيئًا بعد منذ أن بدأت في استجوابه. تخيّلت أن يكون «زملاؤها» المزعومون يسخرون منها خلف الزجاج. وهم ليسوا على خطأ. كان الرجل يتلاعب بها كما يشاء. يؤدّي دوره، مقدّمًا عرضه بهدوء.

لكن لأيّ جمهور؟

تمسّكت بفكرة الإطار المسرحي هذه. لكي يؤدي دوره، احتاج أمياس إلى جمهور وشريك في الوقت نفسه. وفي هذا المشهد من المسرحية، كانت هي، روكسان مونكريستيين، مَن تشاركه السيناريو. أخذ الشاب الإنكليزي يطقطق أصابعه رغم وجود الأصفاد ضاغطًا على مفاصل أصابعه كما لو كان يحاول كسرها. ولمحت روكسان وشمه من جديد. كانت تعلم جيّدًا أنّ هذا الأداء لم يكن مصادفةً وأنّه كان جزءًا من العرض. كانت تعلم جيّدًا أنّ لانغفورد حاول لفت انتباهها إلى الوشم. بغية أن تتساءل: «ماذا لو كانت هذه كلمة المرور للكمبيوتر؟»).

كانت تعلم جيّدًا أنّها بهذا الاستنتاج سمحت بالتلاعب بها. وافقت على الصعود على خشبة المسرح لأداء دورٍ كتبه لها شخصٌ آخر. كانت تعلم جيّدًا أنّ هذا ما كان ينتظره لانغفورد. كانت تعلم هذا جيّدًا... ومع ذلك، أقبلت على الأمر.

أمسكت روكسان جهاز الـ«ماك بوك» الفضيّ من الطرف الآخر من الطاولة. تحت النظرة الجشعة للمشتبه به، أدخلت ما اعتقدت أنّه مفتاح الجنّة: Totus Mundus Agit Histrionem.

خطأ.

TotusMundusActHistrionem.

خطأ.

حاولت مرّة أخرى لكن بأحرفٍ صغيرة هذه المرّة ففُتح الكمبيوتر أخيرًا واتّصل مباشرةً بالشبكة بفضل تقنية الواي-فاي التي جُهّز بها.

اقتحم أسطول رجال الشرطة الغرفة دفعةً واحدة وهرعوا إلى الكمبيوتر. ظهرت أوّلًا على الشاشة نافذة برنامج عقد المؤتمرات عن بُعد. ضُبطت المنصّة لإتاحة عرض جميع المشاركين. في هذا الوقت من النهار، كان هناك عشرة ضيوفٍ في الاجتماع عبر الإنترنت. خمسة رجال وخمس نساء. ببدلاتٍ بربطة عنق وفساتين سوداء قصيرة. كانت أجسادهم بشريّةً، لكن كان يعلو صدورهم رأس حصان بأذنين منتصبتين. على شكل قنطور لكن بالمقلوب. التحامٌ بين التفكير البشريّ والغريزة الحيوانيّة.

جحظت العيون أمام هذه اللوحة المرعبة وساد صمت شديد في الغرفة إلى أن لاحظ أحد رجال الشرطة الإشارة الضوئيّة الخضراء الصغيرة التي بدأت تومض.

– اللعنة... الجهاز يصوّرنا! هؤلاء الأوغاد يشاهدوننا! صرخ قبل أن تخفض روكسان الشاشة.

رافاييل

.2

باريس. يوم عيد الميلاد. الساعة الثانية عشرة واثنتا عشرة دقيقة ليلًا.

اخترق دويّ بوقٍ صمت الليل. صوتٌ ثقيل ومزعج. كافٍ لإيقاظ نصف الحيّ. البوق المثالي لمشجّعي كرة القدم. ألقيتُ نظرةً خاطفة عبر النافذة متخوّفًا من عودة «بابا نويل» أو أحد أعوانه. كان المكان مقفرًا. لعلّها مجموعة من المحتفلين الثّملين والشّبقين تتسكّع في شارع داساس. لكنّ البوق لجّ وبات الصوت قريبًا جدًّا. اللعنة...

ألصقتُ أنفي بالنافذة. كانت ليلةً سوداء قاتمة. كانت الإضاءة خافتةً إلى أدنى حدّ في المنزل ونصف الأضواء الخارجية وامضة. مرّةً جديدةً جعلني صوت الصافرة أجفل. تبًّا...

هرعت إلى مكتب والدي. في أحد الأدراج، وجدت مسدّس الـMR 73. أدخلت ستّ خراطيش من نوع Special 38. ثمّ ارتديتُ معطفي وخرجتُ في جوف الليل.

ومض شيء ما بشكل خافتٍ في نهاية المساحة العشبيّة، بالقرب من سياج الخيزران. شغّلتُ المصباح اليدويَّ على هاتف الآيفون وتقدّمت بحذر. كانت طائرة بدون طيّار. طائرة كوادكوبتر برتقاليّة وسوداء معدّة بأداة بلاستيكية واسعة الفتحة كانت على الأرجح تطلق الأصوات الحادّة التي أيقظتني. راقبتها لمدّة دقيقتين غير أنّ المركبة الجويّة بقيت جامدة. كنت على وشك العودة إلى الداخل عندما بدأت في التحرّك، محلّقة بشكل عموديٍّ قبل أن تنحرف باتجاه الحديقة النباتيّة. تبعتها بنظري ثم، وبعد تردّد، ركضت وراءها حتّى لا تغيب عن بصري.

غابت الطائرة هنيهة عن مجال رؤيتي، لكنّني عدت ووجدتها في الشارع، على الرصيف أمام سيّارتي. لم يكن من أحد في الجوار، غير أنّ هذا النوع من الأجهزة قد يكون مبرمجًا مسبقًا. فُتحت الطائرة. جلستُ خلف عجلة القيادة. كانت ساقٌ من اللبلاب ملفوفةً حول شاشة نظام التموضع العالمي. قمت بتشغيل الجهاز. أحدهم أعدّ مخططّ رحلةٍ خاصٍّ بي.

هيّا، ارمِ نفسك في عرين الأسد...

لكن في المرحلة التي أنا فيها، هل أملك الخيار؟ ما الذي كان أكثر أهميّةً من أن أفهم؟ تحقّقت من أنّ محفظتي لا تزال في معطفي، وربطت حزام الأمان وصفقت الباب. لم أرغب في التفكير، في تقييم الإيجابيّات والسلبيّات، في بناء الفرضيات أو الاستنتاجات. تعطّلت التّروس في عقلي وتخرّبت. كان عليّ ببساطة أن أفهم. أن أذهب إلى نهاية هذه القصّة مهما كانت المخاطر.

غادرتُ باريس من بوابّة أورليان واستسلمت لنقلي مثل كائن الزومبي، مراقِبًا بشكل ميكانيكيٍّ المسار المعروض على شاشتي: الطريق السريع باتجاه شارتر يليه عبور بيرش. تزوّد بالوقود في لو مان قبل الانطلاق مجدّدًا إلى لافال ثم فيتريه.

الساعة الثالثة والنصف فجرًا. استراحة قهوةٍ في رين. اغتنمت الفرصة للاتصال بالممرّض المناوب في بومبيدو الذي ترك لي رقمه. لا تحسّن في صحّة والدي. من المقرّر إجراء عمليّة ثانية غدًا – فقرة في الظهر أيضًا – ولكن لا مسعى بَعدُ لمحاولة إخراجه من الغيبوبة قبل عدّة أيام.

واصلت طريقي باتجاه طرف بروتاني: سان-بريوك، غانغان، مورليه. كانت ليلة عيد الميلاد هذه تمضي خارج الزمن. رحلةٌ عبر نفقٍ أحاديّ الاتجاه لا مخرج له. كنت تائهًا في أفكاري في ماضيّ، وفيما كان يمكن أن تكون عليه حياتي الآن. كنت أفكّر في ذاك الطفل الذي تحمله غارانس دو كاراديك والذي امتلك كلّ الفرص (السيّئة) لأكون أبًا له. في تلك الدوّامة الوحشيّة التي، مذ كنت في العاشرة من عمري، وغلتُ فيها بأكاذيبي وما برحَت تجتاح كلّ ما في طريقها.

بلغتُ وجهتي حوالي الساعة السابعة صباحًا. قادني الـ«جي بي أس» إلى رصيف ميناء انقشع عن السديم الصباحي، في مكانٍ ما بين روسكوف وسان-بول-دو-ليون. محطةٌ أخيرةٌ غريبة. توقّفت في موقف السيارات المهجور وسرت على جانب الرصيف الغارق في طبقات من الضباب الوهميّ. شعرت بتنميل في الساقين، وآلام في الظهر والضلوع بعد القيادة لمدّة ستٍّ ساعات. كنت متعبًا حتّى الثّمالة. بلبلت الليالي المسهدة التي عشتها في الأيام القليلة الماضية أفكاري ورؤيتي. في هذا المشهد الخارج كأنّه من رواية بوليسيّة، والمطوّق بشرائط من الضباب الكثيف كأنّها طبقات من

اللبن، تكوّن لدي انطباع بأنّ مخلوقًا شرّيرًا قد يظهر على حين غرّة ويبتلعني دفعةً واحدة.

3.

أعلنت ثلاث أصواتٍ جديدة من البوق عن حركة أشبه بالضربات الثلاث بالعصا التي تأذن بانطلاق العرض المسرحي.

انبثقتْ قامة رجل فجأةً من الضباب الكثيف. في الستّينات من عمره، قصير، مفتول العضلات، أصلع ويعتمر قبّعةً مزيّنةً بشارة الجمارك الفرنسيّة.

– سيد باتاييه؟

– هذا أنا.

– اسمح لي أن أقدّم نفسي: فريد ناراكوت. في خدمتكم.

كان يرتدي سروال الزيّ الخاصّ بموظفي الجمارك مزخرفًا بشريط جانبيّ. بدا وجهه متجمّدًا كالقناع باستثناء عين حولاء كانت تطرف باهتياج مثل حشرةٍ مجنونة.

– هل كنت تنتظرني؟

حكّ الجمركيّ ذقنه المغطّى بسكسوكةٍ رماديّةٍ سيّئة التّشذيب.

– نعم، سأكون قبطانك. عليّ أن أقودك إلى الجزيرة.

– أيّ جزيرة؟

– جزيرة كاراديك بالطبع.

تذكّرت أنّ غارانس أثارت أمامي ذات مرّةٍ جزيرةً خاصّةً صغيرةً امتلكتها عائلتها لفترة طويلة. المعقل البروتاني لآل كاراديك.

– أتريد رؤية الوحش؟ سألني.

رافقته إلى نهاية الرصيف البحريّ للتعرّف على الوحش المقصود: زورق شبه صلب من نوع زودياك يبلغ طوله سبعة أو ثمانية أمتار بهيكلٍ من الألومنيوم وعوّامات قابلة للنفخ.

– لكن من طلب منك أن تقودني إلى هناك؟

– أوه، أنت!

– أنا؟

– اتصل بي رجل أوّل من أمس. أخبرني أنّ اسمه رافاييل باتاييه وأنّه يريد حجز قاربي لجولة في الجزيرة صباح عيد الميلاد. ألم يكن أنت؟

أدركت أنّه سيكون من غير المجدي محاولة معرفة المزيد، ففضّلت عدم المجادلة معه.

– تلك الجزيرة، أهي بعيدة عن الشاطئ؟

– على بعد ثلاثة أرباع الساعة بالقارب.

– آه ليست قريبةً. هل من الآمن الإبحار في هذا الطقس؟

– أيّ طقس؟ الطقس جميلٌ، أليس كذلك؟

اعتبرني غبيًّا...

– الجزيرة لعائلة كارادِيك، أليس كذلك؟ هل تعرف ما إذا كانوا يعيشون هناك؟

ضحك موظّف الجمارك هازئًا.

– لم تطأ أيّ قدمٍ هذه الجوهرة منذ وفاة مدمنين عجوزين في أوائل العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين. أحبَّ الثنائي كثيرًا الخمر والحقن.

– ما المثير للاهتمام هناك؟

– الوحدة، إذا كنت تحبّها. لكن لا أخفي عليك أنّها ليست جزءًا من اللذّة حين ترسو هناك.

أخـرج قطعةً مـن عـرق الـسّـوس مـن جيبه وبـدأ فـي مضغها كالحلوى.

– حسنًا، عليك أن تقرّر! لديّ أشياء أهمّ للقيام بها.

أومـأتُ بـرأسي موافقًا على اللحاق بـه فـي الـقـارب. سلّمني ناراكوت سترة نجاةٍ قبل أن يجلس في مقعده. قام بتشغيل المحرّكات وشاشتَي تحكّم صغيرتين. كانت وحدة التوجيه مثّبتةً بعيدًا بما يكفي عن مقصورة التشمّس الاصطناعي. انعطفتُ بالقرب من الصندوق لأحتمي قـدر الإمـكـان خلف الـزجـاج الأمـاميّ المصنوع من البولي كربونات. لطالما عانيت منذ فترة المراهقة من دوار بحر رهيبٍ ولم أكن أحمل معي، بطبيعة الحال، حبوب ميركالم.

– هل سوف نترجرج كثيرًا؟ سألت الجمركيّ.

أعاد ناراكوت تعديل قبّعته ووضع زوجًا من نظارات الغوص.

– نعم، أيها الفتى، سنتزلزل بعد لحظاتٍ! قـال وهـو يندفع بسرعة.

روكسان

4.

تجمّد الزمان والمكان ردحًا من الوقت. كانت صورة الأجساد العشرة – التي ترتدي أقنعة حصانٍ – خاطفةً بقدر ما كانت مرعبةً، فقد خلقت جوًّا من التوتّر في الغرفة كثيفًا لدرجة سدّت الأنفاس. كان رجال الشرطة على حافّة الهاوية، شلّهم الخوف وأقعدهم جيش العفاريت الذين خرجوا من علبتهم. ظهرت ابتسامة أمياس لانغفورد ولمعت عيناه، كان يتلذّذ بالموقف.

لمع في الخارج برقٌ اخترق الغرفة كالسيف مما جعل الرجال يتحرّكون مرة أخرى.

– من كان هؤلاء الرجال؟ سأل كابريرا.

ظلّ سؤاله بلا إجابة وتردّد صداه عبر جدران الغرفة المجمّدة. مشتعلًا بغضب مفاجئ، تمسّك برقبة لانغفورد وهو يكرّر صارخًا: «من كان هؤلاء الرجال؟»

بدا أمياس يستمتع بكلّ رجّة من الشرطي. لقد فهم الجميع أنّ ميزان القوى قد تغيّر. تدخّل سوربييه لتهدئة قائد مديريّة الشرطة القضائية.

كانت روكسان في الخلف، متّكئةً برأسها على نافذة غرفة الاستجواب التي تنساب عليها قطرات المطر، ترنو إلى مزاريب المبنى الجديد الذي لم يعد قادرًا على استيعاب مياه الأمطار. استعارةٌ جميلةٌ للوضع الذي كانوا فيه الآن.

– إذًا، أيّها السمين، نصبح أقلّ مكرًا متى وجدنا أنفسنا على الجانب الآخر من الحاجز، أشار الرجل الإنكليزي عندما أرخى كابريرا قبضته.

اختفت لهجته الألمانيّة تمامًا. غيّرت الحرباء لون جلدها استعدادًا للمنافسة في جولة أخرى.

– عن أيّ حاجز تتكلّم أيّها الحقير؟

– أنتم أمام هيئة تحكيم.

– في محكمة الجنايات، أنتَ من سيجد نفسه في مواجهة هيئة التحكيم، أيّها المعتوه. وستعذّبك أشد العذاب.

ومضت عبارة «هيئة التحكيم» في ذهن روكسان. ابتعدت عن النافذة لإحضار الكتاب من الطاولة حيث وجدت صفحةً عن منظمة الديونيسيا القديمة كانت قد قرأتها في المروحيّة ووضعت عليها التعليقات.

فجأةً أصبح كلّ شيء منطقيًّا في رأسها. الطائرات بدون الطيّار، كاميرات التجسّس، البهلوانات، الشبكة التي اكتشفها لو إيناف،

الأنشودة الديونيسية، القصة الروائية للمرأة المجهولة في نهر السين، البُعد المسرحي الذي قاد هذا التحقيق منذ البداية... فجأة، توضّح المنطق الذي غاب عن بالها في الأيّام الأخيرة كما يتوضّح طريق الحجّ. شكّل الأفراد العشرة بأقنعة الحصان هيئة تحكيم عبر الإنترنت تحاكي تلك الخاصة بالعصور القديمة.

– هذه مواجهة مسرحية، أليس كذلك؟ سألت وهي تدنو من أمياس. تعدّ فرقة «بهلوانات ديونيسوس» واحدةً من الفرق الثلاث التي تتنافس تحت إشراف لجنة تحكيم على طريقة المنافسات في احتفالات الديونيسيا الكبرى.

اتّسعت ابتسامة أمياس لانغفورد أكثر. أخيرًا، قرأت له روكسان النصّ الذي كان ينتظره.

ارتفع صوت طنطنةٍ متتالٍ بفارق بضعة ثوانٍ، للعديد من الهواتف في الغرفة مسبّبًا بلبلةً تفشّت كالوباء. استلّ رجال الشرطة واحدًا تلو الآخر، في الغرفة هواتفهم الذكيّة. نظر سوربييه بوجهٍ منقبضٍ إلى شاشته برهةً قبل عرضها على روكسان. كانت صحيفة لو باريزيان قد واصلت تحقيقها المشار إليه ببرقيّة لوكالة فرانس برس بعنوان: «هل مجهولة نهر السين هي عازفة البيانو ميلينا بيرغمان؟» رغم أنّ الصحيفة تأخّرت بعض الشيء إلّا أنّها شكّلت شرارةً مغريةً لانتشار الخبر في وسائل الإعلام. متفشيًّا في كلّ مكان، أمسى الخبر على كلّ لسان. من خلال تغريدة مكرّرة لمصطلح ad nauseam أو «حتّى الغثيان»، أشعل الخبر المعلّل والمشوّه الشبكات ليجوب العالم.

أرعب هذا الانتشار كالنار في الهشيم رجالَ الشرطة المجتمعين في الغرفة. كان لظهور الخبر في الإعلام لازمة البحث عن كبش فداء. وفي حال فشل التحقيق، سوف يتعيّن عاجلًا أو آجلًا قطع

بعض الرؤوس. وعندما تُجهّز المقصلة، يضمحلّ البحث عن الحقيقة أو المعنى أو الفروق الدقيقة.

رأت روكسان أنّ كلّ العيون قد تحوّلت إليها. كان زملاؤها يغرقون غاطسين في تحقيق لم يفهموا قطّ بواطنه وظواهره. وها هي ذي، منتصرة. لم يبقَ لديهم الآن سوى خيار التعويل عليها. في تلك اللحظة، مثل ملكة في قصرها الشتوي، تفرّستهم بنظرة ملؤها ازدراء. سوربييه، الذي نحّاها قبل خمسة أيّام، كابريرا الضخم، الذي بدا كأنه سيموت بسكتةٍ دماغيّة، أوغاد مديريّة الشرطة القضائية في الضفة اليسرى، أجلاف الكوت دازور المستقوين بلهجتهم التي فاحت منها رائحة المشروب.

كما لو كانوا قد تعاهدوا فيما بينهم، تفرّقوا تدريجيًّا كالجبناء، وبقيت وحدها في مواجهتها الأخيرة مع أمياس لانغفورد. لم يفوّت الشاب الإنكليزي شيئًا من المشهد وكان يتلذّذ بالقتال الوشيك. لأوّل مرّة، رفع الكلفة في حديثه إليها.

– أنت مثل رشّة فلفلٍ حارّ، قال لها وهي تجلس أمامه. الشخص الذي سوف يطيّب الطبق الذي أعددتُه.

فكّرت بسرعة. كان من الواضح أنّ لانغفورد يحتاج إليها ويعتبرها أداةً مفيدةً في المشهد الختاميّ من عرضه المروّع. لماذا؟ عاد تفصيلٌ إلى ذاكرتها.

– في العصور القديمة استمرّت احتفالات الديونيسيا خمسة أيام، أليس كذلك؟ نحن اليوم صباح الجمعة. قصة مجهولة نهر السين بدأت فعليًّا يوم الاثنين الماضي، ما يعني...

– ...أنّ النهاية قريبةٌ. لقد فهمتِ كلّ شيء، عزيزتي.

– إذًا، حان وقت المفرقعات، أليس كذلك؟

– يمكننا القول إنّ التعبير في محلّه.

– ماذا تنتظر إذًا؟ قم بالتفجير.

– لقد بدأ بالفعل، أليس كذلك؟ إذا فهمتِ بشكل صحيح، فإنّ وسائل الإعلام في أنحاء العالم كافة تتحدّث عنّا...

– نعم، لكن هذه ليست إلّا قشور. لكي تفوز في معركتك، أنت بحاجة إلى شيء آخر. إعادة تقديم ذبيحة الماعز، أليس كذلك؟

– أخيرًا بدأت تفهمين. للفوز، علينا إعادة تقديم التضحية العظمى.

– نوّرني.

تجهّم وتنفّس بصعوبة عبر أنفه كما لو أنّه قد شمّ للتوّ خطًّا غير مرئيٍّ من الكوكايين. كانت التشنّجات اللاإرادية تشلّ وجهه. كان يُظهر عنفًا مقموعًا قابلًا للانفجار في أيّ لحظة.

– معركة سلاميس، هل تبدو لكِ مألوفةً؟

مرّة جديدة، استعادت في ذاكرتها صفوفها التحضيرية الأدبية، بكلّ تفاصيلها. 1997، ليسيه لوي-لو-غران. درس الحضارات القديمة في أمسية كلّ ثلاثاء من الخامسة حتّى السادسة مساءً مع الآنسة كازانوفا. انزلقت الإجابة من فمها كأنّها تجيب على اختبار.

– إحدى المعارك البحريّة التي دارت بين اليونانيين والفرس.

– الحروب الفارسية اليونانية، برافو! أنت مثقّفة نوعًا ما، هذا أمر نادر بين رجال الشرطة. كانت سلاميس معركةً حاسمة. ليس فقط في تاريخ اليونان، ولكن أيضًا في تاريخ البشريّة. أتعلمين السبب؟

– كلّي آذانٌ صاغية.

– يعتقد العديد من المؤرخين أنّه لو انتصر الفرس، لكان تطوّر اليونان القديمة توقّف لدرجة كانت ستمنع ازدهار الثقافة الغربية والعالم كما عرفناه. هل تتخيّلين؟ لقد عُلّق مصير حضارتنا في أعقاب معركة!

في غضون ثـوانٍ، تغيّر شكل لانغفورد. نظرةٌ ثاقبة، حدقتان متّسعتان، ابتسامة متعطّشة للدّم، عضلات رقبة ووجه متشنّجة كعضلات حيوان في حالة تربّص.

– خلال هذه المعركة، لم يكن لدى الأسطول اليوناني بقيادة ثيميستوكليس سوى مئتي سفينة تحت تصرّفه مقابل أكثر من ألف سفينةٍ للفرس! بدت المواجهة خاسرةً سلفًا. لإعادة تحفيز قوّاته، قرّر الجنرال اليوناني التضحية بأغلى أسرى الحرب، وأمر بالتضحية بثلاثة أمراء فارسيّين تكريمًا لديونيسوس.

– إذًا هذه هي التضحية العظمى؟ ثلاث تضحيات؟

– نعم، ثلاث جرائم قتل.

– صحّحني إن كنت مخطئة، لكن لم يُقتل أحد في هذه القصّة حتّى الآن.

بدا لانغفورد كأنّه يسعى لالتقاط أنفاسه، ينفخ ويلهث. بقي لبضع ثوانٍ مطوّقًا رأسه بين يديه وجبهته منخفضة. وما إن رفع رأسه حتّى بانت أماراتٌ مرعبةٌ أكثر على وجهه الذي كان مرنًا بشكل غير عادي، مثل قناع حقيقيٍّ من الصلصال. أصبح الآن يختال بحاجبين معقوفين وشعرٍ أشعث نَحت له قرونًا. بعلزبول مجنون هارب من صندوقه. أو جاك نيكلسون في بعض المشاهد من فيلم البريق.

– لم يُقتل أحد؟ آه! آه! آه! نسيتِ بسرعة الأمّ اللطيفة التي هرستها السحاقية اليابانية، تاركةً وراءها يتيمًا مسكينًا يبلغ من العمر ثلاثة أشهر. سترين كم ستقدّر وسائل الإعلام هذه القصة وفشلَ رجال الشرطة الذين عجزوا عن ردعها!

– أنت تعزو إلى نفسك قتلى بثمنٍ بخس! هذه أضرارٌ جانبيّة لم تتمكّن من التنبُّؤ بها.

اعترض والعرق يسيل على وجهه:

– لكن هنا يكمن سحر المسرح الشامل والارتجال! تزرعين البذور وتشاهدين النباتات تنمو.

– وجريمة القتل الثانية؟

تبدّلت ابتسامته الماكرة واشتعلت عيناه بنيران الغضب. كان جسده يتأرجح كالمجنون.

– الضحية الثانية هي أنا.

– أنتَ؟

– لا بدّ لي من التضحية بنفسي، أتفهمين؟

– لا أرى حاليًّا سوى رجلٍ مكبّل اليدين ومراقبٍ من عشرات رجال الشرطة.

– لا يمكنكِ مراقبتي على الدّوام.

بوجه هاذٍ وابتسامةٍ مخيفة، بدأ يكزّ على أسنانه كما لو أصيب بنوبات أدخلته في حالة نشوةٍ روحانيّة.

شعرت روكسان عندها بالخوف. كانت تعلم أنّ مظهره المجنون ليس تمثيلًا. سحبت مسدّس الجلوك من جرابها بينما سمعت جلبة في الغرفة ما وراء المرآة.

– انظري جيّدًا، نصحها لانغفورد في هذيانه.

فجأة، بكلّ ما أوتي من عنف، خبط رأسه بالحافّة المعدنيّة لطاولة الاستجواب. حطّمت الضربة الأولى عظمة أنفه الذي انكسر في الحال ما أدّى إلى فوران ينبوع من الدم. الضربة الثانية شقّت جبهته بعرضها كما لو أنّ سكّينًا ضخمًا قد حزّ بعمقٍ في الجلد ليصل إلى الجمجمة.

اقتحم فيلق رجال الشرطة الغرفة وهرعوا نحو لانغفورد لشلّ حركته.

– سيّارة إسعاف، بسرعة! أمر سوربييه.

كان وجه أمياس ينزف فيما استمرّ في الكزّ على أسنانه هائجًا.

– لمَ يتصرّف هكذا، هذا المعتوه؟ سأل كابريرا بينما بدا الرجل الإنكليزيّ مكبوحًا.

فجأةً، تذكّرتْ روكسان ما قالته لها مديرة الكاستينغ: «قبل بضع سنوات، أدّى دور مقاتلٍ مقاوم في فيلم تلفزيونيّ عن الحرب العالمية الثانية وذهب في مسألة التشابه إلى حدّ زراعة سنّ مجوّفةٍ تحتوي على كبسولة سيانيد حقيقية! أتركك لتتخيّلي الشخصيّة بعض الشّيء...».

في تلك اللحظة، قدّرتْ أن تكون السنّ المزيّفة قد كُسرت للتوّ. تجمّد وجه أمياس بابتسامةٍ مجنونة بينما راحت المادّة السامّة تنتشر في جسده. اندفعت روكسان لإبعاد كابريرا جانبًا وأمسكت الممثّل من شعره.

– من هي الضحيّة الثالثة، أمياس؟

انحنت وقرّبت أذنها من فم لانغفورد آملةً سماع سرّه الأخير. أحسّت بشعرها يلتصق ويختلط مع آثار الدّم المنثال على وجه الرّجل المحتضر. شعرت بأنفاسه الساخنة والحديديّة وهو يحاول التلفّظ بشيء ما.

ثم انتصبت فجأةً وظلّت للحظة بلا حراك. استولت قشعريرة على جسدها، من رأسها إلى أخمص قدمها. أرادت أن تقنع نفسها خلال اليومين الماضيين بأنّ لحظتها العظيمة قد حانت وأنّها استلمت أخيرًا التحقيق الأهمّ في حياتها وأنّها ستحلّه. التحقيق الذي لم تعد تنتظره والذي سيعيد حياتها إلى المسار الصحيح. لكنّها ضلّت طريقها، مرّةً أخرى.

فتحت الكمبيوتر من جديد. كان الرجال أصحاب رؤوس الأحصنة قد اختفوا منذ فترةٍ طويلة. ضغطت لعرض نافذةٍ مصغّرة

في زاوية الشاشة. ظهرت صور التقطتها عدة طائرات بدون طيّار. اعتقدت روكسان في البداية أنّها تعرّفت على منظرٍ طبيعيّ يوناني، ثمّ أدركتْ أنّها كانت جزيرة كاراديك في بروتاني حيث كان قارب يرسو على شاطئها.

اجتاحتها شحنة كهربائيّة على امتداد نخاعها الشّوكي. كانت جريمة القتل الثالثة والأخيرة على وشك الحدوث. وكانت هي على بعد أكثر من ألف كيلومتر من مسرح العمليّات.

17

مجهولة نهر السين

لا نتحرّر من شيء بتفاديه، بل عبر اجتيازه.

تشيزاري بافيزي

t.me/soramnqraa

1.

كان قارب الزودياك يتلقّى الأمواج الكبيرة واحدةً تلو الأخرى في تأرجح مستمرّ. عند دفّة القيادة، بدا ناراكوت مثل السمك في الماء، يمضغ عرق السوس. كان هادئًا على المياه المتقاذفة بقدر ما كنت أنا مضطربًا. دامت الرحلة إلى جزيرة كاراديك دهرًا. في هذا البحر الهائج، أرعبني وأزعجني كلّ شيء. الضباب اللؤلؤيّ الخانق، رذاذ رائحة الطحالب المتعفّنة، الأمواج الجليديّة التي تضرب الزورق بلا هوادة.

وبدأ المطر ينهمر، فزاد الطين بِلّة. سبّب الارتجاج اضطرابًا في معدتي. تمركز الخطر في كلّ مكان. تكوّن لديّ مع كلّ خبطة موجٍ جديدة انطباع بأنّ يدًا سوداء سترتفع من الأعماق لتبتلعنا. في المقعد الخلفي، ملتفًّا حول نفسي، تشبّثت بقبضتي على الهيكل المعدني، ثمّ أغمضت عينيّ في محاولةٍ لفصل نفسي عن هذا

الكابوس. لم يبقَ أمامي سوى أن أصرّ على أسناني في انتظار مرور العاصفة، والسماح لعقلي بالانجراف في الضباب الكثيف كأنّه لبن، عاجزًا عن تركيز انتباهي.

من الصعب أن أخمّن الوقت الذي استغرقته الرحلة البحريّة، لكن في اللحظة التي قرّرت فيها أن أفتح عينيّ من جديد، كان المشهد قد تغيّر جذريًّا. بدأ الحجاب الملبّد بالغيوم مخترَقًا من ضوء الصباح، بالتبدّد ليكشف عن جزيرة كاراديك. وضعتُ يدي أمام عينيّ لأستمتع بالمنظر بشكلٍ أفضل. استحضرتِ الجزيرة إلى ذهني على الفور غلاف تان تان في الجزيرة السوداء للمؤلّف هيرجيه. لم يكن هناك من شريطٍ رمليّ، صخور فقط وبراح يطوّق قمّةً ينتأ منها ما يشبه البرج المحصّن الصغير من القرون الوسطى.

– إذًا، ليست سيئةً، أليس كذلك؟ قال ناراكوت.

كان القارب قد خفّف سرعته. هبّ الهواء وكان الطقس جميلًا نوعًا ما.

– أنرسو على السّفح المقابل؟

هزّ رجل الجمارك رأسه وأوضح: «لا. هذا المدخل الوحيد للجزيرة، على المنحدر الجنوبيّ. الجانب الآخر أكثر انحدارًا بعدُ».

كلّما اقترب المركب، أدركتُ أنّ الرسوّ سيكون محفوفًا بالمخاطر. لم يُنصب هنا في الواقع سوى حاجزٌ قصير نسبيًّا للأمواج وصبب حجريٌّ نصفه محطّم.

كان ناراكوت يكافح. أجبرته الرّياح القوية والمتقلّبة على تعديل زاوية المحرّك باستمرار دون التوصّل فعًلا إلى موازنة القارب.

– هل يمكنك القفز؟ سألني مسلّمًا جدلًا أنّه لن يتمكّن من التقدّم أكثر.

حشدتُ قواي واندفعت لأرتطم بوجهي على حوض السّفن الإسمنتي. نهضتُ وتوجّهت إلى ضفّة مليئةٍ بالحصى والحجارة.

– أحسنت أيّها الفتى! صاح الجمركي. والآن، الأمر متروكٌ لك!

لوّح لي بيده، ثم التفّ وتوارى عن الأنظار.

.2

اجتزت امتدادًا من نبات السرخس والجولق قبل أن تتنمّق المناظر الطبيعيّة بلمسات إيرلندية: التحمت التربة الطينيّة في نتوءات صخرية فرسمتْ ما يشبه مرتفعًا عملاقًا يرتفع صعودًا إلى القلعة.

من المحتمل أنّ ارتفاع الجزيرة يبلغ حوالي أربعين مترًا فوق مستوى سطح البحر. تسلّقتُ «الدّرج» لأجد نفسي أمام برجٍ رباعيّ الأضلاع محاصرٍ ببرجَي مراقبة. مكان للإقامة والدفاع يشبه الأبراج-المنازل التي رأيتها في اسكتلندا. لكنّ قصر كاراديك القديم كان في حالة خرابٍ منذ وقتٍ طويل. أطاح الهواء بجزء من السقف، وتجرّدت النوافذ من زجاجها فيما كانت مقصورة الحراسة في الجهة الجنوبيّة معرّضة لخطر الانهيار.

لمحتُ من بعيد، وأنا أطوف حول الصّرح، ممرًّا ينحدر على الجانب الآخر عبر الصخور والنباتات. سلكت الطريق إلى أن وصلتُ إلى نتوء صخريٍّ يشبه الهضبة ويعرض منظرًا بانوراميًّا على السّفح المخفيّ من الجزيرة. كان ناراكوت يقول الحقيقة. كان هذا الجزء من الجزيرة، المكسوّ بالوزّال، أكثر انحدارًا، لكنّه كان أيضًا جنّةً للصقور وطيور الباشق والبفن.

أكملت طريقي حتّى الطرف الشرقيّ لأجد نفسي أمام سلسلةٍ صدئةٍ تعيق التقدّم في الممرّ وحيث رُفعت كتحذير لافتةٌ قديمة من الميناء: طريقٌ خطِر للغاية.

– مرحبًا رافا!

التفتُّ حول نفسي عند سماع صوت أختي من خلفي.

– مرحبًا فيرا.

كانت تبلغ من العمر في هذا اليوم سبع أو ثماني سنوات، كما في ظهورها الدائم خلال الأسابيع القليلة الماضية. ترتدي سروالًا قصيرًا باللون الكاكي وقميصًا أصفر وهّاجًا وتضع على ظهرها حقيبةً تدلّت منها زجاجة ماءٍ صغيرة.

– تبدو متعبًا، قالت لي بعد أن توقّفتُ أمام اللافتة.

– هذا صحيح، لم أنم جيّدًا.

نظرتْ إليّ عبر نظارت شمسيّة على شكل قلبٍ وعبست بعد أن لاحظت الكدمات على وجهي.

– من فعل هذا بكَ؟

– تشاجرت مع بابا نويل.

– رافا! أعلم أنّه غير موجود!

كانت الشمس قد طلعت بالكامل وبدأت ترتفع في السماء، متعاركةً مع السّحب وملطِّخةً الأفق بضوء متلوّن. توجّهت فيرا للجلوس تحت شجيرتَين من الميموزا وناولتني زجاجة المياه بابتسامة عريضة.

– معي عصير برتقال! هل أنت عطشان؟

– نعم، أشرب.

انضممت إليها وأخذت رشفتين كبيرتين أشعرتاني برغبةٍ في أن أرتوي من انتعاش الطفولة الحلو. ثم جلستُ بجانبها وشاهدتها

تضحك وتغنّي وتستمتع بالهواء الذي يداعب ذيلَي الحصان في شعرها.

لقد زرت كلّ الأطباء النفسيّين، وتعاطيت جميع الأدوية، وخضعت لكافة العلاجات. ومع ذلك، لم يأتِ يومٌ لم أفكّر فيه في موت أختي. لم يأتِ يومٌ لم أسترجع فيه صورة فيرا وهي تصرخ، أسيرة الفرن المعدنيّ. كنت أعرف جيّدًا أنّها ربّما نادتني لمساعدتها. كنت أنا من تلجأ إليه في كلّ مرّةٍ واجهتها مشكلة. عندما فرغ إطار درّاجتها من الهواء، عندما علقت قدمها وهي تتسلّق الشَّبك المعدنيّ لسياج الحديقة. كانت تناديني وكنت أتدبّر أمري لأضع حدًّا لانزعاجها. كنت بطلها. وكان هذا الموقع بالذات الذي أحببت أن أشغله.

– لقد سبق وأخبرتكَ أنّه لم يكن بإمكانكَ مساعدتي، قالت لي كما لو كانت تقرأ أفكاري.

كنّا نردّد الحوار نفسه في كلّ مرّة، بالكلمات نفسها تقريبًا.

– ما كان عليّ أن أترككِ مع أمّي. ما كان عليّ أن أكتب تلك الرسالة المجهولة.

هزّت كتفيها بعبوس محيّر كأنّها تتحامل على نفسها.

– كان عمرك عشر سنوات. لم يكن لديك خيار. لا فائدة من إيلام نفسك بسبب ذلك.

– لكن لمَ تعودين في كلّ مرّة؟ لمَ لا تغادرين إلى الأبد؟

تجنّبت سؤالي وراحت تقوم بحركات بهلوانيّة. لكنّني أصررت.

– لن تغادري أبدًا، أليس كذلك؟

– لا، ردّت فيرا.

– لماذا؟

– لأنّك لن تسمح لي بالذهاب أبدًا.

سالت دمعةٌ وحيدة على خدّي، واعتصمنا بالصمت لبضع دقائق. اكتفينا بتأمّل المنظر الطبيعيّ والغيوم التي كانت تطوف فوقنا بسرعةٍ فائقة. كنّا سعيدَين. كان الهواء يدندن بين أغصان الميموزا والضوء يتبدّل باستمرار كما لو كان الله يتسلّى بالمحوّل الكهربائيّ لمصباحٍ عملاق. في غضون ثوانٍ قليلة، استطاعت الصخور أن تتحوّل من الأبيض إلى الرمادي، من منحدرات إتريتا الفرنسية إلى منحدرات دونيت هيد الاسكتلندية.

تمنّيت لو تدوم تلك اللحظة إلى الأبد، لكنّ الوقفة السّارة انتهت بمجرّد أن نهضت فيرا واستعادت زجاجة الماء من يدي.

– عليّ الذهاب.

– إلى أين؟

– لرؤية أبي، أجابت وهي تضع حقيبتها على ظهرها. سنتقابل على شاطئٍ صغيرٍ قريبٍ من هنا.

– لا يوجد شاطئ في الجوار يا فيرا وأبي ليس هنا. إنّه في باريس، في المستشفى.

– ليس لوقت طويل.

أعادت ربط رباط حذائها واجتازت السّلسلة التي سدّت الطريق.

– انتظريني!

أردت أن أتبعها، لكنّها راحت تهرب منّي إلى أن اختفت في لحظة.

.3

باريس. مستشفى بومبيدو.

صباح عيد الميلاد، الساعة الثامنة وثماني وعشرون دقيقة.

– دكتور، لدينا مشكلةٌ مع مريض الغرفة رقم 18.

– مارك باتاييه؟ ما به؟

– نحن على وشك أن نفقده.

– غير ممكن. كانت حالته مستقرّةً تمامًا عندما مررت لرؤيته!

– نعم لكنّها لم تعد كذلك...

– حسنًا، أنا آتٍ.

لم أستفق من الغيبوبة ومع ذلك أسمعهم يتحدّثون. أشعر بهم يحومون حولي. أراهم يحاولون إنعاش جسدي المسنّ. تدليك القلب، أوسيلوسكوب، جهاز الصدمات الكهربائية. مئتا جول في هذا الجسد على أمل إعادة تشغيل الماكينة! لا فائدة. أستعدّ للإقلاع. أحزم أمتعتي، أهجر هذا المستشفى المشؤوم، هذا الوجود الهامد. مثل السّلمون البريّ، أرتفع في النهر لأموت. أدرينالين، أمبولات كوردارون. لا حاجة للتزوّد بالوقود أو محاولة إعادة شحن البطاريّات، فقد نفدت البطاريّة. لم تعد ترغب المركبة بالذهاب إلى أيّ مكانٍ. سأغادر مرتاحًا، لا تمنعوني. لم يعد لديّ شيء آخذه أو أعطيه. اتركوني، اتركوني!

– بابا؟

استدرتُ، لكنّي لم أعد في المستشفى. بهرت أشعّة الشمس بصري. كان الهواء المحمّل بالملح يخبط وجهي وكان لون الرّمل ذهبيًّا.

– بابا!

– فيرا...؟

لم أحلم بها أبدًا من قبل. فمنذ أن فقدتها، وللتأكد من ألّا ألتقي بها في مفترق كابوسٍ ما، لم أكن أنام إلّا مع جرعة من الحبوب المسكّنة. إرهاق أكثر منه ألم.

– تعال لتسبح. المياه رائعةٌ للغاية!

تقدّمت في الماء للانضمام إليها فألقت بنفسها حول رقبتي واجتمعتُ بها من خلال قطرات الضوء. بكيتُ، ضحكتُ. تشبّثتُ بكلّ قوّتي برائحتها، ببريق عيونها، بضحكاتها المتكرّرة.

كنت أعلم أنّني هذه المرّة لن أسمح لأيّ شخصٍ بإبعادها عنّي.

.4

جزيرة كاراديك.

بعد أن غادرت فيرا، رحت أسير على طول المنحدرات عبر طريقٍ ضيّق حفره التآكل البحريّ. كان المنظر البانورامي يسبّب الدّوار. بدا البحر متلألئًا، لكنّ صوت الأمواج المتكسّرة على طول الأجراف حذّرت من الخطر المميت الذي قد يكمن وراء أيّ خطوةٍ خاطئة. مع التفاف المنعطف، بهر انعكاس الشمس عيوني كما لو أنّ شخصًا ضخّ رشّةً من الزئبق في وجهي. لم أعد قادرًا على الرؤية فحميت نفسي بساعديّ. ما إن تلاشت البقع السوداء التي ترفرف أمام عيني حتّى تكشّف أمامي منظرٌ طبيعيّ غير متوقع. على مرمى حجر من المياه، أعيد بناء مسرحٍ قديمٍ صغير، مثل صَدَفة عملاقة تفتّحت في الصخر.

كم كان عمر هذا المبنى؟ شُيّدت الساحة المكشوفة على جانب تلٍّ على المنزلقات التي كانت تنحدر نحو البحر. وكانت المدرّجات الحجريّة المبنيّة في نصف دائرة تحيط بأوركسترا صغيرة يتربّع في وسطها تمثالٌ كامل لجسم ديونيسوس. على مسافةٍ قريبة، أقيم مسرحٌ من ألواح خشبيّة بارتفاع بضعة أمتار. وفي وسط هذا المشهد، جلستْ غارانس دو كاراديك مقيّدةً على كرسيٍّ بدائيٍّ

مصنوع من أغصان الشجر، مرتديةً جلد حيوان، مكشوفةً على كافة الجوانب كضحيّةٍ ذبيحة.

جلت بالنظر حواليّ لكنّي لم ألمح أحـدًا. أخرجت مسدّس الـMR 73 من جيبي ولقّمته ثمّ سلكت ممرًّا للانضمام إليها.

– غارانس!

ما إن تسلّقتُ خشبة المسرح عبر درجٍ جانبيّ حتّى ظهر فوقي سرب من الطائرات بدون طيّار. أربعة، خمسة، ثم ستّة أجهزة مزوّدةٌ بكاميرات تجوب السماء.

– رافاييل! صرخت غارانس مذعورةً بالرغم من الوشاح المربوط حول فمها.

قمت بتحريرها من الرّباط على فمها والحبال التي تضيّق على يديها وكاحليها. كان جلد الحيوان الذي ترتديه على شكل رداء شنيعًا ونتنًا: فرو حيوانٍ حقيقيٍّ يعلوه رأس ماعز.

– من قيّدك هنا؟

– سأشرح لكَ. علينا الذهاب. بسرعة!

– ولكن كيف؟

– هناك قارب يرسو على الجسر العائم خلف الممر.

– احترسي!

كانت الطائرات التي تطوف حولنا تقترب بشكلٍ خطير، وتحلّق في دوائر متمركزة، كما لو كانت مبرمجة لمهاجمتنا. سارعتُ إلى تصويب المسدّس في اتّجاهها بغية إخافتها. فيما العرق يبلّل كفّي وأصابعي مشدودة على الزناد، حاولتُ إطلاق النار على واحدةٍ منها. أخطأت هدفي بطبيعة الحال لأني لم أكن قد استخدمتُ سلاحًا في حياتي كلّها. انتشلت غارانس المسدّس مني.

– دعني أحاول.

كما لو أنّها فعلت ذلك طوال حياتها، غمرت المقبض بيديها ماسحةً السماء بواسطة المسدّس قبل أن تطلق طلقتين وتفجّر طائرتين. سرعان ما تراجعت الطائرات الأربع الباقية بشكل مؤقّت.

سعيدة بعملها البطولي، وقفت للحظة ساكنةً بلا حراك توجّه ابتسامةً للشمس. أضفى الضوء حدّةً جنونيّة على عينيها الخضراوين-الزرقاوين.

مستعجلًا للرحيل، مددتُ يدي إليها، لكنّها رفضتها.

– عليك أن تحترس، رافاييل.

– ممّن؟

– منّي أنا.

وبينما نظرتُ إليها محاولًا فهم ما قصدته، وجّهت المسدّس نحوي ودون سابق إنذار أطلقت رصاصةً أصابتني فوق ركبتي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5.

انصهر صراخي في صدى دويّ الرصاص. قُذفتُ إلى الوراء هابطًا على المقعد المصنوع من الأغصان. وضعتُ يدي، بداهةً، على جرحي لأتحقّق من أنّ ضرًرا كبيرًا لم يلحق برضفتي. كانت الصدمة عنيفةً لدرجة تولّد لدي انطباع بأنّ الرصاصة قد مزّقت جزءًا من ساقي.

– لماذا؟... نطقت هامسًا.

شعرت في الثواني الأولى بأنّ جسدي قد فقد قدرته الحسيّة، لكن سرعان ما بدأت أشعر تدريجيًّا بالألم.

– لماذا؟ لماذا تفعلين ذلك؟

– لأنّك الضحيّة الثالثة. الذبيحة الثالثة المقدّمة لديونيسوس.

حاولت أن أفهم وأن ألتقط أنفاسي. كان جزء منّي يعتقد بأنّني سأكون قادرًا على إقناعها. لكنّ الجزء الآخر أخبرني أنّني سوف أُذبح بأسرع وقت ممكن.

– غارانس، استجمعي نفسك. أمياس هو من جرّك إلى هذا الأمر. هو من وضع هذه السخافات في رأسك.

– طبعًا، هو دومًا خطأ الرجال. ونحن اللطيفات المسكينات ضحايا السلطة الأبويّة القمعية. ها! ها! ها! لكنّ أمياس مجرد أناركي مثير للشفقة، قالت غاضبةً. مسكينٌ ينفّذ كلّ ما أطلبه أنا منه.

أفسحت الابتسامة المجال أمام غضبٍ شديد. كانت قد نزعت عنها جلد الماعز فانكشف تحت هذا الزيّ فستانٌ مدهش مزخرفٌ بمئات القطع الصغيرة من المرايا التي عكست السماء والبحر.

– لا شيء من هذا منطقي يا غارانس.

– هل الحريّة غير منطقية؟

– ما علاقة الحريّة بهذا؟

– لا تُحقَّق الحريّة إلا في حالة السُّكر، والمخدّرات، والخيال، والأحلام، والمسرح، وارتداء ملابس الجنس الآخر: كلّ ما يمكن أن يفصلنا عن المكان الذي أرادوا تخصيصه لنا. هل تعلم أنّه في العصر الإليزابيثي، أطلق المتشدّدون على المسرح اسم «بيت الشيطان»؟ اعتبروه مواتيًا للرذيلة والفجور، لأنّه كان منحرفًا وانتهاكيًّا.

باتت الشمس الآن تلمع متوهّجةً في السماء. وقفت غارانس بمفردها على خشبة المسرح، تلقي نصّها كملكة في قصرها الصّيفي. تابعتُ بإصرار رغم انقطاع نفَسي.

– عذرًا لكنّي لم أفهم العلاقة بين الاثنين.

– بل تفهمها جيّدًا، أجابت بما يشبه حنان الأمّ. لأنّنا أنا وأنت متماثلان. أيقنتُ ذلك منذ لقائنا الأوّل. الحياة لا تطاق بالنسبة إلينا.

نبحث عن مخارج أينما كان حتّى لا نموت من الحقيقة. لا يمكننا قبول وجودنا إلا باللّجوء إلى بديلٍ مؤقّت. هو في الكتابة بالنسبة إليك وكلّ الأكاذيب التي قلتها دائمًا لوالدك. وبالنسبة إليّ، في التمثيل، الهويّات المتعدّدة، دُوار التلاعب. نحن لا نعيش في الحياة الحقيقيّة، رافاييل. نحن نتطوّر في «واقع افتراضي» أنشأناه ويدخل في منافسة معها. هل تعلم أنّ هذا المصطلح استُخدم لأوّل مرة عند الحديث عن المسرح؟

كانت مبتهجةً ومنشرحةً، تشاهدني أُحتضر دون تعاطفٍ أو شعورٍ بالذنب.

صررت على أسناني. كان الألم فظيعًا. أسوأ من أيّ شيء مررت به من قبل. شعرتُ بعظم الفخذ يتفكّك في ساقي.

– إذا... إذا كنت مثلكِ، فلماذا... لماذا تريدين قتلي؟

– لأنّ هذا هو جوهر التراجيديا يا حبيبي. أنت البطل الذي يكافح عبثًا للهروب من مصيره.

– وأنتِ، من أنتِ؟

– أنا فاعلة الخير التي تأتي لتحرير روحك المخنوقة. وأنا القوّة المسلّحة للقدر. الشخص الذي يقتلك ليسمح لك بأن تولد من جديد.

– أولد من جديد؟...

استجمعتُ قواي وحاولتُ في محاولة أخيرة النهوض وانتزاع السلاح منها، غير أنّها ابتعدتْ بسهولة وأطلقتْ رصاصةً أخرى أصابتني في صدري.

سقطتُ في منتصف المسرح وذراعيّ متقاطعَين على صدري بينما عادت الطائرات الأربع المسلّحة بكاميراتها لتحلّق فوق رأسي ملتقطةً لحظاتي الأخيرة.

6.

دموعٌ دافئةٌ ومالحةٌ انهملت من عينيَّ نصف المغلقتين. خلف هذا الفلتر الشفّاف، رأيت – أو تصوّرت – غارانس دو كاراديك تغادر المسرح وهي تُفرج لي عن ابتسامةٍ أخيرة. ثم تشوّشتْ رؤيتي تمامًا وأغمضتُ عينيّ.

سمعت صوت البحر يرتفع بصمت. الضحكة الساخرة لإله الانتقام. كنت أتعرّق، أشعر بالبرد ثمّ بالحرّ. أحسّ بعروقي المنتفخة بالدّم الدافئ تنبض في رقبتي. تغمرني صورٌ وأحاسيس مهدّئة. نضارة المساحات الخضراء، السّحب الفضيّة، انتصار شمسٍ عطوفة.

ثم ترنّح كلّ شيء كانعكاسٍ قطبيٍّ ووجدت نفسي فجأةً في ضوء ساطع، حافي القدمين على الشاطئ.

بدا جسمي خفيفًا بشكل لا يصدّق، مجرّدًا من كلّ معاناته. عمري عشر سنوات! أخطو بعض الخطوات السعيدة على الرمال الرطبة.

– رافا!

استدرت عندما سمعت صوت أختي.

– كنت أعلم أنّك ستأتي!

كانت فيرا هنا، مع أبي.

كانا ينتظراني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لكنّنا سننزل سويًّا نحو الشمس. سيأتي وقتٌ نكون فيه، رغم كلّ الأوجاع، خفيفَين وسعيدَين وصادقَين. [...] سنهرب من بلاد الظلام هذه، وسأستعيد كلّ قوّتي وسنكون من أطفال الجنوب السُّمر الجميلين».

ألبير كامو إلى ماريا كازاريس،

26 شباط/فبراير 1950

MENU

ouest france

[redacted]

روسكوف - تدخّل قوّات الدرك البحريّة في جزيرة كاراديك

25 كانون الأوّل/ديسمبر 2020 – الثامنة واثنان وخمسون دقيقة صباحا

تدخّلت قوّات الدرك البحريّة في روسكوف (فينيستير) على جزيرة كاراديك في محاولة إنقاذ رجلٍ أصيب بجروح خطيرة.
بناءً على طلب النقيب روكسان مونكريستيين من الفرقة الوطنية للبحث عن الهاربين (BNRF)، هبط ستّة جنود من الدرك البحريّ في وقت مبكّر من صباح اليوم على الساحل الجنوبي لجزيرة إنيز-هونفريدل، الشهيرة باسم جزيرة كاراديك، تيَمنًا باسم العائلة التي تملكها.
كانت الجزيرة غير المأهولة بالسكان منذ عدّة سنوات مسرحًا لإطلاق نار في ظروفٍ لا تزال تحتاج إلى التوضيح. تسبّب تبادل الطّلقات بإصابة رجل واحد على الأقلّ، في الأربعينات من عمره، تلقّى عدّة رصاصات في صدره وساقه.
نُقل بطائرة هليكوبتر إلى مستشفى بريست العسكري (مستشفى كليرمون-تونير للتدريب العسكري) في حالة صحيّةٍ مقلقةٍ للغاية ولا تزال حياته مهدّدةً.

مزيد من المعلومات لاحقًا...

المراجع

صفحة 7: رومان غاري، وعد الفجر، غاليمار، 1960؛ صفحة 13: جورج سيمنون، الابن، مطبعة المدينة، 1957؛ صفحة 18: صباح السّحرة، لويس باويلز، جاك بيرجييه، غاليمار، 1960؛ صفحة 31: جول سوبرفيل، طفل أعالي البحار، مكتبة غاليمار، 1931؛ صفحة 40: هارولد آرلين، ساحر أوز، 1939؛ صفحة 47: لويس أراغون، أوريليان، غاليمار، 1944؛ صفحة 61: لو تان روتروفيه، مارسيل بروست؛ صفحة 67: سيرج فيليبيني، الرجل المحترق، فيبوس، 1991؛ صفحة 69: لويس أراغون، «سننام معًا»، مجنون إلسا، 1963؛ صفحة 69: فرانس كافكا، رسالة إلى فيليس باور؛ صفحة 72: خجل الأشجار، رافاييل باتاييه؛ صفحة 81: «كومة صغيرة بائسة من الأسرار»، أشجار الجوز من آلتنبورغ، أندريه مالرو؛ صفحة 83: رسالة من بول سيزان إلى لوي أورانش، 25 يناير 1904؛ صفحة 95: تريستان، توماس مان؛ صفحة 99: يُنسب إلى أونوريه دي بلزاك، وفقًا لنظريّته حول السّير، 1851؛ صفحة 115: فيليب ك. ديك، «كيف نبني كونًا لا ينهار بعد يومين»، 1978؛ صفحة 129: دونا تارت، سيّد الأوهام، مجموعة «فو كروازيه»، بلون، 1993؛ صفحة 138: الباكوسيات، يوريبيديس؛ صفحة 145: بوريس فيان، تهويدة للدببة الغائبين، فيارد، 2001؛ صفحة 155: بيار لويس، أغاني بيليتيس، مكتبة الفن المستقل، 1895؛ صفحة 177: فرانسيس پيكابيا، جيزو-كري راستاكوير، مجموعة دادا، دار نشر «أو سان باراي»، 1920؛ صفحة 197: مارسلين دي بورد فالمور، «المنفصلان»، في الأعمال الشعريّة، مطبعة غرونوبل الجامعية، 1973 [1839]؛ صفحة 203: قسطنطين ستانيسلافسكي (1863-1938)؛ صفحة 219: فيليب روث، الرعوي الأميركي، غاليمار، 1999؛ صفحة 225: آه! النبيذ الأبيض

الصغير، كلمات جان دريجاك؛ صفحة 229: البحث عن الزمن المفقود، مارسيل بروست؛ صفحة 234: جيرار دي نيرفال، «إل ديستيتشادو»، الأوهام، «بنات النّار»، 1854؛ صفحة 237: جويس كارول أوتس، شقراء، مجموعة لا كوسموبوليت، ستوك، 2000؛ صفحة 267: أبجديّة جيل دولوز، وثائقي، مع كلير بارنيه، 1996؛ صفحة 295: بول فاليري، «الخطوات»، شارم، غاليمار، 1922؛ صفحة 301: لويس جوفيه، ممثل بلا جسد، مجموعة شان، فلاماريون، 2009؛ صفحة 325: تشيزاري بافيزي، مهنة العيش، غاليمار، 1958؛ صفحة 336: في الملاحظات التي دوّنها نيتشه عن عمله غير المكتمل، إرادة القوة؛ صفحة 339: ألبير كامو، ماريا كازاريس، مراسلة، 1944-1959، رسالة 26 فبراير 1950، غاليمار، 2017.

الفنّانون والأعمال الأخرى المذكورة

فريق البيتلز، ديفيد بوي، مارلون براندو، بيتر بروك، لويس كارول، ناتان فولز، إي.أم. فورستر، هيرجيه، جان ماري غوستاف لو كليزيو، مارلين مونرو، رومان أوزورسكي، إلفيس برسلي، وليام شكسبير، بيار سولاج، شارل ترونيه، أوسكار وايلد. شرطي أو مجرم، جيرونيمو ستيلتون، مشكلة كبيرة في الصين الصغيرة، مجاري الجنّة، نوسفيراتو، أورانج ميكانيك، خوف على المدينة، بيف غادجت، البريق، أحدهم طار فوق عش الوقواق.

مقهى ليبرتي، يوهان مورس وفاليري جانفييه هم طبعًا إيماءات لذكرى جورج سيمينون. على نحو مماثل، فقد ذُكر اسم فريد ناراكوت تكريمًا لأغاثا كريستي. ساعة «ريزونانس» الحقيقية والتي شكّلت مصدر الإلهام للساعة المذكورة في الرواية (ص. 68) هي من ابتكار فرانسوا-بول جورن. من بين الأماكن التي تجري فيها أحداث القصّة، استوحي البيت الزجاجي من «منازل زجاجية» أخرى موجودة في جميع أنحاء العالم، ولاسيما في الولايات المتحدة.

المحتويات

مكتبة
t.me/soramnqraa

I
مجهولة نهر السين

الاثنين 21 كانون الأوّل

1. برج الساعة 13
2. المستوصف 31

الثلاثاء 22 كانون الأوّل

3. ميلينا بيرغمان 47
4. راكبة الرحلة AF 229 67
5. في البيت الزجاجي 83
6. كاتب في مصحّة المجانين 99

II
قرين

7. رافاييل باتاييه 115
8. العالم عكس ما هو عليه 129

الأربعاء 23 كانون الأوّل

9. ظلّ ديونيسوس 145
10. الليل في القلوب 155
11. قصر الأوهام 177

الخميس 24 كانون الأوّل/ديسمبر

12. السبب الخفيّ 203
13. ابن بيبيل 219

III
بهلوانات ديونيسوس

14. الحقائق الأربع 237
15. حافّة الجنون 267

الجمعة 25 كانون الأوّل/ديسمبر

16. العالم مسرح 301
17. مجهولة نهر السين 325

المراجع 341

مجهولة نهر السين — ليلة أمس، انتشلت الشرطة النهريّة صبيةً من نهر السين. كانت عاريةً إلّا من بعض الوشوم، فاقدةً للذاكرة، لكنّها لا تزال على قيد الحياة. من نهر السين اقتيدت إلى مستوصف مقرّ الشرطة في باريس، ومن هناك، ضاعت وأصبحت أثرًا بعد عين.

حتى الآن، القصّة عادية. ولكن، عندما تفصح التحليلات الجينيّة والصور عن هويّتها، ويتّضح أنّها ميلينا بيرغمان، يصبح الموضوع أكثر تعقيدًا. فعازفة البيانو الشهيرة ماتت منذ عامٍ إثر تحطّم طائرة.

رافاييل خطيبها السابق، وروكسان شرطيّة استُبعدت للتوّ عن العمل في السلك، يجدان نفسيهما فجأةً في عين القضيّة: كيف تكون الشابّة ميتةً منذ عام، وحيّةً ترزق اليوم؟ وما قصّة الوشم؟ وكيف ستقودهما تلك المغامرة إلى عوالم المدينة الخفيّة وطقوس جماعاتها السريّة وأساطيرها المجنونة؟

«سيّد التشويق في فرنسا.»

— The New York Times, USA

© Emanuele Scorcelletti

غيوم ميسو — هو الروائي الفرنسي الأكثر قراءة في فرنسا منذ عشر سنوات. وُلد في العام 1974 في أنتيب، وبدأ التأليف خلال سنوات دراسته ولم يتوقّف منذ ذلك الحين. في العام 2004، ظهر كتابه «Et Après» الذي كان سبب لقائه بالجمهور، تبعته كتب ترجمت نوفل منها «الصبيّة والليل» (2019)، «حياة الكاتب السريّة» (2020)، و«الحياة رواية» (2021).

تُرجمت كتبه إلى أربع وأربعين لغة وبعضها حُوّل إلى أفلام، كما لاقت نجاحًا كبيرًا في فرنسا وسائر أرجاء العالم.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-614-060-000-3
9 786140 600003
نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان